روايات العراق

نوريا أمات

أسرار حميمة

fb/mashro3pdf

أسرار حميمة

بقلم

نوريا أمات

ترجمة

د. طلعت شاهين

●

دار الهلال

fb/mashro3pdf

هذه هى الترجمة الكاملة لرواية

La intimidad

للكاتبة الإسبانية

Nuria Amat

fb/mashro3pdf

الغلاف للفنان

عصام طه

- ١ -

كانت غرفتى تقع فى الطابق الأول من بيتنا الذى كنا نعيش فيه ، والكائن فى شارع «بيدر ألبس» ، تطل غرفتى على مدخل شارع لايزال يحمل اسم جدة لى كان أبوها مؤسسا وناشرا لدائرة معارف إسبانية شهيرة . كانت نافذتها ذات مزايا عديدة ، منها يمكن رؤية الشارع ، وحركة الأشياء القليلة التى تجرى فى ذلك الشارع الذى أرى أنه خال من الحركة ، وكنت أتلصص على كل ما كان يجرى فيه ، كثيرا ما تحدث هناك أشياء ، خاصة فى المبنى المقابل ، الذى هو عبارة عن مصحة عقلية أو مكان للترفيه عن مرضى الأسر الثرية ، وإن كان هذا لا يعنى أنه لم يكن متأثرا بما كان يقع فيه من هذيان وجنون .

من المؤكد أن غرفتى كانت الأكثر برودة فى البيت كله ، الذى كان يتكون من بناء من الطوب الأحمر والأسقف البازلتية المعلقة التى أنشأها مهندس بارع فى المكان الذى يشغل فناء حديقة البيت الكبير ، وذلك بناء على رغبة والدى ، كان البناء يتبع الخطوط «النيوكلاسيكية» التى كان عليها بناء جدى لأمى ، التى كانت يتيمة بدورها ، لم تسكن مع والدى فى هذا البيت الجديد أبدا ، على الرغم من أنهم يقولون إن هذا كان حلمها الأكبر بعد أبنائها الثلاثة ، نحن أبناءها الصغار اليتامى . تطل نافذة غرفتى إلى الشمال ، على عكس تلك الغرف الحجرية المشمسة المطلة على الحديقة والتى كانت لأشقائى ، أو غرفة أبى ، أو حتى غرفة ألعاب الأطفال ، فى حينها ، لم أكن أشعر بأننى فى حاجة إلى الشمس ، لكنى كنت فى حاجة إلى سماع ضوضاء الشارع كل صباح ، ورؤية ما يحدث عبر

fb/mashro3pdf

البوابات الحديدية المطلة عليه دون أن يعرفوا أن عيونا طفولية كانت تراقبهم ، وترسم فكرة حية عن وجودهم .

كل عالمى كان يبدأ من ذلك الإطار المسمى بالنافذة ، منذ اللحظات الأولى من الصباح التى كان السكون يسيطر فيها على الشارع أيام الأحد .

صباحات أيام الأحد كانت خاصة جدا ، أولا لأن أصوات فتح البوابات المعدنية لم تكن تسمع حتى مرور وقت طويل من الصباح ، وذلك بعد أن يقوم صبى حانوت حلوى «فويس دى ساريا» بالضغط على جرس البابا ليأتينا بفطائر الإفطار ، ذلك الجرس ، الذى كان مختلفا جدا عن جرس المنبه الذى يوقظنا كل صباح ، كان ينبهنى إلى أن اليوم يوم أحد ، وكل ما كان يمثله هذا اليوم بالنسبة لى ، أشياء طيبة وجميلة ، مثلا ، البقاء فى السرير تحت الغطاء لفترات طويلة ، كانت تمتد كما لو كانت ساعات لا تنتهى ، كل عائلتى كانت تحب النوم . وفى بيت بلا أم فإن الأطفال إما أنهم لا ينامون أو ليست لديهم الرغبة فى الاستيقاظ بسرعة ، كنت خلال تلك اللحظات الطويلة فى السرير ألعب لعبا خداعيا بواقع مختلف . وكنت استغله بشراهة ، رغم أن صبى محل الحلوى فى تلك الحياة بسرواله المخطط بخطوط زرقاء وبيضاء وغطاء الرأس الجميل الذى كان يجعله يتبختر فى حى «ساريا» و«بيدر ألبس» وطبق الحلوى الكبير على رأسه ، أتذكر أنه كان أصم أبكم ، وكانت كارمن وأنطونيا ، أو أى شخص أخر من الخادمات اللاتى مررن بطفولتنا لم يكن يعرنه أى اهتمام . وحتى لا يقع لسانه على لسانهن فإنهن امتنعن حتى عن تحيته تحية الصباح ، أيضا يمكن سماع صوت دقات أجراس دير بيدرألبس ، وربما يمكن سماع صلوات الراهبات ، أما صلواتنا التى نؤديها أيام الآحاد فهى تكون فى ساعة متأخرة عن ذلك الوقت ، بعد أن نكون قد اغتسلنا وارتدينا ملابسنا واتخذنا استعدادنا للتوجه إلى الكنيسة ، قبل ذلك كان يجب علينا الإسراع للحصول على أكثر الفطائر مذاقا ، نحن الأشقاء الثلاثة كان لكل منا طعمه ومذاقه الخاص

fb/mashro3pdf

وحجم الفطيرة الذى يفضله ، من يهبط إلى غرفة الطعام أولا له الحق فى الاختيار، ولا ينتظر الآخرين ، كنت أفطر وأعود مسرعة إلى غرفتى لمغالبة النعاس بين الشراشف ، أو ربما لتلك الفكرة الغائمة عن إمكانية أن أجد أمى ، وما هو أسوأ من ذلك ، أن أخفى رأسى تحت الوسادة يأسا من لقائها . كان أبى يبذل كل ما فى جهده ليعوضنا عن غيابها ، لكنه لم يكن يفعل ذلك مع شقيقى لأنهما كانا ذكرين، بل كان يفعل ذلك معى ، فى الحقيقة ، لأننى كنت فى حاجة إلى تعبير أوضح عن ذلك مما كان يعبر عنه شقيقاى .

فى أيام الآحاد ، كثيرا ما كنت أعاقب على بقائى فى السرير حتى ساعة متأخرة ، كان أبى يأتى بالبيجامة ليمنحنى حنانه أو يحاول أن يجتذب حنانى، كما يتراءى له ، كان يدخل فى سريرى ويعانقنى وينهنهنى بعمق مبالغ فيه . لم يكن هذا يعجبنى ، أنا كنت طفلة حنونة مع والدى ، فقط معه هو . وفى ليال كثيرة عندما كان يمنعنى القلق من النوم كنت أحاول أن أجد النعاس فى سريره ، أظل إلى جانبه حتى يغالبنى النعاس ، تلك اللحظات كانت فى رأيى مختلفة عن زيارات أبى الصباحية . فإذا كان نعاسى الليلى فى سريره بالنسبة لى أمرا منطقيا وربما كان اجباريا حتى يغالبنى النعاس ، فإن نومى إلى جواره فى ضوء الصباح الباهر كان يقلقنى ويبدو غير عادى . وبما أننى كنت أحب أبى بكل الحب الذى تبديه طفلة نحو شخص ناضج وحزين ، فقد كنت أحاول فى صباحات الآحاد تلك أن أكون أقل عنفا ، وأحاول أن أبدو سلبية وهو ما بقى كجزء من شخصيتى بعد أن بلغت النضوج ، كنت واثقة من أن أبى كان يقبلنى فى تلك الصباحات بشكل غير طبيعى ، كان يفعل ذلك بطريقة أقرب إلى ما يفعله الكبار المحبين ، وبما أننى كنت أحب أبى فوق أى شىء آخر ، وكنت أشعر بالشفقة لحزنه نظرا لترمله ، فقد تعلمت تحمل هذا الوضع بغم شديد . فى المقابل ما كان يمكننى أن أقدم له أكثر من ذلك ، كانت ساعة الصلاة فى الكنيسة ساعة مقدسة . لذلك كان يجب إيقاظ شقيقى ، وهبوط السلالم بسرعة ، وركوب السيارة عندما أكون قد قررت

fb/mashro3pdf

الذهـاب للصلاة فى كنيسة ساريا ، أو أبدأ السير بطريقة رياضية ، لأسـباب لا يعرفها غير أبى ، قررت أن أذهب إلى صلوات الساعة الحادية عشرة فى دير «بيدر ألبس» . كان شقيقاى يدوران حولنا وكل انتباههما مركز فى الأشياء التى كنا نمر بها .

حينها كان دير «بيدر ألبس» ، الميدان والسلالم الحجرية التى تحيط به ، من الأركان التى تقل زياراتها للمحافظة على سحرها . وهذا المكان كان الإطار الذى عشت فيه طفولتى ، كنا نلعب هناك بشكل شبه يومى ، كنا نذهب بالدراجات ، ونتناول طعام ما بعد الظهيرة ، نلعب لعبة الحرب ، أو نذهب فى رحلات إلى جبل الشهيد سان بدرو ، الذى كان سفحه قريبا من الدير . أيضا نأخذ الملابس البيضاء لراهبات الدير ليقمن بكيها بشكل جيد ، وكن يسلمن البياضات لنا عبر تلك الفتحة السوداء ملفوفة فى ورق حريرى ، أبى الذى كان يتمتع بميل ثقافى غير عادى ، كان كثيرا ما يذكرنا بتاريخ المنطقة التى نتحرك فيها ، عندما كان يتحدث عن تاريخ المنطقة المحيطة ببيتنا التى تتمتع بميزات خاصة ، وكان ينتهى إلى القول بأننا جئنا إلى هنا بمحض المصادفة ، كان شيئا مؤقتا ، وأن هذا المكان فى الحقيقة لم يكن لنا ، كما لو كان خارج تلك الطبقة الخاصة التى كنا نعتبر جزءا منها على الرغم من كلامه .

– هذا البيت ورثته أمك ، وإن كنا نعيش هنا فإن هذا بفضل إرث جدك ، لم تكن لدى أبدا القدرة المالية التى تسمح لى ببناء هذا البيت والمحافظة عليه ، لذلك علينا أن ننتظر ما يدبره لنا المستقبل .

هذه بعض الشروح التى كان يخبرنا بها أبى .

وأنا صغيرة كنت أصدق كل ما يقوله حرفيا ، ودائما ما كنت أعتقد ، طبقا لما كان يكرره ، أننا نعيش فى مناخ غير مناسب لأشخاص مثلنا أو ربما يكون مناسبا لى خلال السنوات المقبلة ، الحياة فى بيت بحديقة وحمام سباحة لا علاقة له بالفتيات الأخريات اللاتى كنت أزاملهن فى المدرسة الدينية ، أيضا ، كان هذا

fb/mashro3pdf

بالنسبة لى غير طبيعى . كان هذا يفوق تحملى كفتاة يتيمة لأحتمل أيضا ذلك الألم الصامت فى برج «بيدر ألبس» ، جزيرتنا المنعزلة ، التى كانت تميزنا عن الآخرين .

كان إصرار أبى كبيرا من أجل أن نفهم قيمة الأشياء المادية المحيطة بنا والتى نعيش فى كنفها ، والذى كان على أن أبذل جهدا مضاعفا لأتفهم أنه مكان متميز وربما كان فريدا فى حياتى المحدودة .

فى تلك الفترة كان مصلو أيام الآحاد الذين يحضرون قداس الدير قلة تعد على أصابع اليد الواحدة ، الراهبات اللاتى كن يشكلن الكورال كان غناؤهن مسموعا ، أتذكر أننى كنت أبذل جهدا مضاعفا لاكتشاف وجه واحدة منهن ، خاصة أكثرهن وقوعا فى الخطأ ، وعندما كنت اكتشفها كنت أشير برأسى لأشقائى معلنة عن اكتشافى . وبما أن القداس كان طويلا جدا إضافة إلى مواعظ القس ، كان على أن أبحث عن ما يلهينى ، أفضل الأشياء كانت مراقبة جيراننا بشىء من الخفاء ، وإن كنت فى معظم الأوقات أفعل ذلك بشكل غير صحيح كما هو مأمول ، على الرغم من كل جهودنا التى كنا نبذلها لنبدو كأطفال حسنى التربية وعاديين ، لم نكن نستطيع أن نبدو كذلك أبدا ، من ناحية كنا نحاول أن نرضى أبانا ، لكن كان دون ذلك مشكلة من الصعب حلها ، كنا نفتقد كثيرا لغياب مهم ، سواء فى برج «بيدر ألبس» أو بدونه ، ذلك الغياب كان واضحا للعيان ، أنا كنت أحاول أن أخفيه من خلال جونلتى الاسكتلندية التى كنت ارتديها أيام الآحاد، وجواربى البيضاء وحذائى الشمواه الأسود الذى ينتهى بفيونكة من القطيفة . لكن دائما ما يكون هناك شىء تحت أو حول تلك الملابس التقليدية يكشف عدم ارتياحى لارتدائها . ملابسى كطفلة تنتمى لعائلة ثرية ، التى تدل عليها قطع الشاش الوردية أو السماوية لم أكن أراها على أى من الفتيات اللاتى ينتمين إلى العائلات الثرية . كانت حركاتى عنيفة وغاضبة . كان الشال الأسود

fb/mashro3pdf

يسقط عن كتفى رغما عنى ، وعندما انجح فى إبقائه على رأسى ، كانت تبرز من تحته عينان كعينى ساحرة قلقة .

كان أشقائى الثلاثة يبذلون جهدا كبيرا للمحافظة على عادات مهذبة وطبيعية ، أى ، محاولة إخفاء قلقنا لغياب الأم ، وربما كان هذا سببا فى أن نبدو يتامى ، كنا نترك عاداتنا السيئة لممارستها فى الخفاء ، بشكل أو بآخر ، لكن عاداتنا الغريبة كانت تبدو ظاهرة فى أى مكان نوجد فيه ، بنظرة واحدة يمكن الحكم علينا بأننا أولاد شاذون وعصبيون ، وهذا يعنى أن الطفلة كانت تعانى من مرض السير أثناء النوم ، إضافة إلى تهتهة بسيطة وإصابات متعددة بالصلع المنتشر فى فروة الرأس : الطفل الأكبر لم يكن قادرا على السيطرة فى لحظات حساسة على حركات رأسه العصبية ، مما يجعله يرفع قبضتيه إلى وجهه ويحركهما كما لو كان يستعد للدخول إلى حلبة الملاكمة ، والطفل الأصغر ما أن يستيقظ من النوم وهو لايزال ممددا على السرير ، يمضى الساعات الطويلة فى تحريك ساقيه كما لو كان مصابا بداء رقص القديس «سان فيتو» ، ولا يمكن لأحد أو هو شخصيا السيطرة على ساقيه .

عشت لسنوات طويلة فى حالة شك لها علاقة بأبوى بالتبنى وكرمهما لانقاذى من قافلة الغجر . هؤلاء الغجر الذين كانوا يزورون كثيرا الحى الذى أسكن فيه ، وإن كانت زياراتهم تستقبل بشىء من النفور ، لذلك كنت أرى نفسى مختلفة جدا عن باقى الأطفال مما كان يجعلنى أبحث عن ألف سبب وسبب لهذا الاختلاف ، كنت أبحث عنه بين صفحات الكتب ، فى صمت الكبار ، فى الأحاديث الهامسة للخادمات ، وفجأة فى يوم لطيف ، وجدت هذا السبب تقريبا فى تلك الطفلة المنعزلة ، السليطة واليتيمة فى فيلم «قتل عصفور» .

حينها تساءلت بقدر ما استطعت وعرفت ، ووجهت جهودى لمحاصرة أبى بأسئلة عن ذلك الفراغ المحيط بحياتنا التعسة .

fb/mashro3pdf

كان أشقائى يضحكون ، وكان أبى يداعب شواربه ، فيما كنت استعد للحياة بعيدا عن كل الأسئلة .

الذهاب أو عدم الذهاب لقداس دير «بيدر ألبس» كان مرهونا بأوقات معينة ، تكاد تكون متعددة تماما كفصول السنة ، أو حسب مزاج أبى ، فى أيام آحاد أخرى كنا نذهب للقداس فى كنيسة ساريا الصغيرة ، كانت كنيسة أقرب وأشهر من جميع النواحى ، قرية أسرتى القديمة أو الأحياء المتطرفة المحيطة بمنطقة ساريا حيث كانت لأسرة أبى ممتلكات ، تلك القرية كانت عبارة عن حى غير راق ، بخلاف مناخ حى «بيدر ألبس» المصطنع ، لم تكن المسافة ما بين بيتى وساحة ساريا ، حيث توجد الكنيسة ، تزيد عن ثمانمائة متر ، هكذا فإن أبى ، فقط فى هذا اليوم ، يأخذنا فى عربة الكنيسة . القداس فى العاشرة ، أحيانا الحادية عشرة ، النتيجة السيئة الوحيدة أنه يجب علينا أن نحيى كل الذين نلتقى بهم فى طريقنا ، لهذا السبب وحده ، فإن أبى ، رجل مهيب وجاد بعض الشىء ، كان لا يذهب إلى هناك لفترات طويلة ، فقد كان إحساس التعاطف من جانب السكان الساريين تجاه الأرمل المسكين الذى يخرج بصحبة أطفاله يزعجه كثيرا ، على الرغم من أنه من ناحية أخرى كان يشعره باللذة ، كانت الكنيسة الصغيرة ، والميدان الكبير وكل المبانى السارية المحيطة بها ذات جمال أخاذ ، أجمل من «بيدر ألبس» باحة الكنيسة كانت تغص بالحاضرين ، كنا نجلس فى المقاعد التى تقع بالوسط ، التى لا تبعد كثيرا عن المذبح ، مسألة التفتيش فى وجوه وظهور المصلين كانت من المسائل الشائكة ، وربما لهذا السبب كان القداس قصيرا ، كان جدى فى الصف الأول ، وأيضا عمتاى العانستان ، رايموندا عمتى لجدى ، التى كنت احترمها كثيرا ، أو دومينيكا ، التى كانت من أكثر الذين أحببتهم فى تلك السنوات ، ربما أكثر من حبى لأبى . لكن كل تلك الوجوه كانت معروفة بالنسبة لى ، أو قريبة منى ، أنا كنت أبحث عن وجوه أخرى .

fb/mashro3pdf

كان من خلفى صوت يدفعنى إلى التدقيق فى وجوه معينة ، شىء أو شخص يقول لى :

– انظرى يسارا ، فى المقاعد القريبة من المدخل ، إلى جانب شباك الاعتراف توجد جواديوسا مرتكزة على ركبتيها منذ ساعة ، إنها خادمة الشاعر فويس [١].

شاعر ساريا خ . فى . فويس ، لا يذهب إلى الكنيسة ، نراه بعد القداس فى محل الحلوى الذى يملكه ، فى ذلك الوقت كان المحل أكثر شهرة من أشعاره .

لم تكن كل أيام الآحاد ، ولكن بعضها ، والأسوأ هو أننا لم نكن نعرف أيا من تلك الأيام التى سيأخذنا فيها أبى إلى المدافن لزيارة قبر أمى ، عدم اليقين كان يزعجنى أكثر من انزعاجى من زيارة المقابر ، وإن كان هذا يعنى تحررنا من ركوب السيارة ، بدلا من ذلك كان أبى يأخذنا إلى محل حلوى فويس أو إلى المشرب المجاور لميدان ساريا لتناول أى شىء ، سواء فى هذا المكان أو ذاك لم نكن نبقى فيه كثيرا ، لأن أبى ، الذى كان قليل الكلام ، كان يشعر أنه مجبر على الحديث مع كل المعارف الذين يقتربون منه لتحيته ، وكانوا كثيرين . اعتقد أننا كنا نحيى كل الناس ، كان أبى يحاول الإسراع فى إنهاء تلك اللقاءات العابرة ، الوحيد الذى لم يكن يبدو متسرعا معه هو المعمارى يوريت ، مخطط البرج العائلى والذى تدير أسرته صيدلية الميدان . أيضا يحب تبادل بعض الحديث مع الشاعر الحلوانى فويس . فى ظهيرة أيام الآحاد كان «سنيور فويس» [٢] «هكذا كان يسميه الجميع» يجلس إلى جوار الخزينة ويتحادث مع الزبائن المفضلين . أبى والشاعر كانا يتبادلان التهنئة بأعياد الميلاد ، لأنهما كانا مغرمين بها . فى كل عام كانا يحاولان التفوق على العام السابق فى إطراء أعمالهما الفنية ، كان السيد «فويس» يهنىء أبى على رسومه التى يرسمها فى تهانى أعياد الميلاد ،

(١) خ . فى. فويس J. V. Foix شاعر قطالونى (برشلونة ١٨٩٣ – ١٩٨٧) .

(٢) كلمة السنيور señorتعنى السيد ولكنها تعود إلى اسم العائلة .

fb/mashro3pdf

فيما كان أبى يطرى قصائد السيد فويس . أشقائى وأنا كنا نحصل على بعض الحلوى ثم نودعه حتى الأحد القادم .

أكثر من انزعاجى من عدم معرفة ما سنفعل يوم الأحد بعد خروجنا من الكنيسة ، كنت منزعجة من صمت أبى ، خاصة أن صمته قرر فى ذلك اليوم أن نزور الزوجة والأم الغائبة . كان أبى يعتبر أن كان الأمر مقررا الصعود إلى السيارة وتقريب المسافة عبر طريق بونانوفا يعنى زيارة المقابر التى لم تكن فى حاجة إلى كلمات لإعلانها . يجهد أبى كثيرا لكى يحدثنا بهدوء عن حياة وموت أمى ، يكاد لا يتحدث عنها مطلقا ، من المؤكد أن هذا يعود إلى أنها كانت تعيش فى داخله ، وقريبة جدا منا لدرجة أن مجرد ذكرها يبدو له كنوع من نفاد الصبر، ومزيد من الألم المجانى . لكننا كنا نذهب . أولا ، كان يوقف السيارة أمام محل ورود براتس . أحد المحال المفضلة لدى أبى ، اضافة إلى مكتبة سوبيرانا ، التى تقع فى شارع بورتافيريسا ، ومحل اسطوانات مونجويك ، الواقع فى ممر جراثيا، فى إحدى المرات كنا فى محل الورود وطلب منى أبى أن أعاين الزهريات التى كانت غاصة بزهور لا حصر لأشكالها ، وطلب منى أن اختار مع البائع زهورا لتشكيل باقة منها . قمت بذلك مع بعض الخجل بينما أشقائى كانوا يتسلون بضرب الأشجار وحائط محل الزهور بأقدامهم . عملى هذا كان مسألة صعبة ، وكنت أود أن انهيه بسرعة ، خاصة أن أبى كان خبيرا فى اختيار الزهور وكل أنواع الديكور ، لكن ذلك كان أيضا عملا لا يطاق ، لان تذكرنا بأننا يتامى من خلال قوس قزح من ألوان الزهور مسألة أكثر قسوة من مأساتنا نفسها . أشقائى واصلوا ضرب الحائط الحجرى بأقدامهم ، أو ملوا من أفعالهم ، فيما كانوا تحت عيون البائع المشفقة بنا . أنا لم أكن أحب أبدا أن أرى النظرات المشفقة . مع ذلك ، كنت أقوم بواجبى وربما بأفضل مما يجب ، لأنها المهمة الموكلة إلى ، بعد مساعدة صغيرة من أبى ومهنية بائع الزهور ، كانت باقة الزهور جاهزة لأداء مهمتها الحزينة ، من المحزن التفكير فى النهاية المحتومة لتلك الزهور، ومشهدنا ونحن نحملها كان مثيرا للشفقة . كان هناك لايزال شىء يجب

fb/mashro3pdf

أن نقوم به فى محل الزهور ، شئ كان يملؤنى بالفخر والخجل فى الوقت نفسه ، عندما كنت انتهى من أداء ما كلفت به من أجل أمى ، كان يقوم أبى باختيار بعض الزهور لى ، وعادة ما تكون من زهور الجلاديس الكبيرة إضافة إلى زهور أخرى بأسماء غريبة ورقيقة ، لأنه بالنسبة للورد فإن ورود البيت أفضل . حديقة جدى كانت شهيرة بالورود التى كانت تنمو فيها ، الزهور التى كان يشتريها لى أبى من محل الزهور كانت مقطوعة وملفوفة فى ورق عادى ، لأننا بمجرد وصولنا إلى البيت كنت أصنع منها باقات مختلفة ، وأضعها فى مزهريات مناسبة . بعد الانتهاء من طقوس محل الزهور كان السيد براتس يودعنا بنظرة مشفقة ، مما كان يدفعنى وأشقائى أن نلعن فى سرنا ذلك الوضع المحزن .

منحت الزهور أرضية السيارة وساقى العاريتين ، وسيقان أشقائى مسحة من الحزن ، مدافن ساريا كانت لا تبعد أكثر من أمتار قليلة ، كان يكفى الهبوط عبر شارع انجلى ، والدوران فى شارع بابلو ألكوفير إلى اليسار ، ركن أبى السيارة وقمنا بعد ذلك بالسير عبر الطريق الترابى حتى بوابة الدخول إلى المدافن .

المدافن كانت تقع فى منطقة من الأبراج السكنية العائلية المزدحمة والمتناسقة التى يتميز بها حى «بيدر ألبس» ، ومحاطة بحقول وأوراق الأشجار الخريفية المتساقطة، ولكنها تبدو أكثر ازدحاما. فى تلك السنوات كان الاخوة جويتيسولو [1] على وشك مغادرته ، إن لم يكونوا قد غادروه حينها ، بيتهم الأبوى كان تقريبا يقع فى شارع بابلو ألكوفير كما يذكر خوان ولويس فى كتبهما، كان عبارة عن برج خال من الروح لأرمل ، لكنه كان خاليا من الأشباح التى كانت تسكن بيتنا ، كان بيتا مسكونا باليتم والأدب . بيتا يليق برواية من روايات ديكنز[2] .

(١) تعنى المؤلفة هنا الأخوة : خوسيه أغستين (من أبرز شعراء جيل الخمسينيات فى إسبانيا) وخوان (روائى) ، ولويس (روائى وناقد) ، وهم أشقاء من أسرة معروفة بالأدب، ولها شهرة كبيرة ، خاصة «خوان» الذى يعتبر من أبرز الكتاب الإسبان تعلقا بالتراث العربى ، ومعروف بدفاعه عن القضايا العربية والإسلامية .

(٢) تشارلز ديكنز (١٨١٢ - ١٨٧٠) من أشهر الكتاب الإنجليز فى القرن التاسع عشر .

fb/mashro3pdf

لكن أبى لم يقل أبدا شيئا مثل هذا عن بيت الأخوة جويتيسولو . فى الحقيقة ، لا أعتقد أنه ما كان يمكنه أن يحب أيا من كتبهم لو تصادف أن قرأها ، ولا كان يمكنه أن يشعر بأى تعاطف نحوها ، ومع ذلك ، فإن هناك تشابها ما بين أبى والإخوة جويتيسولو . غياب ما هو أساسى ترك فى عيونهم جميعا ذلك الأثر الكئيب الناتج عن الحزن العميق .

حاول أبى أن يعوض هذا الألم بإحاطة نفسه بالكتب والكلمات التى تقال بمناسبة كتابة تلك الكتب ، أكثر الجمل التى كان يحب ترديدها عندما يحادثنى كانت :

– لماذا لا تكتبين مثل ديكنز ؟

الوصول إلى المدافن كان يعنى الدخول فى شىء هو عبارة عن شرك لا يعبر بشكل جميل عن مخبأ الموت ، للوصول إلى هناك لابد من الدوران أولا فى شارع انحلى إلى اليسار ، الدوران بعد ذلك عبر شارع بابلو ألكوفير ، وبعد السير حتى منتصفه لابد من ركن السيارة إلى جوار الرصيف ، وبعد ذلك مباشرة البدء فى السير فى الطريق الترابى المؤدى حتى بوابة المدافن ، شارع بابلو ألكوفير تغير كثيرا . فى المكان الذى كانت تقوم فيه الأبراج العائلية بحدائقها المحيطة بها ، تقوم الآن عمارات سكنية . على الرغم من ذلك ، عندما نترك الرصيف من خلفنا ندخل فى طريق أكثر ضيقا يؤدى إلى المدافن ، هذه المنطقة لا تزال على حالها كما كانت من قبل ، الطريق الترابى الذى يصل عرضه إلى ثلاثة أمتار يتخذ شكل حرف «إل» ، وفى النهاية منه تبدو البوابة الحديدية الرمادية الضخمة .

يتعفر حذائى الشمواه بفيونكته القطيفية ، من المؤكد أن ذلك يعود إلى تلك الرحلة الحزينة التى تتخذ طابع الاحتفالية ، لكن الغضب يزداد مع مرور الوقت نظرا للدور الذى على أن ألعبه خلال قصة طفولتى غير المفهومة . لكنه يتقلص مع إحساسى بحزن أبى الكبير عندما أشعر بثقل ذلك الحمل الذى يكتنفه . أنا البنت المغلوبة على أمرها ، احمل باقة الورد الضخمة كما لو كانت مكافأة على حسن

fb/mashro3pdf

سلوكى . يكون أشقائى قد توقفوا عن ركل الأحجار والعرقلة فى هذا الطريق المترب والمليء بالحفر . عندما تمطر السماء يكون الطريق أكثر صعوبة ، وإن لم يكن أقل قتامة . الموت ، سواء أمطرت أم كنت الشمس مشرقة ، دائما ما يكون مضيفا ثقيل الظل ، نذهب مستعدين للزيارة . لا أعرف كيف يفكر شقيقاى ولا كيف يتمكنان من إبعاد حزنهما ، كنت أشعر لسبب ما أنهما أكثر استعدادا منى لمقاومة الألم الصامت . شقيقى الأكبر كان يبدو كبيرا دائما ، وشقيقى الأصغر كان يبدو صغيرا دائما ، كانا ذكرين ، الميت الذى كنا نذهب لزيارته ونلقى إليه بالقرابين كان امرأة ، مثلى أنا ، وأنا نفسى ، لم أكن أتوقف عن قول ذلك ، كنت أحس بمسئولية غياب تلك الميتة ، تعلمت ذلك ، نعم ، تعلمت حبس الدموع فى تلك المناسبات التى يكون فيها البكاء أكثر سهولة من الظهور بمظهر عدم المبالاة ، أتذكر أنه خلال الطريق سيرا على الأقدام ، وبعد ذلك ، أمام الشاهد كنت أحاول أن أتخيل الأشياء أكثر جمالا لتجنب البكاء الذى يحيط بى ، وينتهى بأن يحولنى إلى طفلة بائسة . كان علينا أن نتحرك بشكل طبيعى ، كما لو كان طريق الأطفال الثلاثة الصغار والأب الأرمل باتجاه المدافن أيام الآحاد يبدو شيئا عاديا فى هذا العالم . بدلا من ركوب المراجيح أو زيارة نوافير مونجويك [1] ، تلك الأماكن التى كان من المعتاد أن تزورها عائلات تلك الفترة ، كنا نذهب نحن إلى المدافن ، وكان يبدو أبى طبيعيا كما لو كان يقضى يوما احتفاليا أيام الآحاد ، كان يتكلم بصوت مرتفع عن حالة شكل الورود واختلافها وأنواع الأشجار التى كانت تطل عبر الحائط الحجرى المحيط بالطريق والمدافن .

كان يبدو أننا لن نصل أبدا ، على الرغم من أننى وشقيقى كنا نحاول أن نسير بسرعة ، لكن أبى كان معتادا على أن يأخذ يدى فى يده ، وعندما بدأت أصبح أطول قليلا ، كان يعتمد بيده على كتفى ، ويخطو خطوات بطيئة ومتأنية،

---

(١) نوافير تقع فى حدائق مونجويك الشهيرة فى برشلونة ، والتى تعتبر تحفة معمارية حقيقية .

fb/mashro3pdf

دائما ما يكون هناك شخص من ساريا مات له قريب منذ فترة ليست ببعيدة ، لذلك دائما ما نجد أحدا أيام الآحاد لتحيته ، أنا كنت أصلى حتى لا يحدث هذا ، لكنه كان أمرا لا يمكن تجنبه ، كان يمكن التحية بهز الرأس ، وهذا كان يعنى أنه علينا أن نبتلع خجلنا كأطفال يتامى مرات ومرات . لكن أبى ، بعد أن كان يرد التحية كان يواصل حديثه المنفرد الذى بدأه منذ الخطوات الأولى على الطريق الترابى ، بعد أن نكون قد تركنا شارع بابلو ألكوفير ، كانت لأبى طريقة فريدة فى الحديث ، تجعل من الصعب فهمه ، فهو لم يكن يتكلم بطريقة مفهومة بل كان يهمهم بأصوات تعلمنا التمييز بينها ، وتعلمنا أن نشكل منها كلمات وجملا لها معان محددة ، كان أبى يعتقد أن الحديث المباشر شىء غير مطلوب ، ربما لأنه أصبح معتادا على الحديث مع الموتى . وعندما لا يجد بدا من الحديث مع الأحياء فإن الأصوات كانت تهرب من فمه دون أن يحرك شفتيه . الرجال المصابون بالحزن صامتون بشكل مذهل . وأبى كان رجلا حزينا ، أو أنه سار على طريق الموعود أكثر منه حزينا بشكل مبدئى ، على أى حال ، أثناء زياراتنا للمقابر كان أبى يلوى فمه بطريقة متهكمة ، يضم السيجارة بين شفتيه ، ولا يتوقف عن إصدار أصوات عن الموضوعات المختلفة والتى لا تناسب المناخ المحيط بنا .

– هذان قبرا الشاعرين كارليس ريبا [١] وكليمنتينا ارديريو [٢] .

كان يقول هذا بنبرة مترددة وهو يشير إلى شاهد قريب من شواهد مقابرنا .

كنت أتساءل مع نفسى : هل كانت تلك المقابر خاصة بالشعراء ؟

هل الشعراء هم الوحيدون الذين لهم الحق فى أن يستريحوا راحة أبدية ؟

هل كان الشعراء يتزوجون الشاعرات فقط ؟

---

(١) كارليس ريبا Carles Riba، شاعر قطالونى (برشلونة ١٨٩٣ – ١٩٥٩) .

(٢) كليمنتينا ارديريو Clementina Arderiu ، شاعرة قطالونية (برشلونة ١٨٨٩ – ١٩٧٦) .

fb/mashro3pdf

بخلاف الشعراء ، كان أبى معتادا على اهدائنا مواعظ حول خايمى الأول الغازى [1] ، وألفونسو العاشر الحكيم [2] دون أن ينتبه إلى أن تلك الموضوعات لا تشير بشكل مباشر إلى المرحومة ، ونحن أبناءه كنا نفسر ذلك على أنه نوع من المديح . فى سرنا كنا نتمنى أن ينتهز أى فرصة ليقص لنا شيئا عن أمنا ، أو أن يركز فى حواره المنفرد على تلك السيدة المجهولة التى كنا نقدرها رغم كل شىء لكنه بدلا من ذلك كان يركز فى حديثه على هؤلاء الذين لهم شواهد قريبة ، الأحاديث المحتملة التى لم تحدث أبدا عن أمى وغيابها الشخصى كانت الأشياء الممكنة فى تلك الحالات . إضافة إلى أنه كان يوفر علينا انزعاجنا من تغليف المأساة بحكايات وأشعار لا تناسب الموقف . كان أبى يحاول أن يخفف من حزننا بحكايات على هامش الحكاية الوحيدة الممكنة ، الحكاية الوحيدة التى تهمنا بشكل حقيقى ، على الرغم من قناعتى بأنه كان يعتبر تلك النزهة شيئا أساسيا لتعليم حيوى وأدبى لأبنائه . فى مواجهة ظلف الحياة كان علينا أن نتقبل ذلك بخنوع ، وقوة وتوازن داخلى . وتلك الأشياء كانت من الفضائل المسيحية لنا نحن الأشقاء الثلاثة الذين كنا نجرجر أرجلنا فى تراب الطريق .

أنا كنت موزعة ما بين سماع أبى بهدوء أو على العكس من ذلك أن أعلن له بشكل غير مهذب عدم موافقتى على حواره المنفرد غير المناسب . اعتقد اننى فى أحيان كثيرة كنت اتخذ الموقف الأول ، وفى أحيان أخرى كنت أتحول إلى نوع من السمك المسعور الذى يضرب الشباك بزعانفه . باقات الورد التى كنا نشتريها من محل براتس للزهور كانت تتحول إلى حمل ثقيل ، فيما الطفلة التى تحملها تعتمل

---

(١) خايمى الأول (١٢٠٨ - ١٢٧٦) أحد الملوك المسيحيين الذين قادوا حملة طرد المسلمين من إسبانيا بعد تساقط ممالكها الأندلسية .

(٢) الملك ألفونسو العاشر (١٢٢١ - ١٢٨٤) كان يلقب بالحكيم نظرا لحبه للعلوم والآداب ، ولعب دورا مهما فى ترجمة المخطوطات العربية الأندلسية من خلال إنشاء مدرسة الترجمة بطليطلة .

fb/mashro3pdf

فى جوانحها آمال مجهضة بأن تطرح على الأرض تلك الجائزة التى لاتستحقها ، والتى تفوح بروائح البخار والماء العطن .

اعتقد أننى أتذكر أن كونى ابنة يتيمة ، وربما الأم الميتة، كانا سببا فى بداية إحساسى بالحقد على الآخرين ، ولكن هذا لم يكن سببا فى أن أكره أمى ، تلك المرأة التى أعجب بها واحبها أكثر من أى امرأة أخرى . فهى مليكة السموات ومليكة أحلامى التى لا تقهر ، لكن على العكس من ذلك أمكننى أن أشعر أو أسمح بأن ينمو فى داخلى نوع من الغضب منها ، لأنها فى النهاية المسئول الوحيد عن إهمالنا القاسى . هى ولا أحد غيرها يجب أن يكون المسئول عن معاناتى وعذاب أبى الذى لا يطاق . هى المسئول الوحيد عن موتها ، وعندما نذهب لزيارتها لم يكن هذا لطلب المغفرة لأننا كنا سببا فى غيابها ، وإذا كنا نصلى أمام مقبرتها فإن هذا لم يكن شفقة تجاهها . لأن الشعور بالشفقة نحوها، وهى المحبوسة فى صندوقها الجنائزى الأسود الخانق للصمت ، فإن جزءا منى يحولها إلى مذنبة عن وضعنا العائلى غير الطبيعى ، يحولها إلى مسئولة مباشرة عن عواطفنا المبعثرة ، لماذا أهين تلك المرأة الطيبة ، المرأة المحبوبة ، الأكثر جمالا، لماذا كان عليها أن تكون الأم السيئة والمزيفة ؟ كنا هناك شقيقاى وأنا مجللين بالحزن كهياكل عظمية تماما كجسدها المتحلل ، كان هناك أيضا احتمال أن تكون أمى نائمة فى صندوقها الخشبى فى انتظار أن نذهب لنؤنس وحدتها ، لم يعد يهمنى أن أموت دون موت ، كما كنت أفهم فى عمرى ذلك، لأن هذا كان يعنى أن التقى بأمى، أن ألمسها وأتعرف عليها ، حتى لو كانت ميتة ، لكل هذا ، كانت أمى فوق كل المعتقدات الدينية التى لقنونا إياها ، لأنها كانت فى عالم أسمى وأكثر واقعية ولطفا من أولئك الطيبين أو الخطائين هناك فى الأعالى ، عالم فى النهاية ، كان مسئولا عن ذهابها عنا .

لكن ، هل ذهبت هى بمحض إرادتها ، لتتركنا وحيدين كأطفال منبوذين كما كانت تقول عماتى أنهن شاهدنهم يموتون من الحزن والجوع فى عوالم الله خلال

fb/mashro3pdf

سنوات الحرب الرهيبة ؟ هن ، عماتى ، نعم كن محبوبات ، لأنهن على الرغم من أعمارهن المتقدمة وشكواهن ، كن إلى جوارنا ، لكنهن ، تركننا إلى الأبد .

طبقا لأى يوم أحد كان ، كنت أرفض أحيانا أن أغفر لأمى أنها تركتنا وهربت، ولم أكن على استعداد لأن أسامحها على اختفائها فى تلك اللحظة غير المناسبة . لم تترك لى أى ذكرى ، وأنا البطيئة التفكير كان يمكننى أن ابدأ معها سلاما وأتعلم النسيان ، ذكرى عدم وجودها ستظل حية إلى اليوم الذى التقى فيه بها ، فى مقبرتها نفسها ، هذا لو دفنونى معها فى مقربتها فى يوم ما ، فى مدافن القديسين والشعراء البائسة .

شاهد قبر أمى يبدو شيئا زائدا هناك فى المنتصف . نوع من هلهلة التنظيم فى موكب جنائزى ، جيرانها الأقرب إليها مقبرة للزوجين الشاعرين القطالونيين ، زوجان عرفا اختيار اللحظة المناسبة لموتهما ، على الرغم من التوترات السياسية والمنفى الصعب ، ساعة الشيخوخة والركون إلى الراحة ، حتى الموت كما لو كان هدية مفضلة عن الحياة. الزوجان الكاتبان المهمان يستريحان كما يجب فى مقبرة تقع على بعد متر واحد من مقبرتنا . على عكس أمى ، فقد فعلا ما يجب فعله ، وبشكل منظم . هذا ما كانت تعكسه نظرة أبى الذى كان يدفعنا نحو المقبرة المجاورة لنحيى الزوجين «ريبا» ، بعد أن يقوم بزيارة المستطيل غير المنظم الأضلاع لمقبرتنا ؟ .. حينها ، تعتدل تعبيرات أبى الملتوية . التضحية التى يعكسها وجهه بينما نبكى نحن أمام شاهد أمى (إنه قول على سبيل التعبير) ، يتحول هذا التعبير أمام مقبرة الكاتبين إلى شعور غبى بالكرامة والأخوة الثقافية.

كنت أود أن أسأل أبى إن كان سيشعر بالفخر لو أن زوجته توجد بالقرب من شعرائه المفضلين فى رقدتها الأبدية، أم يريد أن يكون الشاعر «ريبا» شاهدا دائما للوداع المفاجئ لزوجته الشابة .

التحولات التى كانت تطرأ على وجه أبى كانت تزيد من قلقى ، أنا متأكدة من

fb/mashro3pdf

أنه فى أعماقه كان يفضل أن تكون أمى راقدة تحت الشاهد الآخر لتتمتع بالإعجاب الأبدى الذى يبديه تجاه الشاعرين .

ما المزايا التى يتمتعان بها والتى لم تكن تتمتع بها أمى ؟

كان أبى يقول :

– إنهما شاعران من المنفى ، كاتبان لأشعار عالية القيمة ، جميلة ورقيقة تنتمى إلى الجذور الأصيلة التى تنتمى إليها كتابات كارنر [١] .

رغم أنف ديكنز فإن جوسيب كارنر كان شاعره المفضل . شاعرنا الأكبر ، شاعر الصرامة والشكلية الكاملة ، التشخيصية المحكمة ، الإحكام فى الأبيات والأوزان ، وهى المزايا العليا التى يجب أن يتمتع بها أى شاعر ، هذا فى رأى أبى .

– أعمال ديكنز تتضاعف وتصبح أفضل عندما يترجمها كارنر .

تلك هى الأشياء التى كان أبى يقولها لنا أمام شاهد أمى المجاور لشاهد الشاعرين القطالونيين .

أمى المحاطة بالإعجاب كانت ظلا مجهولا عند قدمى الشاعرين ، أمى الميتة كانت الحجة التى تجعل أبى يحول المدافن إلى مقام مقدس للشاعرين .

الموت لا يصبح مأساة عندما يتعلق بزوجين من الشعراء .

كنت اعتقد حتى يكون الموت جميلا يجب أن يكون الإنسان شاعرا .

إما ابنة لشاعر، أو زوجة لشاعر ، أن أكون مثلا ابنة لشاعر ، كليمنتينا اردیریو [٢] تلك المرأة فى الحقيقة لم أكن أحبها بسبب اسمها الذى يرن بالمرارة فى إطار الغنائية . كان شقيقاى يعلنان بلا مواربة كراهيتهما لمجاورى شاهد أمى، لكنى قررت أن أتخذ من أسطورتهما لعبة لفظية لعينة ، كنت أعتقد أنها ربما

---

(١) جوسيب كارنر Josep Carner، شاعر قطالونى (برشلونة ١٨٨٤ – ١٩٧٠) .
(٢) كليمنتينا اردیریو (١٨٩٢ – ١٩٧٦) شاعرة إسبانية تكتب باللغة القطالونية.

fb/mashro3pdf

كانت هذه رغبة أمى ، لأن اسمها شاعرى أيضا ، فكنت أهدىء من رقدة أمى فى المدافن بتغيير الأسماء على الشواهد وأعيد بعثرة عظامها الشاعرية .

هذا ما كنت أفعله أثناء زياراتى للمدافن : مغالطة الشواهد ، وإحياء الموتى . فتح المدافن المحببة وتنظيم أوضاع بقاياها . معاندة عظام الزوجين ولعنة الكتب كمقابر لزوجين سريين . جميعهم موتى .

كانت أمى تدفعنا من مقبرتها الشاعرية .

فى النهاية ، وبعد سنوات طويلة ، ظهر فى حياتنا الكاتب الذى تحول فيما بعد إلى زوجى ، فقد كان هذا بالنسبة لأبى كما لو كانت تحقيقا لرغبته فى أن يلتقى بعظام أمى من جديد .

لم يتقبل أبى زواجى من كاتب مكسيكى لأنه فى الحقيقة ما كان يمكنه أن يقبل زواجى من أى شخص كان . حتى لو أنه لم يعترف بهذا ألف مرة. فقد كانت إحدى جمله المحببة :

- أن تتزوجى من رجل يحبك حبا حقيقيا .

وحدث هذا فجأة ، فى اللحظة التى لم يتوقعها أحد ، كان زواجى الحدث الأسوأ بالنسبة لأسرتى بعد موت أمى المأساوى .

لم تكن لدى رغبة فى الزواج ، لكن ظهر الكاتب فى حياتى ، كان قادما من المنفى ، تماما كشاعرى الشاهد الجنائزى فى المدافن ، جاء ليشاركنى لعبة الشواهد الجنائزية ، لم يكن كاتبا عاديا ولم يكن مثل أى من الكتاب المحبين للارتباط بكاتبات مبتدئات . لم يكن كاتبا من مدينتى . ولا حتى من وطنى ، جاء من بعيد ، من المكسيك ، من أرض لا يموت فيها أحد ، أو حيث لا يتركون الموتى يموتون . كان الكاتب المناسب لى ، محتالا على الموت ، كان يجمع كلا منا بالآخر تحمله لثقل الموت ، إضافة إلى الكتابة ، التى كانت تعيننا على البقاء على قيد الحياة والبقاء حيث نحن كل فى مكانه .

fb/mashro3pdf

كاتبى اسمه بدرو بارامو [1] ، اسم على غير مسمى لكاتب مثله ، كان متعلقا بالموت وهذا كان يجمع فيما بيننا ، هذا وخوان رولفو [2] ، ذلك الكاتب المكسيكى الذى كنت منهمكة فى تلك اللحظات بقراءته ، اختيارى لخوان رولفو لم يكن عشوائيا ، قبل أن أتفرغ لتلك الرواية كنت فى حيرة فيما بينه وبين كارليس ريبا ، الشاعر القطالونى ، لكنى كنت مائة ألف مرة أكثر من خوان رولفو ، كنت مشبعة به وبوجوده ، أكثر من الكاتب القطالونى جارنا فى المقابر ، أدخلنى بدرو بارامو فى خضم رواية خوان رولفو ، قائلا لى :

– هذا هو كاتب أحلامك .

وهكذا كان ، كان خوان رولفو بالنسبة لى الفنار المشتعل فى ضباب أفكارى ككاتبة ، إنه مخترع الشواهد الجنائزية ، كان الأمين العام لمكتبة فوضى العظام فى المقابر والمدافن ، غرقت فى قراءتى لخوان رولفو حتى خلطت ما بين شخصيته وشخصية بدرو بارامو ، لم أعد أعرف إن كان هو بدرو بارامو أم خوان رولفو الكاتب الذى عشقته والذى قررت الزواج منه رغم عشقى ، لم أعد أعرف إن كنت أتزوج من خوان أم من بدرو . ربما عشقت قبراً آخر .

عندما عثرت عليه ، كان يبدو بدرو بارامو كما لو كان آتيا من ملجأ قديم للأيتام ، كان يحمل على كتفه حقيبته القماشية دون أن يعرف إلى أين يتجه ، لم يكن ينتظره أحد هنا فى برشلونة ، جاء فقيراً ووحيداً ، سار بضع خطوات باتجاه مركز المدينة خالى الذهن ، وأخيراً أسند جسده إلى قضبان بوابة كلية الآداب المفتوحة. لا أعرف لما فكرت ساعتها أن تلك البوابة تبدو أشبه ببوابة مدافن «الأبراج الثلاثة» ، وأن ذلك الرجل كان يبدو خارجا من مقبرة طفولتى. كان

---

(١) بدرو بارامو اسم بطل الرواية الشهيرة التى تحمل الاسم نفسه والتى كتبها الكاتب المكسيكى خوان رولفو .

(٢) خوان رولفو JUAN RULFO ، كاتب مكسيكى (١٩١٨ – ١٩٨٦) من مؤسسى الواقعية السحرية ، من أشهر أعماله رواية بدرو بارامو .

fb/mashro3pdf

بدرو بارامو يسند أحد كتفيه إلى قضبان البوابة ، كما لو كان يستريح ليرتب أفكاره ، جلس على الحقيبة وفتح الكيس الأسود الذى يضم جواز سفره ، هناك فى شارع أريباو فى نقطة التقائه مع ناصية ميدان الجامعة ، كان الكاتب يجلس مهوشا وساكنا كصخرة ملقاة فى أى طريق ، لو كانوا أخبروه إلى أين يذهب ، أو إلى أين يمكنه أن يسير فى تلك المدينة الغريبة لكنه كان لا يزال يحفظ اسمها ، وشوارعها ، وأحياءها تلك التى طالما سار فيها أيام الآحاد . برشلونة مدينة نهاية الأسبوع التى لا تعرف الأيام العادية للأسبوع ، إنها مكان لا يعرف لا الاثنين ولا الثلاثاء ولا الأربعاء ، ولا حتى الخميس أو الجمعة ، أو السبت. لا يعرف سوى أيام الآحاد. كانت كما لو كانت مفرغة من الأيام الأخرى ، كما لو كانت تلك الأيام تمت غربلتها بغربال أو ألقى بها إلى القمامة .

أخذت بدرو بارامو إلى البيت ، شقة لطالبة مزيفة وقارئة حقيقية ، أول شىء كان يجب البحث عن بيت ، بيت مهدم الأركان لكنه بيت يمكن أن نلعب فيه معا ونكتشف معا مقابر الموتى ، كنت وقتها متفرغة لكتابة الرسائل للأموات ، رسائل كنت أقص فيها كل ما حدث لى منذ رحيلها ، تحولت إلى خبيرة فى كتابة الرسائل للأموات ، كان بدرو بارامو ينظر إلى بطرف عينيه ويوافق على ما أفعل ، حولنا بيتنا إلى مكتب للكتابة للأموات .

كنت أسمعه من الناحية الأخرى للشقة يدق على الآلة الكاتبة السوداء ماركة «ريمنتون» منذ الصباح وحتى المساء ، فيما كان يحتمل دقاتى منذ الصباح وحتى المساء على الآلة الكاتبة النقالة البيضاء ماركة «أوليفيتى» .

هكذا تكون البداية عندما يجب عمل شىء ، هكذا تبدأ حياة زوجين من الكتاب، بلا أى رومانتيكية خلاف أصوات حروف الآلات الكاتبة .

كان الشاعر فويس يقضى اليوم كله فى محله الكائن أمام المبنى الذى تقع فيه شقتنا ككاتبين مزيفين ، لكن هذه المعلومة لم تكن حينها تهمنا كثيراً.

fb/mashro3pdf

أنا فى الطرف الآخر من الشقة ، كنت أكتب نصوصى غير المقروءة ، خطاباتى المتخلفة التى أكتبها للموتى ، لم يطرق أى كائن حى باب شقتنا ، لم نكن على استعداد لمقابلة أى كائن له شكل محدد .

كنت أطلعه على الصفحات التى أكتبها وأقول له عنها :

– مزقها عندما تنتهى من قراءتها .

لكن بدرو لم يجرؤ سوى على إجراء بعض التصحيحات السريعة والسطحية خوفا من إيقاظ الموتى .

كان يقول :

– من الأفضل أن تكون على هذا النحو ، كما لو كانت لمبتدىء فى كتابة النصوص غير المقروءة ، حتى لا تسقط فى روتينية المؤلفين المعروفين .

أو :

– من الأفضل أن تكونى كاتبة على وشك الولادة عن أن تكونى كاتبة مستهلكة.

عندما كنا نسافر ، لأنه بعد زواجنا تنقلنا فى المكسيك كلها ، كنا نأخذ موتانا فى الحقيبة ، بدرو بارامو ، كان يقدم نفسه على أنه الزوج الكامل كالميت ، ويتكلم عن أرواح الموتى المثرثرة ، ربما لم تعد الحياة تقدم لى بعد ذلك فرصة زواجى من كاتب . زوج يعجب بزوجته ككاتبة ، بالنسبة لبدرو بارامو أن أكون كاتبة أو لا أكون لم يكن هذا مهما ، فقد كنا جميعا موتى، بالنسبة لى على العكس من ذلك تماما ، نعم كان يهمنى ذلك ، كانت هناك المقبرة المجاورة لمقبرة أمى .

فكرت فى السعادة التى سأمنحها لأبى عندما أخبره بزواجى من بدرو بارامو .

– من الآن فصاعدا عليك أن تترك الحياة فى الماضى وأن تبدأ التطلع للمستقبل .

كنت أريد أن أقنعه بأن بعض الموتى مثلنا يمكننا أن نحل محل موتاه .

fb/mashro3pdf

لكن أبى لا يبدو أنه كان يحب الأدب كثيراً كما كان يحب أن يقنعنى بذلك ، أو من المؤكد أنه كان يحب نوعا خاصا به من الأدب . أو ربما كان أبناؤه فوق كل هذا ، أو أقل من قيمة الأدب ومقتنياته من الكتب الأثرية ، المكتبة اللعينة التى أبعدنى عنها بعد قليل من معرفته خبر عرسى من بدرو بارامو ، كاتبى لم يكن يذكره بشىء إلى جوار تعلقه بالشاعر كارليس ريبا، ولا كذلك بحجم ديكنز، ولا حتى مثل ابنة ديكنز بالتبنى . حقيبة كتاباتنا كانت مليئة بفواتير من الأحياء والأموات . زواجنا ، فى رأى أبى ، ليس له مستقبل وربما تنتهى كتاباتنا فى الفشل نفسه .

أبدا لم يعرف أبى ما الذى كان يجعله يتخذ هذا الموقف ، هل هو مشروع زواجى فى حد ذاته ، أم ظهور الكاتب المكسيكى فى حياته المحاطة بالموتى .

قبيل زواجى الفاشل مسبقا ، أيقظنا أبى بمكالماته الهاتفية مع الساعات الأولى من الفجر ، كان صراخه يبدو غريبا عنه كأى محرض ليلى ، فلم يكن يرفع صوته أبداً ، لكنه كان دائماً مختبئا خلف تنفسه المجهول كنت أعرف من يختبىء خلفه ألمه الصامت فى لعنات التليفون .

فى تلك الفترة كنت قليلة الكلام ، وكنت أترك عزيزى بدرو بارامو يتحدث نيابة عنى ، أعتقد أنه لم يكن يكره ركونى للصمت ، بهذا الشكل أبدو أكثر موتا فأردد أصواتا تعود إلى الماضى القديم ، بالنسبة لبدرو بارامو تحولت إلى ما يشبه بلد من الموتى الأحيـاء ، ما الذى يمكن أن نطلبه من ميت ؟ هل نطلب منه مشاعر ؟ فى الحقيقة بدرو بارامو لم تكن لديه مشاعر ، كانت لديه ذكريات فقط ، ذكريات سيئة . الشىء القليل الذى كان طيبا فى بدرو بقى فى المكسيك مع روحه الجافة عندما كان يقص عن حجم الموتى الضخم .

لم يحتمل أبى زواجى من بدرو بارامو وأبدى عدم موافقته العميقة بعدم الاستماع ، مما يتنافى مع ما يمكن أن نتصوره عن أرمل حزين ومكتئب . تزوج هو الآخر بعد أشهر قليلة من عرسى ، ذلك الحدث ، الذى كان من المفترض أن

fb/mashro3pdf

يكون مخففا عنه كأرمل حزين ، كان يمكن أن يكون مشكلة كبيرة أو صغيرة ، طبقا للجانب الذى ينظر به إليها ، أنا أشير إلى مقبرة أمى المسكينة فى مدافن الأبراج الثلاثة ، هذا ليس لأننى أعتقد أن أمى ستستيقظ فى قبرها متألة لخيانة زوجها العزيز ، وسلبية أبنائها ، ولكن كان يزعجنى مستقبل مقبرتنا ، لم نكن نفكر فى ترك أمى فى مقبرتها وحيدة إلى الأبد ، لكن فى حالة أبى ، عندما تحين اللحظة ، يجب أن يرافقها هناك ، ما الذى سيحدث عندما تموت زوجته الثانية ؟ .. أعتقد أنه ليس من المحبب أن يوضع اسمها على الشاهد العائلى . لأى من الزوجتين يمكن لأبى أن ينتسب بعد رحيله ؟ هذه اسئلة لم نكن فى حاجة إلى طرحها فى تلك اللحظة ، خاصة فى وجود أبى ، العصبى ، القلق ، الذى كان يشعر بالذنب فى عرسه دون أن يدرى أنه بزواجه مرة أخرى كان يسرع الخطى على الطريق نحو مقبرته .

الزواج ليس أسوأ ما فعله أبى كنتيجة لزواجى من الكاتب المكسيكى ، فقد ارتكب أفعالا أكثر شناعة من هذا ، أولا موته بسرعة ، وهو الشىء الذى يحل جزئيا مشكلة المقبرة العائلية .

قال لى الصوت :

– إنه أمر مقبول ، أن الزوج الميت يدفن إلى جوار الراحلة التى منحته حياة زوجية قبل سنوات .

مع ذلك ، هذا الزواج لم يقض على أبى فحسب كنتيجة لزواجى ، بل إنه إضافة إلى ذلك ، دفعه لارتكاب الخطأ الثانى ، وهو شىء أقرب إلى الخيانة التى لا تغتفر للموتى .

انفصل أبى بشكل قاطع عن كتبه ، وأبعدنى عن المكتبة . التى كانت أيضا جزءا من حياتى وحياته التى كان يشاركنى فيها ، فى أى شىء يفكر أبى ليعاقبنى بهذه الطريقة ؟

لو أننى تركت الأشياء كما كانت ربما ما كان لأبى أن يموت ، لأنه من المؤكد

fb/mashro3pdf

مات بسرعة لإبعادى بأسرع وقت عن مكتبته التى كانت مكتبتى أيضا . من يعرف ربما أنهم قتلوه ليبعدونى عنه وعن مكتبته ، رغم أنه فى النهاية ، الزواج نوع من المكان الذى تفرضه الظروف لنبقى فيه لفترة محددة لنصفى فيه حساباتنا مع الماضى .

فيما يختص بمقبرة أمى ، فإن نتائج عرس أبى لم تكن تحمل أنباء طيبة ، برج «بيدر ألبس» أقامت فيه ساكنة جديدة كانت مشغولة بأن تترك آثارها فى كل ركن فيه ، غرفتى الواقعة فى الطابق الأول من البيت ، والمطلة على بوابة الشارع والذى لا يزال يحمل اسم إحدى جداتى التى كان أبوها مؤسسا وناشرا لموسوعة شهيرة ، غرفتى اختفت من الوجود ، تماما كما حدث مع غرفة شقيقى وغرفة أبى نفسه . نافذة غرفتى فقدت مكانها المتميز. ابتعادها عن الشمس لم يجعلها مناسبة لتكون حتى مجرد غرفة مخصصة للضيوف. من المؤكد أنها أكثر غرف البيت برودة ، البيت المكون من الطوب الأحمر والأسقف السوداء البازلتية المعلقة التى أمر أبواى ببنائها فى المنور الذى كان من قبل حديقة لبيت جدى لأمى . أمى كما كانوا يقولون ، ما كان يمكنها أبدا أن تعيش مع أبى فى البيت الجديد الذى كان حلمها الأكبر. كما يقولون ، فقد كنا نحن الثلاثة ، أطفالها الصغار والمحبوبين. توقف أبى عن الذهاب إلى مقابر الأبراج الثلاثة طوال الفترة القصيرة التى طالها الزواج . حوالى إثنى عشر أو ثلاثة عشر شهرا على أكثر تقدير ، لأنه فجأة ودون أن يعرف أحد كيف ، مات أبى ، لم يمت من فرط السعادة ، بل من الحزن العميق الذى كان يتجرعه ، بسبب وضعه الجديد ، ذلك الحزن الخاص به كأرمل قديم الذى ربما كان يؤله بسبب وضعه كعريس جديد . أو من يعرف أنه ربما قامت أمى من قبرها لتأخذه معها كما كان متوقعا خلال السنوات الطويلة التى كان يعلن فيها إعجابه الأبدى واللا نهائى .

عدت إلى المدافن فى فترة كدت أنسى فيها تماما صالة انتظار الموت تلك المزينة بالزهور ، عدت لأدفن أبى ، فى ذلك اليوم استطعت أنا وشقيقاى أن نذرف

fb/mashro3pdf

كل الدموع التى حبسناها طوال سنوات حتى لا نزيد من ألم أبى ، الذى كان يبكى دون دموع أمام قبر أمى .

كان المشهد بلا شك مؤلما جدا ، لكن للمرة الأولى أمكن تنفس سلام كامل فى المدافن ، وأصبح لذلك الشاهد الجنائزى معنى ، أبى وأمى معا تحت التراب استطاعا أخيرا أن يحصلا على السلام الأبدى لزواجهما الكامل . من ناحية أخرى ، إلى جوارهما كانت مقبرة الزوجين الكاتبين القطالونيين كأفضل ديكور ثقافى ممكن أن يرافقهما .

بموت أبى لم يعد هناك معنى لزواجى من بدرو بارامو ، كنت أنظر إلى عينيه ولا أدع الفرصة لأتهمه :

– أنت تذكرنى بأحد الموتى .

لكن هذا بالضبط ما كان الأساس الأصيل لعلاقتنا .

فجأة تعلمنا أشكالا أخرى لتذكر الموتى .

أموات بدرو بارامو كانوا موتى احتفاليين ، كما لو كانوا جميعا خارجين من مستشفى مجاذيب ، كل واحد منهم ، كانوا كثيرين ، تبدو أشكالهم مثل تلك الصور والتماثيل اللانهائية للسيدة لولا أوليدو ، نصيرة الآداب وأم بدرو بالتبنى فى مدينة المكسيك ، تلك الصور التى كانت معلقة فى حوائط بيتها فى كويواكان ، حى آخر شبيه بحى بيدر ألبس المزين بالحدائق .

أمواته كانوا ثرثارين ، لا يصمتون أبدا ، ولا حتى فى الليل ، مبتسمون دائما .

أضعنا صناديقنا فى رحلاتنا عبر المحيط ، أضعنا سفننا ، كان الصوت يحذرنى بمطالبه ودورانه :

– عليك بنسيان بدرو بارامو . إنه سكير .

الكحول هو رفيق الموتى ، قتل أبى وفى يوم ما سيقتل بدرو بارامو أيضا . ذلك المبتسم الدائم .

fb/mashro3pdf

لم أعد أرغب فى البقاء فى مدافن غريبة عنى ، لأتأمل موتاها ، بدأت أشعر بأن البيت الذى كنت أتقاسمه مع بدرو كان القبر الذى أتقاسمه معه . لم يكن بدرو بارامو يبذل جهدا من جانبه لإحياء ما تبقى لى من حياة قليلة ، وأنا كنت فى حاجة إلى التنفس مع كتبى وفى مقبرتى الخاصة .

الكتب كالأبناء ، فجأة تأتى اللحظة التى يطالبونك فيها وعليك بالاستجابة إما بالابتعاد عنهم أو الإبقاء عليهم .

كان يقول :

– أنت تفقدين التشوق ، ستنتهين قلقة وحبيسة، وتجربين كل شىء لكنك لا تنهين أى تجربة أبدا .

أو :

– أنت أول فاصلة فى ما بين قوسين كبيرين .

أو :

– أنت دائما على وشك الولادة ولم تلدى بعد .

وفى الحقيقة ، فإن بدرو بارامو اختارنى أيضا بسبب ذلك .

***

fb/mashro3pdf

- ٢ -

ما هو القبر إن لم يكن كتابا ضخما معدا للفتح والانتهاك ؟ . الكتاب قبر آخر ينتظر سر الحياة بتشوق .

فى يوم ما رأيته بوضوح ، كان كبيرا ومجلدا فبدا كشاهد جنائزى. أسعدنى هذا الاكتشاف ، وفجأة اكتشفت نظام الحياة ، واكتشفت أننى طوال حياتى كنت ألتقى بكتاب طفولتى المستطيل الأبيض المسطح . لكنى فى ذلك الوقت لم أقص شيئاً لزوجى ، الذى كان إلى جوارى ، المؤكد أنه كان حزيناً أمام فراغ الشاهد الجنائزى فى الكتابة ، إنها أشياء خاصة وشخصية يجب أن تبقى فى السر حتى يمكن الاستمتاع بها بلذة ومعرفة أكبر ، على الرغم من أننى قلت لنفسى :

– الكتاب ، ذلك الشىء المستطيل المكتوب على غلافه بحروف مائلة ، كأنه شاهد جنائزى لطفولتى ، شاهد يتبع غلاف أمى المهمل .

اكتشفته قبل قليل ، طفولتى كانت كتابا مهملا بحروفه المائلة الميتة . وحياتى كانت كتابا ومقبرة وبضعة حروف مائلة مقدسة .

يؤكد الحكماء أن «المكتبات العامة كالمقابر» .

لكنى لم استطع حتى تلك اللحظة أن أربط ما بين المكتبات الشخصية ومقابر طفولتى .

مكتبتى كانت مقبرتى ، لا يستطيع أى شخص أو أى شىء أن يفصلنى عن مكتبة طفولتى ، تماما كما أنه لا يمكننى أن أبتعد أبداً عن المقابر التى تعلمت فيها منذ صغرى أن أقرأ كتب طفولتى .

«الكتب رماد هامس» كما يقول الشعراء .

fb/mashro3pdf

عندما كنت طفلة كان أبى يضعنى أمام الشاهد ، وأنا كنت أنتظر أن تقول أمى شيئاً ، حاولت سماع صوتها بأذنى ، كما لو كانت تسر لى بسر ، كنت أصلى مع أبى فى المقابر المخيفة بصوت مسموع معتقدة أنه بهذه الطريقة يمكنها أن تجيبنى ، كنت حينها أعتقد فى إله يؤنس وحدة أمى ، أو اعتقدت فى أمى أكثر من اعتقادى فى إله له وجود ، أو كنت أعتقد فى أمل أن أصبح إلها لأعيد أمى إلى الحياة ، لكن هذا لم يحدث أبداً ، مما جعلنى أستبدل الشاهد الجنائزى بالكتب ، الكتب كانت تحادثنى ، كنت أعتقد أننى أسمع صوت أمى عبرها ، كانت الكتب تحدثنى عن صمت أمى المنسية .

الصوت ، مثلا ، لم يكن متفقا معى دائما فى هذه الأحاديث المقتطبة وكان يؤكد صدق الأطباء ، أولئك الذين شخصوا حالتى على أنها التهاب دماغى حاد أصابنى فى سنواتى الأولى كأم مهملة .

كان الصوت يقول :

– الكتب كذب ، هل تعتقدين أنها تساعدك على الهرب من طفولتك كأم منسية، بينما هى فى الحقيقة عقاب لك حتى لا تخرجى أبدا من المقابر .

الأطباء أنفسهم توصلوا إلى تشخيص تشبثى بالقراءة على أنه نوع من المرض ، أى شىء يمكننى أن أكون إذا كنت ابنة لمكتبة منسية ؟

ترعرعت حياتى فى المقابر ، واتخذت شكلها بين كل تلك الكتب المولودة فى المقابر المتعددة ، فى الحقيقة ، لم أخرج أبداً ، من مكتبتى الخجولة ، مقبرتى المنزلية .

بدأت بالتهام الروايات ، الروايات كانت لبن الرضاعة أو وصفة طعام بأنيميا القراءة .

رواية «نساء صغيرات» للكاتبة «لويسا أ . الكوت» [1] كانت رواية طفولتى إضافة إلى شاهد أمى المهمل . وقع الكتاب بين يدى فى ما يشبه المعجزة ، أن

(١) لويسا أ. الكوت (١٨٣٢ – ١٨٨٨) كاتبة أمريكية من أشهر أعمالها رواية «نساء صغيرات»

fb/mashro3pdf

أشعر بإحساس أن كتاب أمى سيقع بين يدى فى يوم من الأيام ، كتاب مكتوب بخط يد أمى ، إن كانت كتبته هى أو أنها كانت مجرد مالكة له هذا لم يكن له أهمية ، فقد خلطت عيناى ما بين المؤلفة والمالكة ، كنت أريد أن أقرأ رواية لأمى .

ذلك المساء ، كما فى أمسيات أخرى ، كنت أتأمل أبى وهو ينظم كتبه القديمة التى يعلوها التراب .

قال لى :

– خذى ، هذا الكتاب لك .

مد يده بنسخة من رواية «نساء صغيرات» .

كان أبى يفعل هذا أحيانا عندما يكون مشغولا بتغيير أماكن الكتب والأوراق ، كان يعطينى نسخه المكررة والقديمة ، أو الكتب المملة القراءة ، فى أغلبها كانت كتب مخصصة للكبار .

كنت أصاب بالذهول عندما أراه يتخلص من كتبه ، طامعة فى الحصول على الروايات أو الفتات القليلة والمحسوبة . كتب صغيرة الحروف وصعبة ، كنت أحاول أن أقرأ وأفهم دون أن أتمكن من ذلك فى كثير من الأحيان ، على الرغم من أننى كنت أطالعها ولو ببذل جهد هباء لفهم تلك النصوص الصعبة والمعقدة كالليل أو الصمت ، كانت قراءة مختلفة عن قراءة القصص المعتادة ، قراءات فى حاجة إلى أسرار ، وحينها كانت تأتينى لذة اكتشاف الصفحة عبر صمت الكلمات الخبيئة ، رماد الموتى الهامس . كلمات عنيدة كالصوت الأبكم لأمى المنسية .

كنت أتوقف لحظات طويلة أمام صفحة وأقرأ النص وأستعيده مرة ومرة أخرى، كما لو كانت هناك ريشة خفية تصنع المعجزات من خلال كتابة الحروف ، وعندما ينطق النص الأبكم كنت ألقى بالكتاب فى أى ركن ، أعاقبه فى أكثر الأركان المتربة فى مكتبتى الصغيرة ، لم أكن أشعر بقيمة أى غرفة ما لم تضم مكتبة خاصة بها ، ودون نافذة تطل على الشارع ، لو لم يكن هذا فإن الموتى ما كان يمكنهم الاستيقاظ والخروج للتنزه فى كل حى «بيدر ألبس» .

fb/mashro3pdf

بفضل حصص النظام والتنظيف المتبادلة للمكتبة الأبوية اكتشفت بعض كتابى المفضلين . وفجأة اكتشفت رواية «نساء صغيرات» .

– هذا كتاب لأمك .

قالها لى أبى مستخدما أنصاف الكلمات ، ومتحدثا كعجوز أو كطفل ، دون أن يفهم من كلماته أى شىء ، تماما كما كان يتحدث عندما كان يريد أن يقول شيئاً عن أمى ، كان يتحدث بحماس ولكن بصمت . كما لو كان كتابا مغلقا ومؤلما ، كما لو كان قد أكل جميع كلمات الكتاب .

– كتاب من الدرجة الثانية .

قالها لى أبى أيضا .

لكن الكتاب كان بين يدى ، وكنت أريد أن أرى فى الكتاب أمى وآثارها فيه كقارئة ومالكة ، كان اسمها على الغلاف ، بحروف حادة ورقيقة ، يقولون، إنها حروف أمى . الحروف تكتب اسم أمى ولقبيها ، وتحسبا لضياعه كان هناك لقبها الثانى ، الذى تحمله الموسوعة العالمية الشهيرة .

رواية «نساء صغيرات» كانت كتابا قديما ومستعملا ، بغلاف مقوى وعليه عنوان لم أكن أحبه كثيرا ، الحروف كانت مضغوطة لكنها مقروءة ، وكانت تقص حكاية فتاة لديها طموحات كبيرة فى أن تكون كاتبة ، فتاة عنيدة ونشطة مثل ما كانت ترغب أمى أن تكون ، أم كانت ضعيفة وخنوعة كبطلات الأدب اللاتى يمتن فى شبابهن المبكر ؟ ترى أى من تلك النساء الصغيرات كانت أمى ؟، لماذا تخضع الروايات دائما لرغباتنا لنجد فيها الحياة والموت ؟.

ظللت أرى نفسى حزينة ومتعبة كما فى روايات ديكنز ، الكاتب المفضل لأبى، إضافة إلى جوليس برنيه ، [1] مخترع الأشباح ، كان أبى يقص على الكتب مقطعاً مقطعاً ، ومن خلال لحظات مختارة يتذكرها دائما .

---

(١) جوليس برنيه (١٨٢٨ – ١٩٠٥) كاتب فرنسى بلغ الشهرة من خلال كتب المغامرات والخيال .

fb/mashro3pdf

الرواية كانت كمرايا الذكريات ، كنت أرى نفسى فيها ولا أرانى ، طبقا لأهواء أمى المسكينة ، الروايات كانت تقص على صمت موت أمى .

الجنون ، مثلا .

الرواية كانت جنونا ، أمى ، ومجنونة «جان أيرى» ، كتابى الثانى المفضل .

مع ذلك فإن أبى لم يكن يحتفظ بذلك الكتاب فى مكتبته ، شىء كان يبدو لى مثيرا للشبهة فى ذلك الوقت ، لأنه كان موجودا فى مكتبة أمى جميع كتب الأدب الأساسية ، كما يقولون .

لهذا لم تستطع أمى أن تقرأ هذه الرواية ، وربما كانت «جان أيرى» الرواية السرية لحياة وموت أمى .

أعارتنى إياه مصادفة ابنة خالتى كريستينا ، ابنة خالتى التى تكبرنى بعض الشىء ، وكانت تعيش فى البرج المجاور لبيت أمى القديم ، عاشت أمى فى ذلك البيت مع أبويها وأشقائها ، وبعد ذلك عندما تزوج أخوالى ومات جدى وجدتى ، كانت أمى الصغرى ، عاشت تحت رعاية بعض السيدات العوانس صديقات للعائلة إلى أن خرجت من هناك لتتزوج من أبى . ربطت فى خيالى على الفور ما بين بيت جدى القديم وما بين تورنفيلد هال ، بيت السيد ريشستر الكئيب .

أين كانت أمى ؟ . بدأت أسأل نفسى بانزعاج أكثر من قبل ، كل شىء كان يدفعنى إلى الخلط ما بينها وما بين السيدة ريشستر حية أم ميتة .

ابنة خالتى كريستينا ، التى كنت أحبها وأعجب بها كشقيقة كبرى ، لم تكن تتمتع بحاسة الحكى ، كانت مفتونة بالرسم والتشكيل، ولذلك كنت أغار منها بسبب هذا وبسبب أشياء أخرى ، بسبب أنها كانت تكبرنى ببضع سنوات وموهبتها الفنية التى كانت تجذب الأسرة كلها . مواهبى التى كانت تستحق بعض الإعجاب من جانب الكبار كانت تنحصر فى الشبه الكبير بأمى ، وأيضا اختلافى عنها ، كانوا يعجبون بقدرتى على الاستذكار (كانت هذه الكلمة بالضبط التى يستخدمونها) ، بالنسبة لى كنت أحب أن أتقن شيئاً فنيا مثل رسم ابنة خالتى

fb/mashro3pdf

كريستينا . يدها لم يكن لها مثيل ، كنت أحاول تقليد رسومها ، وهى بدلا من أن تغضب كانت تشجعنى على المضى فى ذلك ، عندما أتعبتنى تلك الرسوم اليدوية التى كانت تصيبنى بالغيظ، وهو الشىء الذى كان يحدث بعد مضى دقائق من بدء الرسم، كنت ألفت ابنة خالتى بأن أقص عليها بعض الحكايات والقصص ، بعضها من صنع خيالى وبعضها الآخر كنت أنتزعه من بعض الصفحات الخيالية فى كتب الصمت ، كنت أحدثها عن السفن ، مثلا ، عن سفن زنوج «نرسيس» التى كانت تبحر محملة بالعبيد وعن الحيتان البيضاء المنطلقة الضخمة والتى تبدو كجبال جليدية . هى كانت ترسم وأنا كنت أتكلم وأتكلم دون أن نشعر بمرور الوقت سريعاً سرعة تشبه حكاياتى المرتجلة .

ربما أمكننى أن أصيب ابنة خالتى كريستينا بعدوى مواهبى القصصية. لأنه فى إحدى المرات كانت هى بطلة الحكاية العجيبة ، ابنة خالتى كانت مريضة وكان عليها أن تنتظر عدة أيام قبل العودة إلى المدرسة ، ومثل كل الأمسيات ما أن وصلت إلى البيت حتى ألقيت بحقيبة الكتب ودون الانتظار لأخذ قسط من الراحة جريت إلى البيت المجاور ، لألعب مع كريستينا .

كان الليل قد حل ، وكنا فى غرفتها ، كانت ابنة خالتى فى سريرها، وأباجورة كانت مضاءة إلى جوار كتاب على المنضدة ، الكتاب الوحيد، فيما أعتقد ، الذى رأيته فى بعض الأحيان بين يدى ابنة خالتى كريستينا ، التى كانت ترسم دائما .

كانت تبدو سعيدة ، تريد أن تقص على شيئاً ، قالت لى :

– هذا الكتاب ، عجيب جدا ، يشعرنى بقشعريرة ، يجب على أن أتوقف كثيرا أثناء قراءته ببطء ، لأننى لو أسرعت لن أستطيع النوم فى الليل .

أنا كنت منفعلة ، متى أستطيع أن أقرأ هذا الكتاب الذى يبدو غير مفهوم ؟ فى الصيف القادم ، ربما ؟ عندما أكون قادرة على السيطرة على ممارسة القراءة بالسهولة التى تقرأ بها ابنة خالتى كريستينا ، إضافة إلى أننى كنت ضعيفة جدا فى الرسم .

fb/mashro3pdf

إنها رواية مدهشة ، تتحدث عن فتاة تتعلق برجل متزوج من امرأة تعتقد هى أنها ميتة و ...

وهكذا، بدأت ابنة خالتى كريستينا تقص على أمسية بعد أخرى الرواية الملغزة.

طلبت منها أن تتمهل ، أن تتوقف أمام بعض التفصيلات ، وأن تتأخر فى إنهائها ، أيضا كنت أطلب منها أن تحكى بسرعة ، وأن تكشف لى عن سر النهاية، وأن كل شىء محتمل ، وأنه من المؤكد أن هناك سيدات يحبسهن أزواجهن فى الأقبية والغرف الداخلية . فى النهاية ، ما أن انتهت من الرواية قبلت ابنة خالتى أن تعيرنى إياها .

عرضت على ، أعتقد أنها كانت تخاف أن يرانى أبى أثناء قراءتها :

– أتركها لك أسبوعا واحدا فقط . لأنها ليست لى ، يجب أن أعيدها .

أتذكر أن الرواية كانت فيها بعض الصفحات المرسومة . كانت البطلة تبدو بوجه مذعور فى غرفة مظلمة ، وابتسامة مرعبة لسيدة مجنونة فى بيت يحترق ، كنت أريد أن أقرأ كل هذه الغرابة المدهشة ، ولكن فى الوقت نفسه كنت أخشى ألا أكون قادرة على ذلك ، كما فعلت ابنة خالتى كريستينا ، فى تلك السن ، ثلاث سنوات فى فارق العمر سنوات كثيرة ، حينها عندما كنت أفتح الكتاب ، قبل أن أقرأ كنت أفضل البقاء مع صمت النصوص وهو الأمر الذى كنت معتادة عليه ، كان الصمت يحدثنى ، اخترت أن أبقى مع طبعة «جان أيرى» التى أعارتنى إياها ابنة خالتى كريستينا ، وأضفت إليها بعض المعلومات ، لم أقرأ الكتاب ، أو أننى لم أقرأه بالطريقة التى كنت أقرأ بها الكتب ، بقراءة سطر بعد سطر ، على الرغم من ذلك استطعت أن أعرف عن حكاية الكتاب أكثر مما تعرف ابنة خالتى كريستينا ، أنا الآن من كنت أقص الحكاية مرة أخرى ، متهمة إياها بأنها كانت تنسى بعض المواقف المهمة ، لم تكن ابنة خالتى كريستينا ترى عكس ذلك ، كانت

fb/mashro3pdf

تجيبنى بأنه من الممكن أن أكون على حق ، وأن المجنونة ربما لم تكن سيئة أو مجنونة إلى هذا الحد ، هناك احتمالات كثيرة جداً .

– أولا لأن هذه حكاية واقعية .

أكدت لها ، وأعتقد أننى استطعت إقناعها .

لم أعتقد أبدا أن الروايات عبارة عن حكايات مختلفة ، الروايات تحدث على الطريقة نفسها التى تحدث بها رواية حياتنا التعسة .

لم تكن أمى تستطيع أن تكون أخرى ، بالطبع ، وغير السيدة المصابة بجنون الحرائق التى كانت تسكن فى أعلى قلعة السيد ريشستر . سأكون أنا كاتبة فى المستقبل لأقص حكايات متعددة على طريقة رواية جان أيرى متخذة منها نموذجا. أنا سأكون كاتبة لأتواصل مع أمى .

كانت أمى عصبية ، تتحدث بسرعة وبصعوبة ، فى عائلتنا جميعا نتحدث بشكل فجائى ، كالسيدة ريشستر .

كل شىء يتحول إلى جان أيرى من خلال روايات مختلفة ، كانت رواية مثيرة كنت أقرأها فى السر ، وينتابنى الخوف من أن يكتشفنى أبى ، لكن أبى ما كان يمكنه أبدا أن يتخيل كل ما كان يدور فى رأسى أثناء قراءتى لحكاية جان أيرى . الكتب صناديق سحرية ، يمكن أن نجد فيها كل ما يمكن أن نتخيله .

***

عندما شفيت ابنة خالتى أقنعتها بتغيير مكان عملها ، فكان عليها أن تنقل طاولة الرسم إلى إحدى قاعات ديوان بيت جدى القديم ، البيت الذى كانت تسكنه حينها . كنت أقول لها ، سنجد هناك ضوءا أكثر وسنكون أكثر هدوءاً لنتحدث عن أشيائنا .

قررت ابنة خالتى كريستينا أن تأخذ بنصيحتى ، وفى المساء التالى ، عندما ذهبت لزيارتها مثل كل يوم ، كانت قد انتقلت إلى إحدى قاعات الديوان ، كانت القاعة الأكثر انشراحا وضوءا من بين كل القاعات . إلى جوار غرفة كى الملابس،

fb/mashro3pdf

كانت قاعة مليئة بالدواليب القديمة ، فيما ظلت القاعات الأخرى خالية أو مليئة بالدواليب القديمة ، أحد الأبواب كان مغلقا بمفتاح مزدوج . ابنة خالتى كانت تجهل السر الذى يكمن خلف أبواب تلك القاعة . لم تدخلها أبدا من قبل .

كنت أقول لها :

– هذه القاعة يمكن أن تخفى سرا ما ، وإلا فلماذا يحرصون على إغلاقها ، من يعرف ربما تؤدى إلى سرداب سرى ؟

بينما كانت ابنة خالتى ترسم ظلت أقص عليها حكاياتى السريعة . لكنى كنت أصمت ما بين لحظة وأخرى .

كنت أقول لها :

– دعينى أفكر .

وحينها كنت أصيخ السمع .

كنت أقول :

– هل تسمعين شيئاً ؟

لكن لم يكن يصدر أى صوت من خلف تلك الجدران المعتمة .

تهبط ابنة خالتى أحيانا إلى الغرف التى تقع فى الطوابق السفلى ، فأستطيع أن أبقى وحدى فى هذا الفراغ الذى يفوح برائحة مميزة ، رائحة حبيسة غريبة ، كرائحة كهف بحرى ، كرائحة سجن أو مصحة نفسية ، كنت أقف دون أن أثير ضجة ، وأضغط أذنى على الباب المغلق تحسبا إلى أن ينطلق من الجانب الآخر أى شىء يدل على أن هناك حياة أخرى فى البيت .

المثير أننى كنت أشعر بالخوف ، لكنى كنت أشعر بالراحة فى هذا الوضع ، كنت أحب المكان ، كنت أعتقد أنهم لو أرادوا حبسى فى يوم من الأيام مثل سيدة الكتاب أفضل أن يكون ذلك فى ديوان بيت جدى .

كنت أنظر دائما إلى تلك الناحية ، ناحية الحديقة الكبيرة لبيت ابنة خالتى كريستينا ، أتجنب النظر إلى الناحية الغربية ، حيث تقف المصحة النفسية . كنت

fb/mashro3pdf

قد شاهدت أشياء كثيرة من نافذتى المتميزة وكنت أفضل إدارة وجهى نحو بيت أمى وجدى القديم .

كانت المصحة النفسية عبارة عن مبنى محبب أيضا ولا يمكن نسيانه ، تعلمت رؤيته كما لو كان مسكونا بالأشباح أو العفاريت ، وليس مسكونا بالمجانين الذين كانت رؤيتهم صعبة جداً ، ما أن تكتشفهم حتى يختبئوا كالأطياف ، شخص ما حبسهم خلف القضبان ويخرجهم للتنزه مربوطين كالكلاب ، مربوطين إلى أذرع الممرضين ، كما لو كانوا قد تلقوا أوامر صارمة بإخفائهم عن العيون .

لم يكن من المقبول وجود مصحة نفسية فى حى سكنى .

من ناحية أخرى ، ماذا يكون المجنون ما لم يكن شبحا مرتعبا بشكل رهيب ، لأن أحدا لم يستطع أن يحبسه حتى الآن ؟

لكل هذا لم يفاجئنى كثيرا أن أجد المجانين يتجولون فى حديقتى . ما بين أشجار السرو ، فى أحيان أخرى أكتشفهم يتلصصون على بشكل مكشوف من أعلى صخرة يتسلقونها ويبقون ساكنين كالتماثيل الحية .

كان أكثر ما يلفت نظرى سيدة تظهر من خلف نافذة برج المصحة ، ترتدى لباسا طويلا أبيض ، وتنام فى غرفة على مستوى نافذتى المتميزة . تلك السيدة كانت تظهر من وقت لآخر ، وأقر بأننى رأيتها مرتين قبل يوم الحادث الذى انزلقت فيه من النافذة .

مع ذلك ، أقسم أنها هى التى اهتمت بوصول هذا الكتاب إلى .

«ماذا يفعل كتاب فى الحديقة ؟» فكرت فى ذلك بمجرد اكتشافى له ، إنه كتاب بعنوان غريب : «الضغط دورة أخرى» ، قلت «أشياء خاصة بالمجانين» ، كل الأشياء الغريبة كانت خاصة بمجانين الحديقة المجاورة .

وجدت الرواية تحت شجرة الليمون الضخمة التى تحف أفرعها نافذة غرفتى، سمعت فى لحظة قصيرة صرير البوابة الحديدية عند إغلاقها ، أسرعت بالنظر

fb/mashro3pdf

واعتقد أننى رأيتها تمرق إلى الشارع وتختفى خلف إحدى تلك الأشجار التى تحيط بمدخل المبنى . تلك البوابة المغلقة دائما .

يقولون إن المجانين يتمتعون بحواس خاصة لفتح وإغلاق الأبواب .

فكرت ، «تلك السيدة أرادت أن تهدينى كتابا ، من المؤكد أنها شاهدتنى من نافذة غرفتها وأنا أقرأ وجاءت الآن لتترك لى تلك الهدية» .

كان الكتاب عبارة عن كتاب رسائل ، وبما أننى أصبحت أعرف القراءة ، وأخصص وقتا طويلا من اليوم لتلك الهواية الغريبة ، كان يجب أن أبحث عن الأسباب التى تجعل تلك السيدة تهدينى تلك الهدية .

عندما بدأت بقراءة الصفحات الأولى للرواية لم أستطع إنهاءها ، كنت أرفع عينى من وقت لآخر بحثا عن السيدة . كنت متأكدة تماما أنها كانت تراقبنى ، وأنها تعرفنى . لذلك أهدتنى هذه الرواية ، رواية تتحدث عنا ، عن حياتنا كأطفال يتامى ضائعين فى حديقة برج بيتنا بحى بيدرألبس ، إن كانت هناك حياة شبيهة بحياتنا ، بمدبرة بيت ، وحدائق ، بمختفين وعائدين ، فى تلك الأيام كانت كل الروايات ، الجيد منها ، تبدو كما كانت تشرح حياتى ، كانت روايات حياتنا كأطفال يتامى تحت رقابة مجانين البيت المقابل . لكتابة الروايات يحبس المجانين أنفسهم فى مصحات عقلية لسنوات طويلة . وربما كنت أنا هناك لأكون بطلة لواحدة من تلك الروايات التى يكتبها المجانين .

مازلت لا أعرف السبب الذى دعا تلك السيدة إلى المخاطرة بعبور حديقتى لإهدائى الكتاب .

تلك القصة العجيبة للطفلين الممسوسين بالمدرسة وبستانى حديقتهما لم تصل إلى يدى بمحض الصدفة . ماذا كانت تهدف تلك السيدة من قراءتى لتلك القصة ؟ أو ما يمكن قوله بالضبط ، ما الأهمية التى كنت أمثلها أنا لتلك السيدة المحبوسة فى زنزانة المصحة والتى كانت ترقبنى من زنزانتها ليل نهار ؟ .

الشئ الواضح الوحيد ، أنها كانت تريد أن أتعرف عليها ، ومن خلال الكتاب

fb/mashro3pdf

كانت تنقل إلى وجودها كمريضة محتجزة هناك ربما لفترة زمنية لا يعلم مدتها إلا الله ، أنا كنت وقتها طفلة وبالتالي غير قادرة على تحريرها من سجنها ، إن لم تكن تريد أن تكون كتلك الروح التى تعكسها الرواية ، فقد كانت ترغب فى إقامة علاقة روحية معى ، لم أرد أن أصدق ذلك ، لكن كل الدلائل كانت تقودنى إلى التفكير فى أن تلك السيدة البيضاء كانت لها علاقة سرية بى ، أنا لم أكن أرغب فى تصديق ذلك لكن على أن أقبل فى النهاية إمكانية أن تكون تلك السيدة هى أمى ، لأنها كانت الفكرة الأقرب إلى ذلك ، سيدة ترقبنى فى صمت ، هذا يفسر لماذا كنا نعيش على مسافة قريبة من المصحة ، نكاد نكون ملتصقين بها ، ربما حتى يمكننا أن نرى بعضنا ، وكما هو طبيعى ، فإن الطريقة الوحيدة التى كانت تمكننى من الاتصال بها والإحساس بأنها أمى هى قراءتى للكتب ووجود نافذتى المميزة .

★ ★ ★

- اخفضى الستارة .

كان يأمرنى أبى كل ليلة ، لكنى لم أكن أطيعه ، فقد كان الليل هو أكثر الفترات التى تقربنا من بعضنا ، ذلك الغياب الكبير عاد الآن ليصحبنى فى السر، وفى ساعات غير مرغوبة .

رغم كل شئ ، كنت أشعر أحيانا بالخوف من النظر إلى النافذة المضببة ، كنت أعرف أن السيدة كانت تراقبنى بشكل دائم ، خاصة فى الليل ، عندما يبدو صمت الشارع كما لو كان يوقظ كل الأرواح النائمة ويهز الأبواب التى تفتح بسحر عجيب .

عندها كنت أطلب من أبى أن يربطنى إلى السرير أو أن يغلق أبواب حجرتى بإحكام ، حتى لا تأخذنى نوبة من نوبات السير أثناء النوم للهروب من تلك السيدة .

fb/mashro3pdf

كان يسألنى أبى ضاحكا :

- إلى أين تذهبين ؟ أبواب البيت مغلقة .

مع ذلك ، فهو وأنا كنا نعرف أن هذا ليس صحيحا ، فلم يكن هناك بيت فى كل الدنيا سهل الدخول كبيتنا ، وهكذا كنت أؤكد ذلك بهبوطى السلم بسرعة حتى أصل إلى بوابة المدخل ، مرتدية البيجامة أثناء نومى ، كنت أجد بوابة بيتنا موارية ، أضع قدما فى الحديقة والأخرى فى أحلام المقابر الحزينة .

كانت ليالى سحرية ومثيرة للذة . ليالى لا تنتهى أبدا ولا تحتمل الأحلام ، وإذا جاء الحلم كان قصيرا إلى حد النسيان .

«يجب أن نتعلم الحلم» كان يقول لى كل ليلة .

لكن الحلم كان يرفض الحضور ، وكان يتركنى وحيدة فى عالم واسع ومثير .

كانت سيدة القميص الأبيض تراقبنى كل ليلة كقمر محكوم عليه بالسهر، وبفضلها بدأت أعتقد أن حياتى غريبة ، شاذة وخطرة كما فى الروايات .

كنت أسأل الصوت :

- أين النهاية ؟

لم يكن الصوت يعرف الإجابة . وكان على أن أتوصل إلى الحلول فى نطاق إمكانياتى المحدودة .

الشارع كان حدا ، الشارع الذى كان يفصلنا عن حديقة المجانين . كان خطا فاصلا بين عالمين . لكنه فى الحقيقة فإن كل شئ كان يظل متناغما داخل إطار الأسرة ، فالشارع يحمل اسم الأسرة .

كانت تصحو الأرض وتهيج خلال الصيف ، كنا نمضى فى الحديقة ساعات طويلة ، خاصة فى الجانب المشمس منها ، قريبا من المكان الذى كان يأتى منه الصوت ، وبعيدا عن المصحة ، وفى الصيف كانت المصحة تبدو أيضا حيوية

fb/mashro3pdf

ومليئة بالأصوات المختلطة التى تبدو كأوراق الأشجار الهاربة التى تلعب لعبة الاستخفاء بعيدا عنها ، وأيضا نظرا للحرارة الخانقة كان يتم فتح الشبابيك ، ومن خلالها كان يمكن رؤية غرف المرضين ، كانت هناك حركة قليلة بشكل عام ، حيث يمكن من وقت لآخر رؤية شبح مجنون ملتف على نفسه فى سريره ، بينما أشكال بيضاء تتحرك جيئة وذهابا .

لكن فى ذلك المساء بدأت الصرخات تصل إلى الأسماع عبر كل النوافذ ، صرخات قوية إلى درجة أنها كانت تبدو كما لو كانت تنطلق من الأرض . مرعبة وحقيقية ، لم تكن صرخات هستيرية ، فالجنون صامت ، كانت صرخات ونشيجا أو بكاء عميقا لا ينقطع ، لم تكن صرخات فارغة ، الجنون هو أم العالم الحنون .

كان هناك شخص ما يصرخ طلبا للمساعدة ، صوت رجل يطلب المساعدة ينطلق من المصحة ويسمع فى جميع أنحاء الحى السكنى كله ، رجل بجلباب أبيض كان يصرخ ملء رئتيه طلبا للمساعدة وكانت صرخاته طويلة وقوية ، وأنا ما كان يمكننى أن أفعل شيئا من مكانى أمام النافذة .

من هناك كنت أرقب رغما عنى كيف أن الرجل ذا الجلباب الأبيض يحمل بين ذراعيه سيدة بقميص أبيض ممددة ، معلقة فى الهواء من أعلى شباك فى آخر طابق من المصحة ، فيما بعد قالوا إن الرجل ذا الرداء الأبيض كان الدكتور فوستر ، صاحب المصحة ، كان الطبيب يصيح من النافذة طلبا للمساعدة ، لكنى لا أستطيع أن أؤكد هذا ، اعتقد انه كان طبيبا ، طبيبا شابا ومرتعبا ، لكنه قوى، أنا كنت أتطلع نحوه وأصرخ طلبا للمساعدة ، تماما كالطبيب الذى كان يصرخ من النافذة المقابلة ملء رئتيه ، وأنظر نحوه دون أن أستطيع عمل أى شئ أكثر من النظر والصراخ طلبا للمساعدة من خلال النافذة المفتوحة .

كان الوقت صيفا ، ساعة القيلولة . فى الهواء الحار الخانق كانت السيدة ذات الرداء الأبيض معلقة من النافذة .

هل كان مغمى عليها ، ربما ؟ أم أن الإنسان يموت قبل حتى أن يعرف أنه

fb/mashro3pdf

على وشك الموت لا محالة ، السيدة البيضاء كانت تتطوح فى الفراغ كما لو كانت شرشفا فى الهواء الطلق ، تدور وتلتف لترتفع ثم تهوى طائرة لترتطم بالأرض ، حدث كل هذا أمام عينى ، فى حر المساء ، الرجل ذو الرداء الأبيض من المؤكد أنه أحد تلاميذ الدكتور فوستر ، مدير وصاحب المصحة ، كان الطبيب مترددا بين أن يواصل طلب المساعدة وبين الحفاظ على قوة ساعديه للإبقاء على المجنونة معلقة فى الهواء ، أنا رأيت السيدة وكانت خائفة على موتها الثانى ، أمام عينى ، كنت أراها أقرب إلى الموت وكنت أرى ضعف الذراعين اللذين يحاولان الإمساك بهذا الحمل الميت فى الهواء . واصلت أنا طلب المساعدة بينما كان الموت ينزلق فى الفراغ من هاتين الذراعين ، لم أكن أريد أن أرى ، ومع ذلك رأيت الموت يسقط فى الفراغ .

سقطت السيدة البيضاء فيما أصابنى الفزع بالعمى ، حدث كل هذا بسرعة ، والسيدة ، الفراغ ، الطبيب ، صرخاته طلبا للمساعدة .

– لقد شاهدته .

هذا هو كل ما قلته لشقيقى ولأبى وللخادمات .

قالوا لى :

– أنت لم تر شيئا ، وان كنت قد رأيت شيئا فإن كل شئ تم تصحيحه ، يجب أن تنسيه .

أجبتهم :

– هذا كذب ، لأننى شاهدت سقوط المرأة فى الفراغ .

قالوا :

– هذه تخيلاتك الخاصة .

ثم نظروا إلى مكان آخر ، إلى الجانب الشرقى من البيت ، الجانب المشمس من الأسرار .

صمتوا جميعا عن الموت ، أنقذوها ، تركوها فى الهواء ، فى السماء ، تماما

fb/mashro3pdf

مثل سر أمى ، مئات من الأذرع خرجت إلى النافذة لتساعد الذراعين الضعيفتين للرجل ذى الرداء الأبيض . تلقفوا المجنونة ، الغائبة عن الوعى ، أعادوها إلى السرير ، بعدها أغلقوا النافذة .

هذه هى النهاية الرسمية لتلك الحكاية .

النهاية الحقيقية حكموا عليها بالصمت . لا توجد .

«اقسم أننى رأيتها تسقط وترتطم بالأرض» ، كنت أفكر فى ذلك حين استطعت أن أتذكر السيدة البيضاء معلقة فى إفريز النافذة .

الكذب انتهى بالقضاء على الحقيقة فى صندوق الأحلام ، بعدها يأتون هم ، المتخصصين ذوى الأردية البيضاء ، ويجبرونك على إعادة تذكر الأحلام .

يقولون :

– لا تنس أى شئ .

لكن أنا لم أعد أستطيع أن أؤكد ذلك .

يقولون :

– اكتبى ، تكلمى ، أهم شئ هو الكتابة .

أو :

– الآن ليس من المستحسن أن تكتبى . من المفضل أن تلتزمى السكوت .

بينما اسأل أنا الليلة الكاذبة :

– كيف يمكن كتابة حياة إنسان ؟

فكرت أيضا أن هيامى بالكتابة كان نتيجة للحبس الذى كنت مجبرة عليه، تماما كالسيدة البيضاء ، المعلقة خلف زجاج النافذة تماما كالقدر الخطر .

فرضت حينها على نفسى نظاما صارما ، وهو الكتابة الدائمة فى دفتر أبيض لا تنمو صفحاته ، لذلك كان على أن أبحث بشكل عاجل عن مخبأ ، ركنى المقدس، مكانى كسيدة بيضاء ومحبوسة ، مخبئى كطفلة مرتعبة . وجدته فى النهاية فى غرفة صغيرة مظلمة كفم ذئب ، إلى جوار غرفة مخزن الفحم ، لم تكن بها لمبة

fb/mashro3pdf

كهربائية . لم يكن يكاد يدخلها سوى شعاع ضوء صغير يمر إليها عبر شق فى الحائط الأسود ، تلك الغرفة كانت الليل ، وأنا كنت معتادة عليها .

«الألم أمر يخص الآخرين» ، كنت أقول ذلك محتمية بظلام الأرض .

حملت معى إلى هناك كرسيا صغيرا بلا مسند ، وشمعة ، ودفترى ذا الصفحات البيضاء وقلما ، قلبت صندوق فاكهة وجعلته كما لو كان طاولة للكتابة، كنت أحبس نفسى هناك وأكتب لساعات طويلة ومملة ، خلال أمسيات الصيف الحارة التى كان يختبئ فيها مجانين المصحة المقابلة أو قليلا ما يظهرون، كتماثيل حزينة ، ولتجنب أى نوع من قطع عملى كنت أعلق على باب الغرفة ورقة مكتوبا عليها : «ممنوع الإزعاج ، إننى أستذكر دروسى» .

وهو ما كان نصف الحقيقة ، سبب وجيه للاختلاء بالنفس ، الكتابة كانت نشاطا سريا ، كانت نوعا من شعاع الضوء الذى يحمينى من الصمت ، لم أكن أكشف عن هذا السر لأى شخص وإلا فقدت الكتابة قيمتها وتحطمت ، كانت المذاكرة تساعدنى على إخفاء سر الكتابة . أنا كنت مهتمة بالدرس جدا ، وبهذا القناع كنت أنتهز الفرصة لأحمى نشاطى السرى . الكتابة كانت شكلا من أشكال التآمر على عالم يزعجنى باستمرار . وهذا المخبأ القذر المظلم كان يبدو لى أفضل مكان فى العالم للتخلص من كل الأفكار المزعجة .

فقط فى ذلك المكان كان يبدو أن طفلة تملك بيتا بحديقة وحمام سباحة يمكنها أن تتعلم محو الكتابة ، وتعلمت عظمة الأدب دون أن أكتب أكثر من بضعة اسطر طوال أمسيات بحالها ، قليلا ما كنت أكتب شيئا ، وعندما كنت أفعل ذلك ، كنت أمحو العديد من الأوراق ، رغبتى فى الكتابة كانت أكبر من فعل الكتابة نفسه ، وهذا هو ما تعلمته فى الغرفة المظلمة الصغيرة، الكتابة تأتى فيما بعد ، بعد سنوات طويلة من المحو فى غرف مضببة ومظلمة من الكتابة ، هذا إذا جاءت مهنة الكتابة فى يوم من الأيام ، ولم يكن قد فات الوقت على القدرة على الكتابة أو القدرة على كتابة فكرة رواية . فى البداية كان كل شئ مضببا ، وأنا كنت بدأت

fb/mashro3pdf

أعرف السير فى عالم من الضباب . لقول الحقيقة لم أتمكن أبدا من الكتابة فى زنزانة التعذيب تلك . الشئ الوحيد الذى قلته خلال ساعات وساعات ، هو إعادة كتابة ما هو ممكن من فضاء حياة وكتابة مؤلفى الروايات . كنت أحلم هناك بكتابة كتب لم أكتبها أبدا ، وكنت أحلم بصفحات شقيقاتى الكاتبات التى كنت أخبئها فى حياتى الخاصة . كنت أقضم أظفارى ، كان هذا حقيقة أيضا . لكن هذا كان من لوازم المهنة ، مثل تدخين بقايا أعقاب السجائر . هناك ، فى الغرفة الصغيرة المظلمة ، لم أكن سعيدة ، لكنى كنت أشعر على الأقل بالأمن والحماية ، هناك ، فى تلك الغرفة الصغيرة المظلمة التى كانت تشبه من الداخل قبر أمى ، كنت أفكر أن الموت لا يجب أن يكون آسوأ من الحياة .

فى تلك السنوات كنت أعتقد أن الحرب كانت شيئا لا يمكن تجنبه وأننا جميعا يجب أن نتعلم الحياة فى مخابئ مشابهة لمخبئى المظلم ، لأنه فى لحظة ما من حياتنا لن يكون أمامنا طريق آخر للهروب منه .

كان أبى معتادا على أن يقول من بين أسنانه :

– زمن هذا القرن صعب جدا .

هذه الشكوى كانت تخفف شيئا من وضعى كطفلة يتيمة ومكتوب عليها أن تعيش فى مخبأ .

لكنى كنت أتمرد على ذلك .

كنت أجيبه منزعجة أمام سلبية شكوى أبى :

– علينا إذن أن نفعل شيئا .

وتحسبا لأى شئ آخر كنت أسأله :

– هل نحن يهود ؟

كنت أعتقد أننا يهود ، وإن لم نكن كذلك علينا أن ننتهى إلى القبول بأننا كنا يهودا فى أى وقت من حياتنا الماضية ، على أى حال ، أن تكون يهوديا فى البيت كان يعتبر شيئا حسنا ، وفى الوقت نفسه ، يعتبر نقيصة . المسيح كان يهوديا . المعذبون كانوا يهودا ، الكتاب كانوا يهودا .

fb/mashro3pdf

– انه الأمر الأكثر احتمالا .

كان يجيب ، وبعدها مباشرة كان يلجأ إلى الذاكرة التى كانت دائما بجانبه .

كانت تلك عادته ، البحث عن أسباب كلماته فى مكتبته القريبة منه .

جاء أبى بمعجم من على أحد أرفف مكتبته ، بحث فى الصفحة المطلوبة وأشار إلى جزء تنتظم فيه الأسماء الاسبانية ذات الأصول اليهودية .

هناك نوجد نحن ، وهناك كانت أيضا ألقاب الأقارب ، الأصدقاء والمعارف ، إنه أمر يدعو إلى الفخر وفى الوقت ذاته خطر إذا ظهر فى الكتابة فى القوائم العامة ، كان هذا يملأ أبى بالفخر ، لكن كان علينا أن نختبئ دائما ، لأننا لو انتمينا إلى جانب فعلينا أن ننتمى إلى الجانب الآخر أيضا ، يجب علينا أن نعيش دائما مع جانب والجانب الآخر ، فى جانب المجانين وفى جانب بيت جدى الكبير ، الفكرة لم تكن تبدو مزعجة لى ، كان يبدو طبيعيا أن نعيش على الحد الفاصل من المساحة المخصصة للمجانين . فى بيتنا هذا الواقع فى حى «بيدرألبس» كان لكل منا مخبأه الخاص ، كل منا له جحره الخاص ، الذى يخرج منه من وقت لآخر بحثا عن الطعام والعودة بسرعة إلى الجحر الأرنبى ، كنا نعيش معا ولكن متفرقين تفصلنا حوائط لا يمكن تخطيها ، لكل منا مكانه وعلى كل منا أن ينسج يأسه الخاص . فى بيتنا هذا كنا دائما على سفر ، لأننا لا نستطيع أن نهرب منه أبدا ، كان بيتا ، نحبه ونكرهه ، كان بيتا فارغا وممتلئا تماما كقبر أمى المرعب .

أبى من جانبه كان يختفى أحيانا ، كان يذهب إلى مخبئه . فى المخبأ الأول المعروف لأبى ، فى نهاية الأسبوع الأول من كل شهر يختفى أبى فى ديره . لم أكن أحب هروبه إلى «دير القديسة ماريا» فى «بوبليت» [1] ، لأنه ربما كان نتيجتها أن أبى يمكنه تقريبا أن ينضم إلى الجماعة الدينية هناك ويتركنا جانبا .

---

(١) دير بوبليت.. دير كاثوليكى معروف يوجد فى منطقة جبلية قريبة من مدينة برشلونة، ويعتبر من أشهر الأديرة الكاثوليكية بمنطقة قطالونيا.

fb/mashro3pdf

كان ينبهنا مسبقا :

– أى أرمل يمكنه أن يتحول إلى راهب .

كان لأبى أصدقاء حميمون بين أعضاء تلك الجماعة الدينية ، بعضهم كان يزور بيتنا منتهزا فرصة زياراته القصيرة لمدينة برشلونة ، كان أبى يتحادث معهم فى قاعة المكتبة ، وبعد أن يودعهم يأتى ليقول لنا إنه قضى معهم وقتا ممتعا من المحادثة ، بعضهم من المثقفين ، وبعضهم الآخر متعمق فى الديانة المسيحية .

كنت وأشقائى نركز عيوننا فى أحذيتنا لإخفاء عدم سماعنا لحكايات أبينا الدينية .

مع مرور الزمن ، بدأت زيارات أبى إلى دير بوبليت تطول شيئا فشيئا .

كانت الليالى حينها طويلة ، وقتها كنت أموت وأحيا كل ليلة ، أظل مستيقظة أبحث فى العتمة عن اسم ديرى الخاص .

ربما كانت المصحة التى تقع أمامنا .

فى يوم ما ، بعد غداء عائلى مع القس «التيسنى» أحد رهبان بوبليت ، وبعد أن ودعناه قال أبى :

– ما رأيكم لو أننى ارتديت فى يوم من الأيام الرداء الأبيض والأسود ودخلت الدير .

أحد أشقائى ، الوحيد الذى كان كثير السخرية ، أجاب :

– ستبدو كطائر البنجوين .

كنت أود الضحك ولم أضحك ، كنت أفتح فمى عن آخره وأكتم الهواء وأبحث عن الضحكة ، كنت أنشد مساعدة مجنونة المصحة .

قال أبى مؤكدا :

– سنذهب إلى دير بوبليت فى نهاية الأسبوع القادم .

الأسود ليس واضحا ، وليس هناك شر لا يأتى منه خير ، كنت أقول فى

fb/mashro3pdf

نفسى وأنا ميتة من الضحك والألم ، ربما كان هناك سبب لكل ما حدث ، سبب ربما يكتمل فى السنوات القادمة .

وقفت البنت حين كانت الأم ترتطم بالأرض ، كان أبى يتجه إلى الغرب بينما أنا أتجه إلى الشرق ، المتعارضان ينتهيان إلى اللقاء .

أو لا يلتقيان أبدا ، كنت أذهب إلى مخبئى فى غرفة الفحم ، منتظرة وداع أبى الدينى ، حولت مخبئى إلى زنزانة راهبة من «بيدرألبس» ، بكتبى وهدوئى وبقايا شمعة تشتعل أحيانا وتنطفئ أحيانا أخرى .

أرجو ألا يرونى ، تصبح الحياة صعبة لو كان على الاختيار ما بين مجنونة البرج المقابل وبين بيت أجدادى .

الله كان مع أمى فى مقبرتها وكان يضحك من هروب أبى إلى الجحيم ، أو كان الله الخائن الذى يخدع أبى بأعماله الشريرة ليأخذه بعيدا عنا ، كان يملأ آذاننا بالعصفر كالشياطين .

بدأ يحفر أبى قبره فى الدير حيث يجب أن أذهب إليه لأزوره فى زنزانته الانعزالية كزنازين راهبات «بيدرألبس» ، هناك حيث يجب أن تكون أمى ، مختفية كشبح وتغنى فى كورال دير «بيدرألبس» .

مع كل هذا ، كنت لا أزال أفضل مقبرتى فى الأبراج الثلاثة وبيتى فى «بيدرألبس» . تماما كأبى ، كنت أعلن عن حركتى لكنى لم أتحرك أبدا ، كان أبى ينتهى إلى تأجيل دخوله الدير ليوم آخر . فى يوم ما تزوجت ، وفى يوم ما تزوج أبى أيضا ، وترك جانبا فكرة أن يصبح راهبا ، هذه الأشياء ليست كلها من تخيلاتى ، أنا لا أتخيل ، الحياة تأتى كما تأتى ، سريعة بينما أنا أحتمى من الرياح ، كان أبى آباء كثيرين ، تماما كعدد الشقيقات الكاتبات اللاتى احتفظ بهن فى دفترى المختفى ، ما بين أبى وبينى لم تكد تكون هناك فروق .

ترى هل كانت أمى مختلفة ؟ أم أنها كانت تأتى وتذهب من دير إلى آخر، كما كان يفعل أبى ليهددنا ، لا تزال أمى تواصل الكتابة فى الخفاء مختبئة فى مدسحة

fb/mashro3pdf

«بيدرألبس» العقلية ، أو فى مصحة بيرخين - بيلسن ، هى مجنونة الآن ، أم أنهم يقولون إنها مجنونة ، لأنها تكتب كتبا صامتة ، كتبها سوداء كالخنافس ، كالأردية السوداء البيضاء والرهبان السود . لا يستطيع أن يقرأها أحد . لا يسمعها أحد ، أغلقوا نوافذها بالطوب ، ختموا على حوائطها بألواح من الرصاص ، ولا تزال حية ، لا أحد يفهم الأمر ، وما هو أدهى هناك من يكرر أنها بقايا الجنون والموت .

رفعوا الأم بينما أنا أرتطم بالأرض ، بيتى كان مقبرتى . أكتب أحيانا أشعارا سوداء ، يأتى الأطباء إلى بيتى ، يريدون أن يعرفوا وأنا أجيبهم :

- أنا فى مصحة عقلية ، محبوسة هناك فى الأعالى ، مع أمى ، هناك فى الأعالى .

فى أحيان أخرى أصمت وأبدو كما لو أننى أموت ، أستيقظ بعدها وألتزم صمتا مقدسا ، كنت ملتزمة بالصمت ، كان صمتى هو إلهى ، كنت أتواصل حينها عبر أوراق مكتوبة أمررها من تحت أعقاب الأبواب . كنت أكتب أشعارا :

- انظروا إلى المرأة البيضاء . انظروا ما فعلوه معها ، إنها مجنونة محبوسة فى مصحة عقلية .

يسأل الأطباء وأنا احتفظ بإجاباتى لكتاب الصمت . فى ذلك الكتاب السرى كنت أكتب مذكراتى اليتيمة المهملة ألف مرة .

كنت دائما ما أنتظر أن تأتى اللحظة التى أكون فيها أخرى ، إخراج الشقيقة الأخرى من جسدى .

حينها يتم رفع الشقيقة المجنونة فيما أرتطم أنا بالأرض . كان زوجى يتجه غربا وأنا أجرى باتجاه مقابر أبى وأمى .

إنها تخيلاتى ، يقولون ، إن المسكينة نصف مجنونة .

★ ★ ★

fb/mashro3pdf

- ٣ -

يبدو لى أحيانا أنه عندما أكون إلى جوار أبى وشقيقى فى طريقنا إلى المقابر، تبقى فى البيت نسخة طبق الأصل منى نائمة فى صباح أيام الآحاد ملتفة بالشراشف . كنت اتبعهم فى نومى متثلة ومرتعبة ، تضع الطفلة الآن الورود تحت الشاهد الجنائزى الذى يقولون إن أمى مدفونة تحته . بعدها يظل الأب والأبناء ساكنين فى صمت ، يحتملون الغضب الساقط عليهم من السماء ، إلى أن يتحركوا من جديد ، يبدأون طريق العودة ويصعدون إلى السيارة .

مراقبة المشهد من الخارج ، بعيون شقيقة ثرثارة وناكرة للجميل ، يفقد المشهد الجنائزى معناه ويفتقد لآلامه السرية ، بينما يكونون هناك لأداء الزيارة الطقسية فى المقابر كنت أشعر أننى فى مكان آخر وأراقبهم من بعيد وأشعر بالشفقة تجاههم كأطفال حزانى .

لم يكن سهلا الوجود فى مكانين مختلفين فى وقت واحد ، من المحتمل أن هذا كان يحدث لأمى كما كانوا يقولون ، فقد كانت توجد فى كل مكان، وفى كل لحظة. وأيضا من الممكن أن يكون اختطفها طيار وأرسلها إلى جمهورية سوفييتية لا يمكن الوصول إليها .

كنت أريد أن أكون فى مكان آخر ، وكنت أتمكن من ذلك فى كثير من الأحيان، كان الصمت يساعدنى على السفر، تظل كل الأسئلة الأساسية بلا إجابة، كان على أنا أن أترجم أسئلتى الخاصة بنفسى وأسافر معها ، وبعدها أحاول أن أقدم إجابة ، الأسئلة التى لا إجابة لها كانت تسمح لى بالتجول من مكان إلى آخر .

fb/mashro3pdf

قالوا لى فيما بعد :

– مشاهدة الأشياء من وجهة نظر أخرى .

لكنى لم أكن منقسمة ، كما كان يعتقد البعض ، أى ، ليس أن أكون أو لا أكون فى الوقت نفسه فى المقابر ، عندما كان يجعلنى ذلك أموت ما كان يحدث أن الأخرى كانت تقوم بفعل الأشياء نيابة عنى ، كنت أشعر بالشفقة تجاه الأخرى ، تجاه أبى ، وشقيقى .

سرعان ما وجد شقيقاى سببا للتعلل به لترك الذهاب إلى المقابر . وبما أننى لم أكن أستطيع أن أترك أبى بكل تلك الأموات الثقيلة محملة على كاهله ، كان يجب على أن أرافقه ، فى بعض أيام الآحاد استطعت أن أموت وأن أعود إلى البيت بينما كان يسير حذائى الشمواه المزين بالفيونكة إلى جوار أبى باتجاه المقابر . خلال تلك الأيام لم أتمكن من تذكر أى شئ مما حدث فى صباح تلك الأيام على الرغم من الجهود التى بذلتها من أجل ذلك ، كانت أيام آحاد لطيفة ، وبشكل خاص عندما كنت أقارنها بتلك الأيام التى لم أكن أستطيع أن أطير خلالها ، وبينما كنت أسير إلى جوار أبى كان العالم يتحول إلى مقبرة .

كانت الأسئلة التى لا إجابات لها تستطيل كالأسابيع ، كانت تبحث عن الإجابات فى القواميس وكانت تشرح لى أوضاع الإهمال المختلفة . كنت أجد أسباب الموت فى الكتب فقط .

كان الصوت يقول :

– الكتاب مقبرة ، والمقبرة لا تنتهى تماما كما الكتاب .

حينها تعلمت أن الصوت مختلف عن تفكيرى الخاص وكان يكلمنى أحيانا ، وكان يخاطب آلامى وأحلامى . كان الصوت واضحا حتى أننى اعتقدت فى البداية أن الآخرين كانوا يسمعونه أيضا ، وكنت أشعر بالخجل ويتلون وجهى ، كان الصوت مكشوفا ، أتذكر أننى التقيت به ذات صباح يوم أحد ، بينما كانت الطفلة

fb/mashro3pdf

الحنونة الطيعة ترافق أبى فى زيارته المعتادة إلى المقابر ، ظهر الصوت فجأة ليقول لى فى السرير :

– بينما أنت تقرئين فى غرفتك بكل هدوء ، راقبى طريق المقابر الردئ .

كنت أنا أخرى ، كنت أريد أن أموت ، أو أننى كنت أموت فعلا ، ولهذا كان يظهر الصوت .

لم يكن الصوت مناورا ، نظرت إلى أبى بجانب عينى ، لم يكن يبدو أننى سمعت ذلك الشئ الغريب .

لكن الصوت لا يجيب على الأسئلة ، يظهر فجأة ، وبشكل عام ، يكشف عن أوضاع قائمة ، كنت أريد أن أفكر فى أن الصوت ليس إلا الروح المهملة لأمى المسكينة . لكنه كان منطلقا بحيث إنه لا يمكن أن يشبه صوت مجنونة أو صوت ميتة . إضافة إلى هذا ، عندما كان يذكر أمى كان يصفها بكلمة «المسكينة» ليدعونى بذلك إلى مزيد من التفهم والحنان تجاهها .

الصوت ، كان مثلا ، يكرر كلمات أمى الأخيرة فى الصدى ، «الآن وبعد أن أكملت مهمتى يمكننى أن أموت بهدوء» ، يقولون إنها قالت ذلك بينما كانت تموت بين ذراعى أبى .

كانت مهمتها هى نحن أبناءها الثلاثة ، الذين ولدنا واحدا بعد الآخر ، لا يكاد يوجد فارق كبير ما بين ميلاد وميلاد آخر حتى تموت ببطء . أبناؤها الثلاثة ولدوا متتابعين حتى أنهم لم يكونوا يجيدون الكلام ليتمكنوا من وداعها . قتلها أبناؤها الثلاثة .

بينما كنت أواصل المكوس فى غرفتى ، محتمية بأحد الكتب ، كان الصوت يقول لى :

– تفحصى وانظرى إلى تلك القاتلة الغبية التى ترافق أباها فى طريق المقابر.

هل كان يشعر شقيقاى بذلك النباح الصامت الذى يخترق جسديهما ؟

fb/mashro3pdf

الحقيقة أنه بحضور الصوت ، كنا شقيقاى وأنا قد بدأنا فى ضرب بعضنا البعض بعنف شيطانى .

كان يقول كل منا للآخر :

– سأقتلك .

تم نقل شقيقى إلى الجناح الغربى من البيت فيما بقيت أنا فى الجناح الشرقى، مع صوتى التوأم .

لم نكن نعرف كيف نحتمل عقدتنا كقتلة .

كان يجب على أن أتعلم كيف أكون امرأة وقاتلة فى الوقت نفسه ، إنها مهمة شنيعة ، من حسن الحظ أن الصوت والكتب كانا إلى جوارى ، الكتب التى لولاها لكان الصوت مجرد معجزة فى الفراغ .

كانت تظهر فى الكتب كل إمكانات الموت والحياة ، كنت أفتحها وأفسر صفحاتها كما لو كانت الإكسير المطلوب لاكتشاف الحقيقة ، أشم رائحة لا تحد مع إسرارها ، كانت تشرح لى مكان أمى فى السر .

تقول لى :

– طبقا لكل الشواهد كانت أمك مجنونة .

– الجنون مرض منتشر فى النساء .

كما تقول الروايات .

منذ تلك اللحظة كان من السهل على أن أتوصل إلى القصة النهائية : لقد حبسوها . حكاية المرض المستعصى الخطر والعنيف . كانت مسعورة مثلى عندما كنت أدفع عنى هجوم شقيقى . بعدها من المحتمل أن تكون انتحرت ليدفنوها فى القبر الموجود فى مدافن طفولتى .

– الكتب لا تكذب أبدا .

أكد لى الصوت .

fb/mashro3pdf

كانت الكتب أفضل تجاربى ، وأنا كنت أتبعها خطوة بخطوة تماما كالمخبرين السريين الذين كنت أراهم فى الأحلام . أسير فى الممرات الطويلة دون إثارة ضجة ، ويلفنى الخوف من أن يكتشفوا وجودى ، فجأة شاهدت بابا مواربا سمح لى أن أرى المشهد المضبب ، فى عمق الغرفة ، كانت هناك امرأة ، جالسة على مقعد ، كانت الحوائط بيضاء ، ما كان لتلك المرأة أن تكون غير أمى ، لكنها كانت الآن بتفاصيل وجهها ، المرأة تصرخ ، فيما يحاول طبيب وممرض تهدئتها ، بالقوة ، كانا يضربانها ، أمى تصرخ .

كان الصوت يقول لى :

– انظرى هناك وتأكدى بنفسك .

وأنا لم أكن أعرف إلى أين أذهب لاكتشف أسرار المجنونة المحبوسة .

كنت أبحث عن المكان المحدد الدامغ الذى يدل على غيابها ، لكن لا الأحلام ولا حتى الحقائق كانت تريد أن تدلنى على الطريق الصحيح ، ولا على الدليل الذى يجعلنى أتمكن من الوصول إليها .

ثم كانت بعد ذلك نوبات الإغماء ، والضوء الذى كان يلفنى كان يكلمنى أحيانا، حينها كنت أطير وأتابع البحث عن مخبأ أمى ، كنت أستعيد وعيى وفى كل مرة أكون فيها أقرب إلى الوصول النهائى لمصيرها .

في تلك الأوقات بدأوا ينزعجون من صحة عقلى ، رغم هذا لم يتمكنوا من العثور على الصوت .

كانوا يتحدثون عن مرض يعود إلى طفولتى الأولى ، كدت أموت فى حضانتى بعد ميلادى بقليل ، سمعتهم يقولون ذلك .

– يجب التحرك بطبيعية جدا . إنها إغماءات طبيعية ربما تتغلب عليها عندما تكبر .

هذه كانت ملاحظات الأطباء أنفسهم الذين قتلوا أمى .

كنت أنا أتبع الصوت ، أريد أن أتأكد منه بنفسى ، وحين كنت أصل ، لم أكن

fb/mashro3pdf

أحصل على نتيجة نهائية ، كان الصوت يلح مرة أخرى أن أذهب إلى أعلى بيت جدى لأمى ، خلف الباب المغلق الذى وضعت ابنة خالتى كريستينا مرسمها بناء على نصيحتى .

كرر الصوت :

– انتهزى الآن فرصة لا يوجد أحد واذهبى إلى هناك ، افتحى الأبواب والشبابيك ، ابحثى عنها ، إن استطعت ، بين الفتحات والشقوق .

كان أبواى أمرا ببناء برج «بيدرألبس» فى مزرعة حديقة البيت الكبير لجدى لأمى . كنت أرى البيت من أعلى البرج ، الحلم الذى بنته أمى مع أبى . بيت أحلامهما .

وكنت أرى أشياء أخرى.

على الرغم من غرابة ذلك فان الصوت لم يقل لى أبدا:

– اهربى، اعبرى الشارع، ادخلى الحديقة وتفحصى كل ما حدث ويحدث فى المصحة العقلية.

كان الصوت يدفعنى إلى جانب آخر، إلى مرتفعات بيت أمى القديم المضيئة، يدفعنى الصوت باتجاه الغرب والبنت ترتطم بالأرض.

لم يكن هناك أطفال فى المصحة المقابلة، فقط كان هناك الهاربون من الحياة الذين يعبرون الحديقة دون أن يتبادلوا كلمة واحدة فيما بينهم، جلودهم بيضاء، كوجهى، الذى يشبه الآن أجساد الموتى.

المجانين لا يخيفوننى. لم يكونوا يقولون فى البيت:

– احترسى من المجانين.

ولا حتى:

– كونوا عقلاء حتى لا يأتى المجانين.

مجانين المصحة المقابلة لا وجود لهم فى بيتنا، لا يتناولهم الحديث أبدا، شئ غريب، الخامات اللاتى كانت بعضهن من الثرثارات كانت لديهن تعليمات صارمة

fb/mashro3pdf

بعدم الإشارة إلى مرضى المصحة أمام الأطفال، كانت هذه القاعدة الوحيدة، من القواعد القليلة التى كان يحرص عليها أبى، وكان يتم تطبيقها حرفيا. الإشارة إلى المجانين كانت لها عواقبها الوخيمة.

لكنى كنت أراقبهم عبر نافذة غرفتى، كنت أراقبهم خفية، وكان من النادر ألا أعثر على أحدهم فى نطاق رؤيتى، كنت دائما ما أراقب وأبحث ربما تظهر أمى أو السيدة البيضاء فى المكان الذى لا يخطر على البال، ما الفارق بينهما؟.

«ربما كان الجنون مرضا معديا كالأمراض الأخرى الكثيرة التى تصيبنا ولا نجد لها أسبابا».

عندما كنت أفكر فى هذا كنت أتخلى عن النظر عبر النافذة لفترة من الزمن.

أولئك المجانين كانوا صامتين، كنت أنا وشقيقاى نثير ضجة أكثر منهم، فلم نكن نتوقف عن ضرب بعضنا البعض إلى حد الموت.

كنت أسأل الصوت:

– أين الحد؟.

لم يكن الصوت يعرف الإجابة على اسئتى، فكان على أن أتوصل إلى تفسير الأشياء فى حدود إمكانياتى.

كان الصوت يتفق مع الأطباء دائما، كان فى الجانب الآخر حيث يوجد السر الخفى، أحيانا ما يقول:

– اكتبى ذلك الذى لم يكتبه أحد من قبل، أعيدى السيدة البيضاء إلى مكانها فى المعاناة.

حينها كان يقول:

– ابدئى من هناك من حيث كنت تبحثين عن أمك.

فى البداية، كنت أعاند، كانت كريستينا ابنة خالتى قد غادرت مكانها فى الموسم، لم تعد تسمع حكاياتى، كانت تتحدث عن خطيبها، ولم تكن تفكر سوى

fb/mashro3pdf

فى الزواج، وتحولت حياتها إلى انشغال دائم بالأشياء التى يجب إعدادها لحفل زواجها المعلن.

كانت ابنة خالتى كريستينا تبكى أحيانا، لكنى كنت أفسر ذلك حينها على أن دموعها فرحا بزواجها.

لم أعد أطيق البقاء فى مرسمها. حيث كانت هناك طاولة ضخمة من الخشب المائل التى لم تكن تصلح لممارسة أحلامى وان اكتب عليها قصصى. كنت اعتدت على حكايتها بصوت عال، وان ابنة خالتى كريستينا كانت تسمعها منى، أو ربما كان شبحها، أو الجدران وأشباح أمى، المختبئة خلفها.

كان الصوت يدفعنى إلى مرسم ابنة خالتى لأقص حكاياتى على الحوائط والأحلام، حينها كنت أخرج من البيت، وأعبر الحديقة، بعدها أعبر حديقة بيت جدى، أصعد السلالم الحلزونية بهدوء حتى لا تئن الأخشاب، أصل إلى الأسطح البيضاء، إلى حيث مرسم ابنة خالتى كريستينا المهجور، أفتح الأبواب والنوافذ، أبعد الخوف وأتحدث مع الصوت، لأنه الوحيد الذى كان يجرؤ على سماع حكاياتى مرات ومرات.

لم أكن تعلمت إحكامها بعد، كنت فقط أعرف الأبجدية، كان يبدو أن الصوت متوازن فى أعالى برج أمى، كان كما لو ينبعث من الحوائط البيضاء، وليس من رأسى المرتعب، الذى كانت تحاول إسكاته.

فى ذلك المساء هتف بى الصوت من المكان الذى كانت أمى محبوسة فيه، فتحت فى ذلك المساء الأبواب والنوافذ، طلبت من الصوت أن كان عليه أن يصمت، لكن الصوت أصابه الجنون، كان يطلق صرخات استغاثة صامتة، ينشج ويصرخ كما لو كانت الأشباح تطارده، كان الصوت يبعث على الخوف، كان يطاردنى، ويخنقنى، يدفعنى . فتحت النافذة الأخيرة، النافذة الكبيرة، نافذة الغرفة السرية، حينها سقطت، انزلقت ورأيت الموت يسقط فى الفراغ من جديد، تم رفع الأم بينما

fb/mashro3pdf

الابنة ترتطم بالأرض . أنا لم أكن أرغب فى السقوط، لكنهم كانوا يدفعوننى إلى أسفل. سقط الصوت وبقيت أنا فى صمت الموتى.

جن الصوت، الصوت الذى دائما كان عقلانيا، يبدو انه لم يكن متفقا معى، يصرخ «تعالى» وبعدها يقول «اذهبى» ثم يقول «اقفزى . فيما كنت أنا أقفز ملتفة فى تداخلات أوامره.

اخترت طريقا غير صحيح، خرجت إلى النافذة وسقطت فى الفراغ، على حشائش حديقة بيت أمى، كان يمكننى أن أموت، ومن يعرف ربما أكون قد مت مؤقتا.

أصبت بإغماءة.

اتفق على هذا الأطباء والأسرة.

– ولدت من جديد.

كانوا يقولونها بسعادة وغير مصدقين سقوطى من الطابق الثالث.

كم عدد المرات التى عدت فيها إلى الحياة منذ ذلك الحدث. من حينها يمكننى أن أكون قد مت مائة مرة.

أشرفت على الموت منذ لحظة قفزى من النافذة، مت فى المصحة مؤقتا حين نقلونى مصابة برضوض مخية حادة، إضافة إلى إصابات أخرى أقل أهمية، بكيت من الخوف، وعندما لم يعد هناك أمل سوى انتظار الموت، يقولون إننى استعدت وعيى.

الصوت ، مرة خرى، أخذ على عاتقه مسألة إيقاظى:

– تبولت على مابسك.

أزعجنى هذا، هذا كان أول شئ يزعجنى.

كانوا يسألون، وأنا كنت أسأل نفسى. هل من المحتمل أن أكون حاملة لمصير أمى. مصير من مصائرها الكثيرة، لكن أيها؟

كنت أريد أن أعرف إن كان هذا ميراثا شريرا ورثته عن أمى.

fb/mashro3pdf

يقولون:

- إنه الصرع.

اسم غريب، اسم مهم لمرض فارغ، مرض الصرع هدأ من روع أبى الذى فهم معنى شخصيا من تشخيص الأطباء.

- مراهقة ذات أحاسيس شاذة وجامحة.

لم يكن الأطباء يعرفون كيفية علاجى، مع ذلك ، عندما كنت اسقط كنت أشع بالسعادة بالفعل، كنت سعيدة عندما كان الصوت يدفعنى واسقط فى فراغ أمى.

حار الخبراء فى أزمة سعادتى . لهذا تعلقوا بكلمة تنطبق على حالتى، كلمة منحوتة، يمكنها أن تنطبق على أوضاع مختلفة، مرض شعراء وقديسين، أمر خاص بالمجانين.

- أصابنى مرض ظريف.

كان يقول ذلك كما لو كان مرضا عرضيا.

- إنه مرض الفنانين والعباقرة.

بهذه الطريقة كان أبى يشرح التشويش الذى أصاب عقلى، فهو فى النهاية أبى، وكل العقول كانت مشوشة. والحياة ليست سوى محاولة تنظيم العقل.

كان أبى يقول:

- إنه مرض غريب، مرضاه من المشاهير، يسمونه أيضا مرض ديستوفيسكى لأنه أصيب به ذلك الكاتب.

كان يقول أبى موضحا:

- كان هناك مرضى مشاهير طوال هذا القرن، منهم مثلا بيتهوفن والإسكندر الأكبر ونابليون والقديسة سانتا تيريزا وبايرون وفلوبير أيضا.

إنه شعاع يضئ فجأة جميع الأركان المظلمة فى النفسية البشرية.

لم يكن بالنسبة لأبى يعنى شيئا أن المرض جاء من الداخل بقدر ما هو من الخارج.

fb/mashro3pdf

فى البداية كنت أشك فى كل ما كان يقوله أبى تقريبا. لذلك كنت ألجأ إلى القاموس وأبحث عن اسم مرضى الداخلى الذى أصابنى من الخارج، الصرع، مرض عصبى مزمن من أعراضه أزمات فجائية تعطل عمل العقل وتؤدى إلى فقدان الوعى، يأتى عادة مصحوبا بحالات هياج.

كان أبى يرى أن الأمر أبسط من كل هذا، وان ابنته لا تعرف كيف تكون سعيدة، وهو لم يكن معدا لتعليمها الحياة الحلوة والحلوى.

أين كان يقف الصوت من كل هذا؟. فى البداية عندما كنت اسمعه يأتى، كنت أجرى باتجاه أول مرآة لأراقب نفسى وأراقبه، كنت اشعر بالخوف من أن يكون ذلك ظاهرا أمام من يرانى فى تلك الحالات، كنت أخاف من الحديث بمفردى كالمجنونة، لكن ما كان يحدث لى هو نوع من العنف الذاتى، كما لو كان إحساسا بالدوار والغياب عن الوعى، كنت أشعر بحاجة إلى الظلام والهدوء، كنت أصل إلى هذا بتمددى فى السرير وأتخيل نفسى فى حلم مستحيل.

عندما كان ينادينى أحد فى تلك اللحظات الدقيقة كنت اكتفى بالرد:

- أنا نائمة.

سواء كان ذلك فى الليل أو فى وضح النهار كانت كلماتى مسموعة. كانوا يتقبلونها كما لو كانت شيئا منطقيا وانه يمكن لأى شخص أن ينام ويتحدث فى الوقت نفسه.

بعدها توقفوا عن مناداتى أو طلب حضورى. عندما كنت أغلق على نفسى الحجرة لساعات طويلة، بل أيام فى بعض الأحيان، اعتقد انهم كانوا يعتقدون أننى كنت فى حالة من التحول مما يصبح معها من الخطر إيقاظى.

كنت أعانى من الصداع ، حينها كنت أشكو أو اعتقد أننى كنت أصرخ أيضا، فكانوا يطلبون الأطباء، الذين كانوا يؤكدون أن هناك تحسنا فى الحالة يمكن ان يأتى على مدار سنوات، أى عندما اكبر، كما كانوا يقولون، كانوا يعطوننى عقاقير تصيبنى بالنوم والهمود، كانوا يمنعوننى من أشياء غير مهمة، كالسفر إلى

fb/mashro3pdf

الخارج، أو الحصول على رخصة قيادة سيارة، كانوا يقولون حينها، سنرى ما يحدث فيما بعد.

المنع الكبير جاء من الناحية الأخرى، من ناحية الأدب، حيث أكد طبيب قوى وأكثر حنكة من الآخرين:

– فى حالات معينة فان كتبا وأفلاما معينة تصيب بعض الشباب بأعراض تدفعهم إلى القيام بأفعال تشبه تلك التى تقرأونها فى الكتب.

القراءة يمكن أن تؤخر شفائى.

حقيقة أننى كنت مصابة بهوس الكتب والقراءة . شئ يشبه الهوس غير القابل للإصلاح. كنت أطلب كتبا فى كل ساعات النهار، وفى أى الأحوال، كتب جديدة، كتب مستعارة، وقديمة لا تصلح لشئ. وكنت استغل الفرص لأطلب أن يهدونى كتبا.

كان أبى يعتقد انه ربما أخطأ بنقله إلىّ عدوى حبه للقراءة، وانه ربما تخطى حدوده فى أن يجعل من مكتبته مركز الاهتمام الرئيسى.

سرعان ما تعلمت الحركة ما بين المكتبات، وبشكل خاص تلك التى تقع فيما حول جامعة برشلونة، كنت أحصل على كتابين أو ثلاثة كتب من الطبعات الأولى بسعر كتاب واحد وفى مكتبة عادية، وعندما يحالفنى الحظ أحصل على طبعة مكتملة. بهذه الطريقة حصلت على أشياء نادرة مثل طبعة عام ١٩٣٦ من كتاب رفائيل ألبيرتى، فيما أهدانى السيد يونس صاحب المكتبة نسخة من كتاب «قصائد فى نيويورك» [١] مطبوعة فى المكسيك.

أحب ما فى الكتب بالنسبة لى الرائحة واللون، والحجم والضخامة، طريقة التغليف، نوع الورق المستخدم فى الطباعة، ربما كان بإمكان مكتبة أمريكية عامة أن تحل مشكلة تعلقى بالكتب، هذا النوع من المكتبات لم يكن موجودا فى برشلونة، وبصفة أقل فى مناطق سكنية مثل «بيدر ألبس»، حينها وضعت لنفسى

(١) من أبرز مؤلفات الشاعر الإسبانى فيدريكو جارثيا لوركا.

fb/mashro3pdf

خطة لبناء مكتبتى الخاصة، مكتبة ضخمة كانت تكبر على مدار السنوات بشكل سريع. تشبه المكتبات الكبرى لكن بلا حدود كتلك التى يضعها حراس المكتبات.

هوايتى فى إحاطة نفسى بالكتب لم تكن تعجب الأطباء ولا أفراد العائلة، وسرعان ما أطلقوا على هذه الهواية اسم الاختلال العصبى.

هل الاختلال العصبى نوع من الأمراض الناتجة عن العصاب؟

كان أبى يفضل الكلمة الأولى على الثانية، فالاختلال العصبى شئ أكثر قابلية، أكثر قربا إلى النفس والتحكم فيها.

على العكس تماما مما فهمته أنا من أنها كلمة تشوه الفارق ما بين بيتى وبيت المجانين المقابل.

الاختلال العصبى مرض لم يكن معروفا فى تلك الأزمنة، على الرغم من انه بمرور السنوات، فإن انتشار الأمراض العصبية جعلها تبدو طبيعية، حتى تحول الاختلال العصبى إلى نوع من الكلمات القريبة من الأسرة لأنه كان مرتبطا بهوسى بالكتب، فقد كنت أبدو كمراهقة عصبية.

الاختلال العصبى كانت صفة معروفة فى الحى كله، وكان يمكن العثور على حالة بين أفراد كل أسرة فى الحى كله، وبشكل خاص بين النساء، نساء كثيرات كن مختلات عصبيا، مثلا زوجة الشاعر فويس كانت مصابة بهذا المرض لأسباب مجهولة، وأيضا كانت هذه الصفة ملتصقة بخالة لى كانت الشقيقة الكبرى لأمى.

كنت أفكر فيها من وقت لآخر، وكنت اعتقد أن كلمة الاختلال العصبى افضل من تلك الكلمة الهشة الخالية من المعنى الذى يعنى الجنون.

لم تكن خالتى «البيرة» صديقة للكتب، ومع ذلك كانوا يطلقون عليها صفة الاختلال العصبى.

ما الذى يربطنى أنا بخالتى البيرة؟

كان يهمس الصوت إلى:

fb/mashro3pdf

– أنت تشبهين خالتك البيرة، الخالة المختلة عصبيا، تملكين شخصية شبيهة بشخصيتها. تلك العصبية الدائمة.

لكن جبال الكتب التى كانت فى غرفتى كانت تحمينى من جنون خالتى البيرة.

فى المرات القليلة التى كنت التقى فيها بخالتى البيرة كنت أراقبها بدقة. كان يفاجئنى تحركاتها وحزنها، وجهها الدائم الامتعاض، كما لو كانت الحياة تصيبها بحالة دائمة من الإحباط، قليلة كلام، كما لو كانت تشعر بالخجل من حالتها، كان من الصعب على أن أتقبل أنها كانت شقيقة أمى، وأكثر من ذلك أن أتقبل ما يقال عن جمالها القديم . كانت من عاداتها طرقعة لسانها بينما تحرك رأسها من اتجاه إلى آخر. كانت خالتى البيرة عبارة عن شكوى دائمة.

بعدها لم اعد أراها، وحتى لا اسمع طرقعات لسانها كنت أغلف جدران حجرتى بالكتب، كانت الكتب توجد فى كل الأركان، على المقاعد، أعمدة ضخمة من الكتب تصعد حتى السقف.

عندما أفاق جسدى من الإغماء فى النافذة وسقوطى القاتل تقريبا فى حديقة بيت جدى، نصح الأطباء بإبعادى تماما عن كتبى .

قالوا:

– لابد من تغيير الوضع ، هناك كتب أكثر من اللازم.

فكرت فى خالتى البيرة وفى رعايتى بلا كتب مثلها تماما.

بكيت، تعقلت، إنها معارضة فقط.

اعترضت لان الكتب لم تكن ملكى:

. – الكتب تعتبر أشياء ديكورية للتجميل أيضا.

تعهدت بعدم لمسها، وهو ما كان يعنى تعهدا منى بعدم قراءتها لو انهم مقابل ذلك تركوها فى مكانها فى غرفتى.

قبلوا التعهد.

– توقظ الكتب أشباحا نائمة فى بعض العقول الحساسة.

fb/mashro3pdf

هذا ما كانوا يجعلون أبى يقوله، فكان يكرره لى دون أن يبدو مقتنعا تماما.

كان أبى يعزى نفسه بأنه ربما أجد لى عملا فى المستقبل له علاقة بالمكتبات وبذلك يمكن حل كل تلك المشاكل، لأنه بذلك يمكننى أن أوازن ما بين عملى وعلاقتى المرضية بالكتب.

بالنسبة لى، كنت اكره كلمة مكتبة، تعيد إلى ذهنى الرقباء ومانعى الكتب، حينها بدلا من التفكير فى المستقبل كان يزعجنى ألا أبدو شبيهة بخالتى البيرة.

أول تلك الأشياء:

- أننى قتلت أمى.

هذا ما كان يقوله لى الصوت، وخالتى البيرة لم تكن قادرة على قتل أحد.

هذا كان يبعدنى عنها، هذا وشئ آخر:

- ما الأفضل، أن أكون قاتلة أم مجنونة؟

كان الصوت يتساءل.

الطبيعى هو أن أبحث عن إجابة فى الكتب، وهو ما كان مستحيلا أن ألمسها حتى لا أفقدها.

كان على أن أتعاون، أن أبذل كل جهدى لأشفى، أن أنام، وأكل، وبالطبع أن أصاب بالسأم . وهذا هو ما يسمونه السعادة.

لا أحد ، ولا حتى الصوت، كان يبذل جهدا ليقول لى الوقت التقريبى الذى يحتاجه المريض للشفاء من الاختلال العصبى. إنه مرض العجائز.

كان أبى يقول عنى:

- إنها ابنة ذكية لكنها تبدو شاذة بعض الشئ. أو بمعنى أدق أنها ابنة ذات ذكاء خارق، ولهذا السبب تحولت إلى مراهقة غريبة الأطوار وشاذة.

اعتقد انه كان فى السر يشعر بالزهو بأن له ابنة محبة للكتب، والكتب كانت تدخل غرفتى كما لو كانت علبا من الحلوى الممنوع لمسها، كانت تفيد، من الناحية النظرية ، لتصنع جبالا، جبال لمستقبل التهام الكتب.

fb/mashro3pdf

يرفض الآباء الاعتراف بمحاولات انتحار الأبناء. يحاولون تصوير تلك المحاولات على أنها مجرد حوادث عارضة، وبعدها ينسون تلك الألعاب العارضة التى يحاول الأبناء تذكيرهم بها، لكن الأبناء يحاولون أيضا نسيانها، لهذا يكتبون، يكتبون ليشغلوا أنفسهم عن الانتحار النهائى.

القراءة كانت ممنوعة، لكن لم يقل أحد إن الكتابة ممنوعة أيضا، لا أحد يتحدث عمّا لا يعرف، ولا أحد يعرف بعد أننى اكتب بشكل أو آخر.

- الكتابة عدم اتزان تحتاج إلى الخيال الكائن فى الكلمات.

شئ يعرفه الجميع، عدا الأطباء الذين يجهلون الأثر العلاجى للكتابة.

وأنا بدأت الكتابة لأشغل وقت القراءة الفارغ، بدأت اكتب حتى أستطيع أن اقرأ خلال ساعات ما كان ممنوعا قراءته، لهذا فإن أسوأ ما فى صفحاتى، أنها لا تتحدث عن حياتى ولا عن عدم اتساقى الدائم مع العالم. نصوصى تشير دائما إلى الكتب. أكتب ملخصات لكتب اصطاد عناوينها من الكتب المتراكمة فى غرفتى، كنت اكتب عن الكتب حتى أتحايل على منع قراءة الكتب.

- الكتب العشوائية يمكن أن تدفع إلى الانتحار.

كان يقول الصوت عندما يريد أن يسخر من طريقتى فى قضاء أوقات فراغى بكتابة ملخصات الكتب.

كنت أتوق فى داخلى إلى كتابة رواية الجثة، كنت أتخيل رواية شخصياتها لا تعيش بسبب علاقاتها بالآخرين، ولا حتى بسبب علاقتها بنفسها، كنت أتخيل شخصية إيفان كرامازوف [1] وحيدا وبعيدا عن رفاقه، أود أن أكون آخر روائية، أن أرى كيف أن الأدب يموت ببطء أمام عينى، أن ادفن الأدب فى قبر أمى.

كان المشروع باعثا على الاستسلام، ومتناقضا بشكل كبير ، أنا الشخص الأكثر حاجة إلى الكتب ، والشخص الذى أصابه المرض ويموت بسبب الكتب،

(١) بطل رواية «الأخوة كرامازوف» للكاتب الروسى ديستويفسكى.

fb/mashro3pdf

كنت أريد أن اكتب لسبب وحيد وهو قتل الأدب. بكتاباتى غير المقروءة أتمكن من التقليل من شأنه، إضعافه، وأن أراه يحتضر بشكل نهائى.

كان الصوت يحاول أن يجادلنى:

– الفنان الشكاك جزء من الفن، الفنان الحقيقى يحصل على مادته من نفسه.

لم أكن ارغب فى أن أكون فنانة، كلمة فنان كلمة محنطة.

أعتقد أن «الجنايني المنتحر اكثر كرامة من شاعر على قيد الحياة».

جنايني حديقتنا استطاع أن ينتحر بحبل مربوط إلى ماسورة خزان المياه، فنان محنط كان يمكنه أن يتخيل الحكاية وبدلا من المكان المناسب يكتب انه شاهده معلقا إلى فرع شجرة الليمون فى حديقة طفولته، لهذا السبب لم اكن أريد أن أكون فنانة.

يلح الصوت:

– سيتهمك النظام بالتناقض، وعدم الاحتراس، وكتابة كل مقطع كما لو انك لم تكتبى شيئا آخر.

لكن الحرص الذى كنت أبحث عنه كان عبارة شئ مختلف عن مجرد تضامن الكلمات الممضوغة، رص الكلمات واحدة إلى جوار الأخرى للوصول إلى التحرير الكامل للقوة الخفية للكلمات .

fb/mashro3pdf

- ٤ -

خلال فترة النقاهة التى أمضيتها من ذلك المرض الذى لا اسم له، كنت أعيش منفردة فى غـرفتى بين كتبى الممنـــوعة وكتاباتى المجهولة. كانت أيام الصيف طويلة جدا، فى نهـار الصيف هنـاك ساعات وسـاعات مطلوب شغلها بأى شكل من الأشكال، وبشكل خاص بالكتب، لكن لم يكن هناك سوى القليل الذى يمكن أن أفعله بالكتب غير قراءتها، وحتى هذا الشئ البدائى الذى يمكن أن يمارسه أى مريض كـان ممنوعـا عنى بأمر طبى.

كان أبى يحدثنى عن جمال مهنة أمين المكتبة وتلك الدراسات التى كان يرى أننى اكثر اسـتعدادا لها من أى فتـاة أخرى من تلك الفتيات اللاتى نعرفهن، وعندما كنت أفرض على نفسى فترة انعزالية مثل تلك كنت أقول له:

- أمناء المكتبات يعشقون الكتب كما أعشق أنا مشاهدة الألعاب الرياضية. يكفى مشاهدة تعبيرات وجهى فى ملعب رياضى لمعرفة التعبيرات التى يمكن أن تنعكس على وجوه أمناء المكتبات وهم غارقون فى مكتباتهم الكريهة.

مكتبـة أبى لم تكن تتـفوق على مكتبـتى فى عدد الكتب فقط، بل كانت مكتبة أرستقراطية المظهر، كان أبى يشعر بالفخر تجاهها، خاصة أنها تضم عددا كبيرا من الكتب المكتوبة باللغة القطالونية، أما مكتبتى كانت فى معظمها كتبا أسبانية أو من أمريكا اللاتينية، وهذا الاختلاف كان كافيا للتفرقة بين مكتبة أبى ومكتبتى. وهـذه التـفصيلات مـن المفترض أنهـا تعكس الاختلاف بين الأب والابنة، وكان هذا سـببـا آخـر يضـاف إلى أسـبـاب العلاقـة المتوترة بيننا . أنا اعتنقت اللغة

fb/mashro3pdf

المستحيلة [1] التى ورثتها من خلال كتب أمى القليلة، فغرقت فى لغة الفراغ، فى فراغ بلا لغة، أو بمعنى اصح فى لغة لا أم لها، لغة كانت ولم تكن سوى لغة الخادمات اللاتى كن يلعبن دور أمى فى طفولتى.

كان أبى يواصل وفاءه للغة كتبه، وهذا كان يسمح لنا أن نظل متباعدين حتى لا يكتم أحدنا أنفاس الآخر من خلال المكتبة المشتركة، خاصة أنه لم تكن هناك الأم التى يمكنها أن تلعب دور الحكم بين ذلك الانقسام اللغوى. كل واحد منا كانت له كتبه التى تبين حدوده، وكانت تسمح لنا أيضا أن نتنافس فيما بيننا لنعرف من الذى يستطيع أن يحصل على اكبر عدد من الكتب باللغة القطالونية أو اللغة الاسبانية ليضمها إلى مكتبته. كان أبى الفائز دائما خلال هذه المنافسة. إلى أن قرر ذات يوم أن يمنحنى الفرصة للفوز، أن يكلفنى بعمل ويقدم لى كتبا كأجر على إنجاز هذا العمل.

الدخول إلى غرفتى مهمة مستحيلة، الكتب فى كل مكان، أكوام من الكتب، الشئ نفسه كان يحدث فى غرفة الألعاب القديمة التى حولتها إلى غرفة إضافية لكتبى، كان أبى يرغب فى تنظيم هذا اللانظام، فقرر أن يكلفنى بعمل.

الفتاة المطيعة فقط التى تقبل عملا مثل هذا، وأنا كنت الفتاة التعسة لأب تعس، وهذا الوطن دفعنى إلى قبول تلك المهمة التى لا تقبلها أية فتاة مقابل أى مال، أو حتى مقابل كمية كبيرة من الكتب.

قبلت العمل.

كان العمل هو الحصول على سجل كتب، وتنظيم أرشيف بأسماء المؤلفين، والمواد التى يضمها كل كتاب من مكتبة أبى الضخمة، بسرعة تسجيل اثنى عشر

---

(١) تقصد اللغة الإسبانية أو اللغة القشتالية التى يتحدثها معظم سكان إسبانيا وأمريكا اللاتينية، وتعتبر هذه مشكلة لأبناء قطالونيا الذين يتخذون من اللغة القطالونية لغة رسمية لهم، وهذا يؤدى إلى مواجهات بين الداعين إلى الانفصال عن اسبانيا حتى من خلال اللغة، وبين المتمسكين بوحدة إسبانيا كوطن من خلال توحيد اللغة.

fb/mashro3pdf

كتابا فى الساعة، ربما بذلك أستطيع خلال ذلك الصيف الحار الطويل إنهاء مهمة تسجيل تسعة آلاف كتاب التى تضمها مكتبة أبى.

كان فى تفكير أبى عدة أهداف، فى ذلك اليوم الذى قرر فيه تكليفى بأن أكون أمينة مكتبته الخاصة.

افترض أولا أننى بهذه الطريقة سوف أتعلم، وبعد ذلك اقرر تنظيم مكتبتى الخاصة، لكن التجربة أثبتت أن النتيجة لم تأت بما كان مأمولا منها، الكتب تتحدث وتسافر، وأنا احب أن تتحرك الكتب من حولى، وحتى يمكن تحقيق ذلك لابد من الهروب من الصرامة العبثية التى لا تطبق إلا فى زنازين السجون، الكتب تماما كالأفكار، لا يمكن أن تظل ساكنة فى مقابرها، ولا يجب أن نعتقد أنها ميتة.

اعتقد أبى أيضا أن عملى كأمينة مكتبة مؤقتة يمكنه أن يشفينى من الفوضى التى تصيب جهازى العصبى، لدى أبى أفكار جميلة أكثر من اللازم عن مهام ونظام الجهاز العصبى لأمناء المكتبات. كنت اجهل انه على أن احتمى منهم، وبشكل خاص من بعض التوجهات الغريبة التى تصيب بعضهم، والتى تدفعهم إلى ارتكاب أعمال عنف. هناك أمناء مكتبات مجرمون، لكن هؤلاء يظهرون فى الروايات فقط، الأسوأ منهم أولئك الآخرون، الذين يبدون كممارسى عمليات التعذيب النفسى الذين يقتلون العقل.

لا تزال لدى أبى فكرة رومانتيكية عن أمناء المكتبات. وخلال ذلك الصيف الغامض اعتنقت أنا تلك الفكرة أيضا.

كانت مهمة تسجيل الكتب مملة جدا، وأنا كنت أعشق الملل، الملل افضل طريقة لممارسة القراءة، كنت أستغل ذلك العذر، رغم أننى كنت ممنوعة من القراءة، كنت استغل تسجيل الكتب لإلقاء نظرة على محتويات صفحاتها، القراءة عبر الزوايا وبسرعة البرق كانت إحدى مواهبى السرية. موهبة خفية، أو ممارسة شيطانية، كل حسب رؤيته. الوجه الآخر من حياتى كقارئة غريبة. فى بعض الأحيان أكون قادرة على قراءة كتاب خلال دقائق قليلة. وأحيانا لا أكون فى حاجة إلى قراءة تلك

fb/mashro3pdf

الكتب، يكفينى أن ألمس الكتب أو الاقتراب منها لأفهمها وأستمتع بها، هناك علاقة سرية تخترق عقلى، وربما تكون مهمة الصوت حينها تأكيد محتواها، بهذه الطريقة راجعت الكتب التى تضمها مكتبة أبى، مكتبته تغص بكتب المذكرات الخاصة، واشهر ترجمات «ساغارا»، والطبعات الأولى لأعمال اغلب الشعراء القطالونيين خلال هذا القرن، أهمها أول كتاب للشاعر «كارليس ريبا» [1] ، وقصيدة «زهرة المطر» للشاعر «سالفات – باباسيت».

أنا أيضا كانت لدى فى ذلك الوقت فكرة رومانتيكية عن الكاتب والأدب.

نحن القراء العنيدين نعانى من عقدة أمناء المكتبات، أو نعانى من الإحباط الناتج عن عدم قدرتنا على أن نكون أمناء للمكتبة المتكاملة، الكاتب المتوسط القيمة ليس إلا نتيجة لمزيج مكون من أمين المكتبة السعيد ومبدع الكلمة.

اعتاد أبى التجسس على أثناء قيامى بعمل أمينة المكتبة المؤقتة، كان يشعر بالارتياح لمستقبلى، وكان يتصور انه بعد هذا العمل الصيفى يكفى القليل من الجهد من جانبه لاقناعى للبدء فى دراسة علم المكتبات.

كنت أجلس على الطاولة الكبيرة الموجودة فى الشرفة المطلة على الحديقة، والمواجهة لحمام السباحة، كنت أضع ركاما من الكتب على يسارى، وأوراق التسجيل وسجل الكتب الضخم أمامى، بينما تنطلق الموسيقى من جهاز الموسيقى لأشعر وكأننى أسبح فى الموسيقى، تلك الموسيقى التى اكتشفتها فى تلك الفترة العابرة.

لم اكن أحن إلى كتاباتى المجهولة، هذه الكتب التى كنت اطلع على محتوياتها أثناء تسجيلها كانت تعطينى إحساسا بأن كل شئ على وشك الانتهاء ، وأننى لم أخطئ طريقى فى فهم الفارق بين الكتابة أو اللاكتابة، وإذا لم أتمكن أنا من إنجاز الرواية الميتة فإن كاتبة أخرى ربما تملك الموهبة التى لا أملكها تستطيع الوصول إلى كتابة تلك الرواية.

---

(١) كارليس ريبا (١٨٩٣-١٩٥٩) شاعر إسبانى كان يكتب باللغة القطالونية.

fb/mashro3pdf

إضافة إلى تجسس أبى الذى كان محببا إلى نفسى، كان هناك تجسس آخر دخل حياتى خلال فترات عملى كأمينة مكتبة مؤقتة.

كان فى عائلتى بعض أبناء العمومة المثاليين، كان يكفى أن تقول إحدى العمات: «من الآن فصاعدا، سيكون هؤلاء أبنائى المثاليون»، حتى تسلم الأسرة بأن أبناء تلك العمة مثاليون بالفعل، ويجب أن يكونوا المثل لباقى أبناء العمومة فى الأسرة، ومنصب ملكة المثالية تم التنازل عنه للشقيقة الكبرى لأمى، الخالة «ايسابيل» ، وابنتها «ايسابليتا»، التى كانت أنهت دراستها فى علم المكتبات، أما ابنها ريكاردو فقد كان طالبا متفوقا فى الهندسة الإلكترونية.

ايسابليتا ابنة خالتى كانت ذات شعر أحمر، ونمش، مبتسمة وخجولة، لم تكن تحب القراءة، ومع ذلك كانوا يقدمونها على أنها الفتاة الفائقة الذكاء لأنها اختارت دراسة علم المكتبات، وفى رأى الخالة ايسابيل، فان تلك الدراسة لا يصلح لها إلا من يتمتعون بذكاء خارق.

كان أبى ينظم لى مواعيد مفاجئة مع ابنة خالتى ايسابليتا، التى كانت تكبرنى كثيرا، وتختلف عنى فى كل شئ، بل وتختلف أيضا عن ابنة خالتى كريستينا، تماما كاختلاف الرواية عن كتاب قواعد اللغة.

كانت ايسابليتا تجلس على طرف الطاولة إلى جوار ابنة خالتى الانتحارية، وتكتفى بإبداء الملاحظات على عملى عن بعد ، كانت ايسابليتا تعمل فى الصباح أما بعد الظهيرة كانت تتفرغ لعمل الأشياء التى تحبها، إضافة إلى جلوسها إلى جوارى كتمثال، أو إرشادى بشكل مهنى دقيق .

كنت احسدها على شئ واحد، أنها كانت سعيدة الحظ لأنها تعرفت على أمى، بل كانت ضيفة الشرف فى حفل زواج أبى وأمى، كانت تسير خلف أمى حاملة ذيل الفستان وباقة زهور، تدل على ذلك الصور بالأبيض والأسود التى ظهرت فيها، لكن الطفلة التى تظهر فى تلك الصور لا تكاد تشبه فى شئ أمينة المكتبة تلك التى تقتلنى بإرشاداتها خلال ساعات وساعات كنت أحاول خلالها أن أرضى

fb/mashro3pdf

أبى، من خلال رعاية كتبه، ورعاية نفسى من أمراضى التى أصابتنى بسبب هذه الكتب.

كانت ايسابليتا تقول فى شئ من التعالى:

– العمل كأمينة مكتبة أمر مهم، لأن كتابا واحدا يمكنه أن يشغلك لساعات، ولو كان الكتاب مخطوطا فإنه يشغلك يوما بكامله.

كانت تقول أيضا إن أمى كانت تتحدث بطريقة غريبة، متميزة كانت تتكلم بسرعة، وكلماتها غامضة، لا أستطيع أن أنسى أنها كانت تؤكد على ذلك.

كنت أكرهها لأنها كانت تذكرنى بأمى دائما، وأيضا أكرهها بسبب انتقادها لطريقة أمى الغريبة فى الكلام.

سرعتى فى تسجيل الكتب كانت تصيبها بالإحباط ، كانت ايسابليتا تحاول السيطرة على معارفها فى عالم المكتبات فى مواجهة ابنة خالتها المسكينة، العصبية بعض الشئ ، كأمها التى كانت تتذكرها فى حديثها السريع ، لم تكن تخجل من أن تقول لى أن عملى سيىء التنفيذ ، وأننى لا أتبع القواعد العلمية فى تسجيل الكتب:

– لو كنت تعملين فى مكتبتى لألقوا بك إلى الشارع.

كانت تقول هذا دون أن ترفع رأسها عن الطاولة، كانت ايسابليتا موسوسة بالتراب، والدقة العلمية، لأنها كانت تعتبرهما من أساسيات عمل أمين المكتبة، كانت تعانى من حالة عصبية تدفعها إلى استخدام ظاهر يدها لمسح أى غبار يمكن تخيله، سواء كان ذلك على الكتب أو على الطاولة، أو على أوراق التسجيل، وعندما تتحدث تبدو كما لو كانت تستعد لضرب الشخص الذى أمامها.

لم أستطع فهم سبب ذلك الغضب الذى يصيبها، ربما كان هذا بسبب عملها كأمينة مكتبة، كانت تجلس شاردة ، لم يكن لها أصدقاء ولا حتى يظهر أن لها عريسا فى الأفق ، رغم أنها لم تكن قبيحة إلا أن ملامحها كانت تدل على أنها

fb/mashro3pdf

تنتمى إلى أنصاف الموهوبين ، من فئة أمناء المكتبات الذى اتخذوا من الكتب عدوا لدودا .

ابنة خالتى ايسابليتا كانت لديها صعوبة فى الحديث بلغتى الاسبانية .

كانت تقول :

– كل أمناء المكتبات يتحدثون اللغة القطالونية .

لم تكن لدى أية مشكلة فى مبادلتها الحديث بلغتها ، تلك اللغة التى كانت تعتبر لغتى بشكل جزئى .

ربما كان هذا هو السبب الذى دفعنى إلى دراسة علم المكتبات .

– عن أى شىء تتحدث أمينات المكتبة فى مكتبتك ؟

أجابت :

– أولا وقبل كل شىء المكتبة وعملنا فيها وليس فى أى مكان آخر ، ولكى تكونى أمينة مكتبة بشكل جيد لابد من تحديد المهام ، وعلينا جميعا أن نقوم بمهامنا بشكل مثالى . إنها مهمة جادة .

شعرت أن صوتها متكلف ، وأن مجموعة عملها فى المكتبة مسخت جزءا من عقها الأرشيفى .

لكن ايسابليتا كانت تشعر بالفخر بدراستها لعلم المكتبات ، وعقلها أصابه شىء من جهل القراء الذين يحيطون بها فى عملها بالمكتبة ، العجيب أنها ظلت تعتبر عملها الأفضل والأكثر ثقافة ، والأصعب من بين كل المهن .

صوتها كان يمنعنى من الرد عليها بكلمات لطيفة أو سيئة التى كانت تستحقها ، لم أكن قادرة على إقناعها بالعدول عن مواصلة الحديث عن عملها فى المكتبة الجامعية ، التى تشبه صندوقا للأشياء الضائعة ، لكن ايسابليتا كانت تشعر أنها متماسكة ومتعلقة بشكل غريب بقواعد العمل المكتبى العقيم ، كانت تواصل تنظيف الطاولة التى كنت أعمل عليها أثناء تسجيل الكتب .

كان الصوت يقول لى :

fb/mashro3pdf

– ايسابليتا خطرة . ابتعدى عنها وإلا فإنها سوف تحولك إلى شخصية ممرورة وعقيمة مثل أولئك الذين يتمسكون بحرفية القواعد المكتبية .

حينها ابتعدت عن الكتب وقلت لايسابليتا :

– العاطلون عن العمل يمكنهم فهم أشياء كثيرة لا يفهمها المشغولون بكل شيء .

ردت على بقولها :

– إنها كذبة كبرى .

عند تلك اللحظة انتهى حديثنا ، لأن ابنة خالتى كانت مقتنعة بأننى مريضة عصبيا ، وهذا ، هو السبب الذى يجعلنى أقول هذا عن عملها .

كنت واثقة من أنها كانت تحفظ الجمل الغريبة التى أقولها لتقصها بعد ذلك على أبى .

لكننى فى هذه المرة شعرت بالزهو من كلامى ، يا ترى من أى كتاب تعلمت هذا الكلام ؟ لم أكن مقتنعة أبدا بأنه يمكننى أن أقول كلاما مثل هذا من تلقاء نفسى ، أى قارىء لا يمكنه أن يصبح مفكرا أصيلا ، لأن أفكار الكتب التى يقرأها أو لا يقرأها تمنعه من ذلك .

ابنة خالتى ايسابليتا كانت تثق فى أمينات المكتبة ، ولكنها لم تكن تثق فىّ أو فى العاطلين مثلى ، لهذا قلت لها :

– هذه العبارة التى ترين أنها مجرد ترهات كتبها فيلسوف مهم جدا .

أجابت بوثوق الخبير :

– هذه العبارات يجب أن تكون دائما مرفقة باسم المؤلف وتفاصيل الكتاب الذى وجدت فيه . وإذا لم يكن كذلك فإنك ترتكبين غشا .

نصحنى الصوت :

– تخلصى من تلك الكتب ومكتبة أبيك إلى الأبد ، إذا لم تهربى الآن فإنهم سوف يدفعونك بعيدا عنها ، يعطونك الكتب الآن لتشفى من مرضك ثم

fb/mashro3pdf

يبعدونك عنها لتنتكسى من جديد ، فتصبحين مريضة رغم أنفك طوال حياتك .

مكتبة أبى واللغة المكتوبة بها الكتب التى تضمها تشكل جزءا من حياتى ومن مرضى الخفى ، وربما أتكلم الآن من خلال لغة أبى الفارغة أشعر أننى أتحمل مسئولية كل الساعات التى أضعتها فى تنظيم كتبه المحبطة .

وهكذا حدث فى صباح أحد الأيام ، فى نهايات الصيف ، خرجت من غرفتى أقول إننى ايسابليتا ، وإننى فى حاجة إلى تناول إفطار سريع لأن الوقت متأخر ، ولا أريد أن أصل متأخرة عن موعدى مع أول عمل لى ، كنت استيقظت فى سريرى وأنا أتحدث كما كانت تفعل خارقة الذكاء ايسابليتا ، مستخدمة اللغة نفسها التى تستخدمها كتب أبى ، مع هذا فإن هذه التفصيلة لم تكن سوى نتيجة لعملية التحول التى طرأت على عقلى ، شقيقاتى اللاتى لم يسعدهن الحظ للحديث مع أمى ، عندما بلغن سن المراهقة قررن الحديث بلغة خاصة بنا مع أنها لم تكن لنا ، ولم يكن هناك أفضل من الأسرة للبدء فى إجراء تجارب اللغة . المدهش حقا لم يكن استخدام لغة أمى أو لغة أبى مثلما كان تصميمى على الذهاب إلى المكتبة التى لم اذهب إليها من قبل ، وأن اخضع لساعات عمل لم يجبرنى أحد على أدائه، وكان خضوعى مطلقا ودون أدنى شكوى من مطالبهم التى يفرضونها على موظفة تعمل كأمينة مكتبة .

سمح لى أبى أن اخرج من البيت وأن اذهب إلى تلك المكتبة ، وربما فعل ذلك عندما تأكد من أننى خرجت إلى الشارع ، ربما اتصل بايسابليتا تليفونيا ليتأكد من مدى صحة هذه الفكرة التى طرأت على تفكيرى .

كنت افعل الأشياء التى يريدها أبى ، لكن ليس بالطريقة التى يريدها ، وهنا يكمن الخلاف الخطير بين أى بنت وبين أبيها .

كان الصوت يدفعنى لعمل أشياء تلفت النظر ، وأكون فخورة كما كانت ايسابليتا فخورة بمكتبتها الجامعية ، بالنسبة لى كنت افضل أن أبقى فى البيت،

fb/mashro3pdf

ومواصلة عملى الخاص على مائدة الحديقة المواجهة لحمام السباحة، والنوافذ الزجاجية مفتوحة لأن الوقت كان صيفا ، لكن الصوت فاجأنى بأنه يؤيد ايسابليتا، وكان يتحدث بطريقتها المتعجرفة ، وبطريقة الحديث المعروفة عن العاملين فى الكتب ، وفجأة أيضا أيد الصوت أبى الذى كان يرغب فى أن أدرس علم المكتبات لأرعى كتبه ، وبذلك أبتعد عن الفوضى المتواصلة التى تغرق فيها كتبى .

كان الصوت يملى على القواعد الأساسية لعلم المكتبات ، قاعدة خلف الأخرى :

– عليك بكراهية القارىء ، أن تكرهى الكتاب ، وأن تحبى عملك الدءوب فوق كل شىء ، أى صديق للكتاب يكون عدوا شخصيا لك ، إذا عاملت القارىء بشدة وصلت إلى قمة سعادتك فى العمل ، عاملى الكتاب بقسوة فتحصلين على أعلى درجات المهنة ، عليك باستخدام الكتاب فى الوصول إلى رئاسة هيئة المتاجرين فيه ، كل شىء مسموح مادام الهدف هو الوصول إلى الرئاسة أو حتى إدارة مجموعة من أمناء المكتبات . عليك باستخدام النميمة والتآمر والنفاق للوصول إلى أهدافك ، التى يجب أن يكون هدفها شىء واحد : أن تصبحى الموظفة العاجزة السجينة فى مساحة مغلقة تتمثل فى مكتبة عامة .

هذه القواعد المهنية وغيرها مشابهة لها تعنى وجودى فى الجانب الصحيح والمطلوب ، وإلا فإننى لن أكون على الكفاءة المطلوبة مع زميلات العمل الجديد فى مكتبة ايسابليتا الجامعية .

من الممكن أن يفعل الإنسان أشياء كثيرة فى الحياة ، ومنها أن أكون أمينة مكتبة لفترة محددة ، دخلت عملى فى المكتبة باستعداد تام أن أكون ظلا لابنة خالتى ، التى كانت تنتظر وصولى بعد أن أخبرها أبى بقرارى ، قدمتنى لزميلاتها، جلست بعد ذلك إلى جوارها على استعداد لتقليد كل إشارة من إشاراتها ، وكل كلمة من كلماتها ، وكل حركاتها فى المكتبة ، أتذكر أن النوافذ

fb/mashro3pdf

المطلة على شارع «باليس» كانت مفتوحة ، وكان المناخ حارا ورطبا ، ولزجا ، كان هناك عدد قليل من الطلاب فى صالة القراءة ، ربما لأن محاضرات العام الدراسي الجديد لم تكن قد بدأت بعد ، لم تعترض أى موظفة على وجودى فى صالة القراءة ، أما أنا فقد كنت على أتم استعداد لإطاعة الأوامر وتنفيذ أى عمل يطلب منى ، لا أعرف كيف استطاعت ابنة خالتى أن تقنع الزميلات أننى قررت أن أكون أمينة مكتبة مثلها . اعتقد أنها أخبرتهن بأن حياتى المرضية تمر بفترة انتكاسة جديدة ، وهذا هو الجانب الوحيد الذى يتفهمه العاملون فى المكتبات ، ولكن بشكل عابر فقط ، وأنا كنت أعى ذلك ، لكن حتى ذلك الوقت لم أكن أعرف أننى بالنسبة لهم مجرد جاسوسة ، أظهر بشكل عفوى لمراقبتهم ، لأكون فى يوم من الأيام قادرة على إفشاء أسرار ممارستهم الرديئة ، وبشكل خاص العاملات منهن على الأجهزة الإلكترونية ، لكن حتى تلك اللحظة لم أكن أعى ذلك ، كل ما أعرفه أنه علىّ أن أكون هناك ، إلى جوار المشتبه فى علاقتهم بعلم المعرفة ، لأتمكن فى يوم ما من كتابة هذا وإفشاء تلك الأسرار .

حافظت على عينى مفتوحتين ، وكنت أسجل كل ما تريانه ، وعندما أكون متعبة من المتابعة كنت أوجه عينى إلى جانب آخر ، إلى حيث توجد الكتب والحقائق المكتبية المليئة بحب المعرفة ، والقراءة وإقامة الصداقات ، إلى حيث يوجد قارىء الكتاب الحقيقى .

شيئا فشيئا بدأت أكتشف هذا العالم الملىء بالأسرار التى تتكتمها كل المكتبات العامة ، فى هذه الحالة كانت تلك الأسرار التى تختفى تحت رداء عبادة الحقيقة العلمية ، التى يطبقها مجموعة قليلة من المتطرفين الذين يحاولون إخفاء فشلهم الشخصى تحت عباءة التزام القواعد العلمية . إنه قانون أخلاقى كجلد الثعبان ، يتحرك فى صمت ونعومة فى داخل المكتبة الجامعية ، ولكن بالسم على طرف اللسان لمهاجمة أى شخص يحاول إقامة علاقة حقيقية وخاصة مع الكتاب .

fb/mashro3pdf

أين يوجد أمناء المكتبات الحقيقيون الذين لا علاقة لهم بهذه الطائفة المقيتة ؟ ، بالطبع يوجدون ، ويوجدون بكثرة ، إن لم نقل إن أغلبية العاملين فى هذه المكتبة منهم ، لكنهم يعاملونهم كعبيد ، عصبوا أعينهم ودفعوهم إلى العمل كأمناء مكتبة أصابهم العمى والصمم تحت سيطرة سادتهم من تلك العصابة البغيضة . أولئك السادة قلة ، لكنهم يسيطرون على العمل ، يحتقرون كتب الأدب لأنها عادلة وحقيقية وتشبه البشر ، أولئك متعصبون ، يرتدون قناع الطيبة الذى كان يمثله «رايموندو لوليو» مخترع تقنية الحفظ بالمكتبات . ومخترع فيش التصنيف ، إنهم يطالبون بالتفانى اللانهائى فى العمل ، ويمارسون سلطتهم على العاملين الشبان مثل ما فعلوا معى ، يتسابقون إلى المكتبات لأنه فى رأيهم أن الاقتراب من المكتبات أفضل طريقة للاقتراب من الكتب ، لكن بعضهم يدمرها بمخالبه وآخرين يتسللون هاربين منها ، بالنسبة لهؤلاء المتعصبين للعلم فإن العمل وسط الكتب يعنى استخدامها كقناع للتمويه على هزائمهم الصغيرة ، أو استخدامها كسلم للوصول إلى قمة السلطة اللعينة والمتجبرة مثلهم .

حذرنى الصوت :

– اصمتى هذه المرة ، ولا تعترفى بموهبتك الحقيقية ، لا تقولى إنك تكتبين كتبا ، ولا حتى أنك تقرئين ، وفقط لإرضاء حبك للكتب تحولت لبعض الوقت إلى ابنة خالتك ايسابليتا .

بعد دقائق قليلة من دخولى للمكتبة التى تعمل فيها ايسابليتا ساورنى إحساس غريب ، كان هناك بعض أمناء المكتبة فى وضع تضرع روحانى أمام ماكينة ضخمة تلتهم وتلفظ بطاقات مثقبة . لكن تلك الماكينة المثقبة لم تكن السبب فى الإحساس بالنهاية الواضحة للآداب .

كان الصوت يعزينى بقوله :

– الآداب الجيدة والجادة لا تختفى ، ولا يستطيع أن يوقف سريان فعلها حتى أكثر أمناء المكتبات المتعصبين ، ربما تتحول تلك الآداب إلى أشياء أخرى، لكنك تعرفين هذا أيضا .

fb/mashro3pdf

على الرغم من تحذيراته العكسية ، كنت أحاول أن أتحدث إلى زملاء ايسابليتا، كنت أسألهم عن إمكانية اختفاء الآداب من عدمه ، وعن الكتب التى كنت أرى أنها صعبة بالنسبة لى . كان يبدو أنهم لا يفهمون أسئلتى فكانوا ينظرون إلىّ فى صمت كما لو كنت أتحدث بلغة ميتة .

– أنا مؤلفة .

عندما سمعنى أمناء المكتبات المواجهون لى جمدوا بشكل مشوب بالخوف . تحولوا بوجوههم نحو المديرة العامة للمكتبة ، تلك التى تدعى أسونسيون ايسبنيل ، انتظروا ليروا ردة فعلها ليرسموها على وجوههم حتى لا يطردوا من أماكن عملهم .

كشرت الوحش الأكبر أسونسيون ايسبنيل عن أنيابها وقالت بنصف صوت موشى بابتسامتها المريرة المعروفة عنها :

– قد جاءت إلينا معارضة جديدة ، معارضة جديدة فى شكل مؤلفة كتب ، كما لو كان بإمكان أمينة مكتبة رديئة أن تكتب كتبا جيدة .

ضحك أمناء المكتبة من بلاهتى تجاوبا مع المديرة .

حدث هذا بعد أسبوع واحد من ذلك الصباح الذى ارتديت فيه ملابس مشابهة لابنة خالتى ايسابليتا وأعلنت عن ذهابى إلى المكتبة الجامعية التى كانت تعمل فيها .

المديرة كانت واحدة من اثنين كانا يضعان استراتيجية تطبيق نظام برمجة الكراهية ، كان الصوت قد نبهنى إلى ذلك :

– ركزى بصرك على الاثنين اللذين يواجهانك ، يبدو أنهما مختلفان فى التوجه، مع ذلك هما متساويان عند تطبيقهما للحقد والكراهية .

كان الصوت عادة ما يلقى علىّ مواعظه ، لكنه يحاول الآن أن يحمينى من المديرة العامة للمكتبة ، وأيضا من أمين المكتبة – الموثق المدعو فيالارافال ، الذى كان يعمل رئيسا لأمناء المكتبات . المديرة العامة لها شكل ممرضة الموت ، كانت

fb/mashro3pdf

تسير بين الكتب بنصف وجه ، كما لو كانت تعانى من ألم دائم فى البطن ، ويمكنها أن تحصل على جائزة نوبل فى حبها لتنفيذ قواعد البرمجة . يقال إن زوجها كان شاذا جنسيا وأنه كان متطفلا حقيقيا ، هجرها بعد أيام قليلة من زواجه منها ، منذ ذلك الوقت تعيش فى حالة من الكراهية للكتاب والفنانين . وفى الحقيقة أن أى كاتب يمكنه أن ينجو من يدها ، أما رئيس الأمناء فيالاردافال ، فقد ألف مصادفة كتيبا عن طريقة العمل فى المكتبات والذى اعتبرته المديرة كعمل مهم بينما فى الحقيقة لا يحتوى هذا الكتيب سوى على أربعة قواعد معروفة ، ولا ينفذها سوى شخص غبى .

مع ذلك فإن ذلك المدعو فيالاردافال كان يتأمل ماكينة التثقيب وكأنها أعلى مراحل التكنولوجيا المتقدمة ، كان شخصا قليل الفهم ، لكن أصابعه كانت سريعة الحركة على مفاتيح ماكينة شريط التثقيب ، وربما يعود ذلك إلى أن رأسه كانت مليئة بالكراهية لأولئك الذين يؤلفون كتبا لا يستطيع أن يكتبها هو . كانت رأسه عبارة عن كرة من الإحساس بالكراهية . يعتقد أنه أكثر عبقرية من أينشتاين، ويعتقد أنه أكثر من يسيطر على ماكينة التثقيب ، مما يجعله يعتقد أنه من حقه أن يخضع له زملاؤه فى المكتبة .

المديرة مثل رئيس الأمناء تماما الذى كان يدها اليمني ، واستطاعا معا بمرور السنوات والكراهية المتبادلة فرض نوعية عمل تشبه العمل البوليسى فى المكتبة الجامعية وبين أمنائها الذين كانوا خاضعين لهما . بعد أولئك الذين كانوا كلابا أمينة لحراسة الكتب تحولوا إلى تقنيين إلكترونيين من أسوأ الأنواع ، على طريقة فيلاردافال دون أن ينتبهوا إلى الدور الثقافى الذى تلعبه تلك المهنة التى كانوا يمارسونها .

كانت لدى فكرة مختلفة عن أهمية أن يكون الإنسان أمين مكتبة . أنا اعتقد أن أمين المكتبة إنسان محظوظ ، بطل عظيم فى مجال المعرفة والثقافة . إلى درجة

fb/mashro3pdf

أنه عندما كنت أتقمص شخصية ايسابليتا أفكر بجدية فى ترك مهمة الكاتبة لأتحول إلى أمينة مكتبة .

يستطيع أبى أن ينام هانئا .

مع ذلك فإن الصوت كان على خلاف معى :

– اعتقد أنك مخطئة ، أنت الوحيدة التى تعرف ما تفعل بتوجهاتك الداخلية .

هدفى كان إنقاذ اقرب الأشياء إلى . إنقاذ الأدب وإذا كان ذلك ممكنا أو على الأقل تصحيح العمل الحقيقى فى أمانة المكتبة التى لم تكن فى النهاية سوى طريقة غير مباشرة لإنقاذ الكتب والأدب .

اعتقدت أن الطريقة نفسها التى شعرت بها بالانجذاب نحو هذه المهنة هناك أيضا بعض الأمناء الذين لم يصابوا بالعدوي العبثية لماكينة التثقيب يمكنهم أن يشعروا بالانجذاب نحو النص المكتوب ، والصحفات والكلمات ، التى تضمها تلك الكتب . فخطر لى أن أوزع بين زملاء العمل نسخا من أجزاء بعض الكتب ، والقصائد الشعرية ، كانت قصيرة أحيانا وفى أحيان أخرى كانت فصولا متكاملة لبعض الكتب التى تعكس قيما أدبية طيبة ، وتجرأت فى بعض الأحيان على توزيع أجزاء من كتاباتى غير المنشورة ، لكن لا أتذكر إن كانت موقعة باسمى أم لا ، ربما كانت متشابكة بين الأعمال الشهيرة مثل كتب الرحلات .

واجهنى الصوت بقوله :

– الكتاب المبتدئون يقومون بأفعال غريبة للفت أنظار قراء المستقبل . حدث هذا بعد ساعات من اعترافى المخجل بأننى أود أن أكون كاتبة مما جعلنى أكون محل سخرية . كنت السبب فى وقوع الكارثة . فقد غضب رجلا البوليس العاملان فى مكتب الاستعلامات ، وقررا أننى دخيلة على المكان ، (هذا صحيح) واعتبرانى إرهابية أيضا ، (هذا لم يكن صحيحا على الإطلاق) واتهمانى بأننى انسخ نصوصا لمؤلفين آخرين وانسبها لنفسى . ادعيا أننى منتحلة . بل بما هو أسوأ :

fb/mashro3pdf

مخربة مكتبات وطالبا بطردى من الحرم الجامعى على الفور . وذلك لم يكن شيئا طيبا ، لكنه كان مسليا بالنسبة لى .

هؤلاء المفتشون نسوا فى غمرة أحكامهم المطلقة أن تلك النصوص غير الموقعة المختلطة بالنصوص المعروفة كانت لى بشكل ما . كانت نصوصى الخاصة ، كتبتها أنا ، وأن يبدو فيها تأثيرات واضحة لبيكيت وارنود وجويس وخورخى لويس بورخيس . لكن ما يجب أن يتعلمه المؤلف الحقيقى هو أن يتحمل مسئولية نتائج الكلمات الأصيلة . وأن كل أدب حقيقى فيه شىء من الانتحال الخفى . وأن ملهمات المؤلفين لسن إلا المكتبات ، حتى لم كان بعضها يدار بأمناء مكتبات تعسين .

لم أقل شيئا .

فقط قبل أن أغادر مكتبة ايسابليتا بلا عودة تجرأت على أن أقول لمن يريد السماع :

– الأدب اليوم سجادة ضخمة منسوجة بالتكرار ، كتاب ضخم ، مرتكز على موضوعين قديمين ، كتبهما عدة مؤلفين . ديدرو سرق أفكار وكلمات ثرفانتيس ، شتيرن سرق رابيل ، وجون بارت سرق ألف ليلة وليلة ، ونبكوف سرق تولستوى ، وهكذا دواليك ، كل إنتاج ليس إلا إعادة إنتاج ، كل وجه قناع .

أو ربما ، لم أقل شيئا ، اعتقد أننى فى النهاية أرسلت لهؤلاء الأمناء الحقيرين نسخة مكبرة من هذا النص ، حتى يتعلموا منها .

عندما هربت من البيت متنكرة فى شخصية ابنة خالتى ايسابليتا ، توقع أبى أسوأ ما يمكن أن يحدث ، وما توقعه حدث بالفعل ، لم يعد أبى يعرف ما الذى يمكن أن يفعله معى بالضبط ، مع ابنة لا يمكن أن تقبل دراسة علم المكتبات أبدا ، ولم يعد لى مكان سوى فى العصيان ، بدأت حياتى تصل إلى حد غير مقبول ، وإذا لم يكن هذا كافيا فقد كنت اقضى وقتى فى الانتقال من الأقصى إلى الأقصى .

fb/mashro3pdf

كان الصوت يكرر أى كلمة تقولها عنى الحوائط عندما أكون غائبة عن البيت بينما يتناول الآخرون سيرتى وحالتى النفسية المتقلبة ، ويكرر الصوت أيضا ما أقوله أنا للحوائط عندما أكون وحيدة فى الغرفة فيما كانت تلك الحوائط مندهشة من تقلباتى غير المفهومة . وكانت الحوائط أول من أعلن أن حالتى الصحية تتطلب أدوية مسكنة ، وفترة من الراحة .

تلك الزيارة الجحيمية تركت فى نفسى حالة من الذهول ، كانت خائفة دائما أن أكرر الأشياء مرات ومرات ، فقد سيطرت علىّ فكرة إمكانية اختفاء الكتاب إلى الأبد ، أنا التى تقبل أن تعيش فى دنيا بلا أم ، لم استطع أن أتقبل الدنيا نفسها بلا كتب .

أبى ، الأمين لأكفار تيلهارد وشاردن والأب ايفلى ، ذلك القس الكاثوليكى الذى كان يحاضر عن التقدمية ، كان يحاول أن يعيدنى إلى رشدى :

– الحضارة تتقدم ، وأحد أدوات هذا التطور الثورى هو الكتاب . وفكرة اختفاء الكتب التى تتنبئين بها تبدو غير جدية تماما كخطاب أولئك الذين يزعمون قرب نهاية العالم .

عندما كنت أتحدث عن شعورى بقرب اختفاء الكتاب المطبوع كانوا يشبهوننى بسكان البيت المقابل ، كانت كلماتى تبدو تافهة ومقلقة ، لم يعد يعرف أبى ما يفعل بى ، مع ابنة تعلن عن قرب اختفاء الكتب والمكتبات ، وتعتمد فى تأكيد نظريتها على تلك الفترة القصيرة التى قضتها فى المكتبة الجامعية .

كان يقول :

– فى مكتبات المستقبل لا مكان للكتاب ، ولكن ستكون هناك ماكينات إليكترونية ومكتبات مسجلة على أقراص .

مهمتى العلمية كانت رفض هذه العملية والحفاظ على الكتب الموجودة . حتى وإن كان ذلك يعنى بقائى حبيسة فى كهف أو دير مليء بالكتب .

fb/mashro3pdf

حينها تحدث شخص ما عن المستشفى التى قضت فيها عمتى «البيرة» بعض الوقت للراحة ، قيل إنه مكان جذاب ، ومتوسطى المناخ جدا ، عبارة عن مزرعة قريبة من البحر ، ومحاطة بحدائق واسعة متدرجة حيث تتكاثر أشجار البلوط والأشجار زكية الرائحة ، خرجت عمتى البيرة من تلك المزرعة عندما كنت استعد أنا لدخولها ، قرروا هذا دون استشارتى ، كما لو كانوا يتحدثون عن فتاة أخرى غيرى ، مجنونة من تلك العائلة التى تعيش فى المكان المقابل . رغم أن انتقالى إلى ذلك المكان لن يكون اكثر من رحلة لا أكثر ، رحلة غريبة إلى حد ما ولكنها فى النهاية رحلة ليس أكثر ، لأنه من المعروف أننا جميعا فى حاجة إلى تغيير المناخ من وقت لآخر ، وأن ننام أفضل وأن نتغذى افضل ، وهما شيئان كنت أهملهما خلال السنوات الأخيرة .

أعتقد أننى حتى ذلك الوقت كنت قد نسيت النوم تماما ، ترى ما هو النوم ؟ هذا السؤال كنت اطرحه على نفسى كل صباح عندما كنت أعتقد أن الصباح ظهر فجأة فى غمضة عين ، كان الصوت يتعامل معى على أننى لا أستطيع أن أنام أكثر من ساعة واحدة كل ليلة ، كانت تدور فى رأسى ألف حكاية وحكاية ، فيما عقلى يحاول أن يجيب على كل الأسئلة التى كنت اطرحها على نفسى ، كنت غائبة عن كل المعانى المباشرة لما يقال أو يفعل ، وهذا كان يقربنى جدا من عمتى البيرة ، لكن فى الحقيقة كنت اشعر أننى بعيدة عنها تماما كبعد أمى عنى ، والتى يؤكدون أنها كانت تشبهنى تماما .

كنت احب المدافن ، وكذلك كنت احب النساء المنفصلات عن أزواجهن الأنانيين، هذا يعنى أننى كنت أتفهم حالة عمتى البيرة التى لم اكن أشبهها فى شىء ، عمتى لم تكن تحب قراءة الكتب ، ترى ما هو الكتاب يا عمتى البيرة ؟

كان أبى يساعدنى على الاستعداد لرحلتى المقبلة :

– إنها مجرد أيام معدودات ، وسترين كيف أنك ستكونين أفضل . قيل لنا إن

fb/mashro3pdf

فى ذلك المكان هناك أستاذة لليوجا ، وممارسة اليوجا ستفيدك ، فأنت عصبية جدا .

فى تلك الفترة أنا كنت على استعداد لتلبية كل ما يطلبه منى أبى ، حتى استعدادى لأن أكون أمينة مكتبة ، كنت قد قمت بكل ما أستطيع لأؤكد له ذلك ، لكن النتيجة كانت فشلا ذريعا ، وكنت أرى أنه لم يكن مقتنعا تماما بحكاية إدخالى مصحة «ماريسمى» ، بحث أبى وبحث ولكنه لم يجد أفضل من دخولى إلى تلك المصحة ليساعدنى على إنهاء قلقى ، وأن أتخلى عن أفكارى الأخرى سوى أن أكون أنا نفسى .

ربما كان يبحث كثيرا أو قليلا عن أمى التى احتويها فى داخلى ، أمى التى كنت أشبهها جسديا كما كانوا يقولون عن أمى المسكينة .

أن يكون الواحد منا نفسه فقط هذا يعنى أن تكون أفكاره عن حياته واضحة ويعمل من أجل تحقيق هذه الأفكار ، لكنى لم استطع التخلى عن الماضى الخاص بى الذى كان غامضا ولا يكشف عمّا يمكن أن يكون مستقبلى المنتظر .

كانت تضايقنى فكرة المعايشة مع مرضى المصحة ، واليوجا لم تكن همى الأول .

الصوت لم يكن يبعث فى نفسى هدوءا .

هناك مظاهر للجنون قليلا ما تذكرها الروايات لأنها تؤثر كثيرا على رومانتيكية المجنون المعروفة ، لأن المجنون فى عيون الناس ليس إلا شخصا عفويا وحساسا رقيق المشاعر ، لذلك فشخصيته تكون عادة جذابة ، لكن من الشاذ أن يتذكر أى شخص عادى كلمات أوفيليا [١] وهى تلقى بها كما لو كانت تقرأ كتابا عن البذور ، أو سماع خوانا [٢] المجنونة ، ففى التأليف يقدمون لنا عذرا عن الشاعرية المفتقدة .

---

(١) أوفيليا بطلة مسرحية «ماكبث» للكاتب الإنجليزى وليم شكسبير .

(٢) خوانا (١٤٧٩ – ١٥٥٥) كانت ملكة على قشتالة فى الفترة من ١٥٠٤ إلى ١٥٥٥) وكانت ملقبة باسم «خوانا المجنونة» .

fb/mashro3pdf

المجنونات الحقيقيات لا يشبهن فى شىء مجنونات الروايات ، وإن كنت أنا أشبه إلى حد ما مجنونات الروايات لأننى ببساطة قرأت كثيرا من حكايات النساء الوحيدات والفاقدات العقل ، وأؤمن أيضا أنه من الممكن للمريضة أن تنتهى إلى الاعتقاد بأنها بطلة أدبية فترى زميلاتها كما كن عرائس كسرهن الحزن .

مستشفى الماريسمى عبارة عن مكان ما بين مستشفى للأمراض العقلية وفندق عائلى يقدم خدمات فاخرة . لا توجد امرأة واحدة من اللاتى يتجولن فى الصالون يمكن أن تصلح بطلة لرواية للتسلية. لم أشاهد أى أوفيليا بينهن ، بعضهن يذكرنى بتلك العاملات فى المكتبة الجامعية ، مما كان يصيبنى بنوع من الهذيان والقلق ، أخريات كن يبكين ويلطمن بشكل متواصل ، وبشكل خاص هاتيك اللاتى كن يجلسن هناك للتعافى من إجهاض سرى أو حمل غير مرغوب فيه لأسباب عائلية ، ويجب أن ينتهى فى سرية تامة ، لكن اغلبهن كن مجرد عقبة أمامى وأنا كنت أعاملهن على هذا الأساس .

بعد قليل من وصولى إلى المصحة شغلت نفسى بالبحث عن مريضات لهن حكايات مسلية ، ولأننى لم أجد بغيتى لم يكن أمامى من حل سوى أن اختلق حكاياتى المسلية الخاصة ، بدأت بإعلان نفسى على الملأ سفيرة للجنون ، قلت :

– جاءوا بى إلى هنا بسبب الكتب ، لأننى قرأت كتبا أكثر مما يجب فأصابنى بعض ما بها .

وأكدت :

– نهاية الكتب باتت قريبة .

لكننى اكتشفت أنه لا أحد يهمه أن تختفى الكتب ، وليس لافتاً للنظر أن تكون عادة القراءة مجرد شىء من الماضى ، كنت أنا الوحيدة المنزعجة بسبب هذه المشكلة ، وخصصت وقتى للحديث لمن يرغب فى سماعى عن إنشغالى بإقامة بيوت للقراءة حيث يمكن الاستمتاع فيها بقراءة الكتب .

– بيت كهذا ، مفتوح فقط لمحبى الكتاب .

fb/mashro3pdf

كانت حياتى مليئة برحلات معروفة ، كنت اذهب من قبل إلى الجبانة والآن أنا فى هذا المكان الفردوسى المطل على البحر المتوسط ، ولم يعد لدى سبب يدفعنى للرحيل إلى أماكن أخرى ، وعندما لا تكون هناك رحلات من الأفضل على المرء ألا يفترق عن الكتب .

المدهش أنه مع مرور الوقت شعرت بالتحسن فى ذلك المكان الخاطىء ومساحته المختلة ، ذلك المكان الذى يفتقد للوصف وزججت فيه رغم أنفى . فى ذلك البلد الصغير المليء بالأشباح المرتحلة كل شيء فيه وقتى ونسبى . لم تكن هناك واجبات نجبر على أدائها خارج تدريبات اليوجا ووجبات الطعام المعتادة بين المرضى كان يبدو كما لو كان مكان مفتوحا للجميع وعالما صغيراً لمن يرغب فى الرحيل .

فى بيت المرضى كنت اطلب من الصوت ألا يتركنى وحيدة ، كانت تخيفنى كثيرا فكرة ضياعى وتحولى إلى الجنون ، كنت أرى المريضات يقضين ساعات القيلولة فى الحديث بينما أنا ابحث بينهن عن علامات المرض العقلى أو فقدان التوازن الداخلى ، كنت أتساءل إن كن مجنونات بالفعل ، كما لو كانت هناك درجات لعلامات الجنون ، لكن هذا السؤال نفسه كانت المريضات الأخريات يسألنه عن باقى سكان المصحة ، على الرغم من الحديقة ومشهد البحر فإن الانعزال نفسه فى هذا المكان كان السبب فى كثير من علامات المرض العقلى على الرغم من محاولة التظاهر بغير ذلك .

كانت هناك امرأة تبدو معروفة أكثر من الأخريات ، كانت صلعاء ، وكانت هناك علامة حمراء حول رأسها كما لو كانوا قد رفعوا جلد جمجمتها لمعرفة ما بداخل عقلها ، قال لى الصوت :

– أنت لم تصلى بعد إلى مرحلة الجنون ، أو يكون الأمر على العكس من ذلك نحن جميعا من المجانين .

fb/mashro3pdf

كان الصوت يقول لى ذلك كما لو كان الجنون نوعا من السكون الذى افتقده لبعض الوقت .

كان فى بيت المرضى ذاك كما لو أن أحدا قرر اختيار مجموعة معينة من النساء محددة سلفا ، كل واحدة منا تعبر عن شىء خارج عن حدوده الطبيعية ، نساء لدينا تفكير غريب أو نقوم بأفعال شاذة ، أو نساء ، على العكس تماما ، ينمن كثيرا ، حكايات شبيهة بالحياة الزوجية الفاشلة كنت اسمعها رغم انفى ، بشكل عام حكايات حب فاشلة ، إجهاض غير مفهوم ، هروب مجهض من آباء جفاة القلوب وأزواج جبارون ، نساء كان يجب إبعادهن مؤقتا عن الحياة حتى يمكن بالنسيان إخفاء أعمال بطولية صغيرة استطعن القيام بها .

بعضهن كن قادرات على الكلام عن بعضهن الأخريات ، ويتحدثن بلا خجل عن أسرارهن الخاصة جدا . كانت المريضات تشكلن دائرة حول أكثرهن ثرثرة ، كما لو كانت تلك السعادة الحقيقية لوجودهن هنا .

موضوع أحاديثهن المحبب هو الحب ، نوع من الحب مثير للسخرية . وهو الموضوع الذى يطلبن رأيى فيه بإلحاح .

– لماذا كل هذا الإلحاح الممل ؟

كن يقلن لى :

– لأن الحب يفسر كل هذه الأفعال الشاذة ؟

ربما كان هذا صحيحا .

فى بيت المرضى النسائى لم يكن هناك سوى ممرض واحد نحيف لا يرحم يحنقه تعلقى الشديد بالكتب . ولم يكن يتوقف أبدا عن تعنيفى واتهامى بأن حبى للكتب يخفى رغبتى فى ممارسة الجنس مع مؤلفيها .

كنت أرد عليه :

– لا يقول هذا الكلام سوى عقل شاذ وشخص فاشل .

fb/mashro3pdf

بالنسبة لـ «رافى» ، الممرض ، كان يضايقه أن أكون الوحيدة بين المريضات التى تعرف هدفها فى الحياة بالتحديد ، هدف لا يختلف كثيرا عن هدف شقيقة روحى ، الكاتبة شارلوت برونت . لأنه يعتبر هدفا غير عادى ، وهذا كان يضايق الممرض الذى يحمل فى داخله رغبة فاشلة فى أن يكون كاتبا ، تماما كرغبة الكاتب الإنجليزى «سوثى» فى علاقته بشارلوت ، كان رافى يعتقد أن الأدب لا يمكن أن يكون هدفا لحياة امرأة ولا يجب أن يكون .

رغم أنف رافى وبيت الأمراض أنا كنت مصرة على توجيه كل حياتى للقراءة ، منذ تلك اللحظة سيكون هذا هو هدفى ، وهذا على المدى البعيد أكثر قوة من الشعارات العامة المعلنة . فى مكان ما فى شمال إنجلترا وخلال القرن التاسع عشر كان هذا الهدف سببا فى إثارة حنق البعض وهذا لا يزال مثيراً للحنق فى برشلونة القرن العشرين أو الحادى والعشرين تقريبا .

راكمت ساعات وساعات من النوم . تعلمت النوم فى بيت الأمراض والغرق فى فالس الأشياء الطيبة ، استطاعوا هناك إخضاع سهاد جسدى القلق ، لكنهم لم يستطيعوا القضاء على حمى تراكم الكتب .

كانوا يقولون :

- إنه جنون مكلف .

كلنا نحن المريضات كانت لنا غرابة أطوار بطريقة أو أخرى . ومن كانت لها حالة كانت تمارسها على الفور ، كانت هناك غرابة أطوار مقبولة أو مسموح بها وأخرى غير مسموح بها ، حالتى بدأت وانتهت بحب جمع الكتب ، إنها حالة لا وصف لها ، ولم تكن تدخل فى إطار المسموح أو غير المسموح به ، وليست حالة لها امتيازات خاصة ، كنت عمياء ، مثلا أن يكون لى رأى عندما تعرض مسألة يجب أن ابدى فيها رأياً أو ابرز فيها غرابة أطوارى .

لذلك قررت التزام الصمت ، هذا جزء من الأشياء الطيبة التى تعلمتها فى بيت

fb/mashro3pdf

الأمراض ، وهذا اثر على إصرارى على تنفيذ فكرة بيوت القراءة التى كنت أزمع تنفيذها .

كان الصوت يقول لى :

– كنت دائما تحبين البقاء فى السرير وأن يهتموا بك ويخدمونك .

كان السرير المكان الوحيد الذى اشعر به بالأمان فى هذا العالم المرعب ، وفى هذه الحياة المليئة بالمشاكل. كان السرير ملجأ اكثر حميمية من الجنون . فى السرير ما كان يمكننى أن أفكر فى الانتحار .

فى بيت الأمراض فى الماريسمى لم تكن حياتى تختلف كثيرا عن الروتين الذى كنت أعيشه فى برج «بيدرالبس» ، كانت الساعات تضيع فى هوايتين من تلك التى كنت أمارسها ، واحدة منها النوم تحت شمس الشتاء ملتفة فى بطانية صوفية تحمينى من برد الشتاء ، أو مكشوفة الجسد فى الصيف ، كنت استلقى على الأريكة الصفراء تماما مثل سحلية قلقة ووحيدة ، أشعة الشمس التى تحض عليها النصائح الطبية كانت تلعب دور البناء لعظامى وفكى ، كانت الشمس رحلة إلى الداخل ابدأها بمجرد أن اغمض عينى فى وضع جسدى معين ، خلال الحمام الشمسى كانت الأصوات تتعدد :

– الداخلى يبدو خارجيا ، كانت هناك مساحة مذهلة ومختلفة الألوان كانت تظهر فى عينى المغلقتين ، يشتعل الوجه ويبدأ إحساس بوجود متطفل يرقب حالة الضجر التى تعترينى . أكون فى حالة من العدم بوجود أو عدم وجود العالم . كل شىء يبدو واضحا فى تلك اللحظة ، على الرغم من الظلام الذى يعترى عينى ، يبدو العالم واضحا وأفكارى تكون سعيدة ، تولد تحت أشعة الشمس افضل الروايات .

كثيرا ما نجح الصوت فى إثارة ضجرى ، حكايته تشبه حكايتى كثيرا ، كنت ابحث تحت أشعة الشمس عن اتصال بالأصوات ، أصوات تبدو كتغريد الطيور، سعيدة ومختلفة عن أصوات الكتب التى تضعنا فى حالة من الحقيقة المزيفة باقترابها المتواصل.

fb/mashro3pdf

كنت أعتاد على الجلوس تحت الشمس بالقرب من مجموعة نساء المصحة، كنت أبحث دائما عن الاقتراب من الجموع، كنت أظل بينهن فى حالة من السكون التام، كنت أجلس دائما على بعد متر واحد منهن، أستمع إلى قصص حياتهن. مبتذلة فى معظمها، لكنها تبدو أكثر إثارة من تلك التى تبدو محكمة الحبكة، كنت اختبىء خلف الشمس لأكون شاهدة على كل تلك الحكايات الشخصية التى لا تنتهى.

كنت أفكر أحيانا فى أن بعض تلك الحكايات تصلح للكتابة، لكن ليس من السهل كتابة الأسرار الخاصة، إضافة إلى أن ذلك ممنوع. وغير مقبول.

- الحكايات الشخصية ليست مقبولة كتابتها بالنسبة للروائى.

هكذا كان ينصحنى الصوت.

كنت أجيبه أن التفكير على هذا النحو يبدو غريبا. فالإنسان تماما كالمنظار المعظم، وقيمة الروايات الشخصية تأتى طبقا للشكل الذى نراه من خلالها كالمنظار تماما.

- تقولين أشياء لا معنى لها لكنها صحيحة فى كثير من الأحيان.

بينما كان هذا يحدث، كان الصوت يجبرنى على كتابة نصوص غير قابلة للقراءة، ومن ناحية أخرى تبدو كالكتب التى يكتبها أولئك الممنوعون من كتابة معانى حياتهم.

فى حديقة بيت المرضى تتحدث المريضات عن الحمل غير المقبول، عن مصحات أخرى، عن الانفصالات الزوجية، أو حالات الاكتئاب الحادة، والأزواج الخائنين، والنساء اللاتى يطاردهن أزواجهن. كل الحكايات تشبه بعضها، وهذا هو الجميل فى كل هذا، خلف كل حكاية لها معنى هناك صوت مجهول يقصها ويجعلها حقيقة.

بينما أكون فى حالة النعاس الشمسى لا يلتفت أحد إلى قرون استشعار تجسسى عليهن. الذاهلة، هكذا كن يطلقن على تلك المرأة الصلعاء، والتى كانت

fb/mashro3pdf

توجد حول رأسها علامة جراحية مستديرة. كما لو كانوا فتحوا جمجمتها ليشاهدوا مخها من الداخل.

مخ أبى يوجد فى حالة انحسار ويتعرض للخطر.

كنت أشعر بالراحة لأننى كنت أسمع الحكايات دون أن ينتبه أحد إلىّ، كنت كحكاية تنتظر النهاية كما تقول بعض المريضات، أبدو كما لو كنت على وشك الولادة من جديد فى العشرين من عمرى لأبدأ حياة بلا حياة، لا توجد فيها زيارات المقابر أيام الأحد.

اقرأ الكتب دائما.

كانت الأصوات تبعد تفكيرى عن الكتب تحت الشمس، وهذا أمر طيب كما كانوا يقولون.

كنت أحب أن أحمل معى هذه الأصوات إلى البيت. لأنها كانت الأصوات الوحيدة التى تبعدنى عن القراءة، وهذا أمر طيب كما كن يقلن.

ولقول شىء وفى الوقت نفسه للرد عليهن كنت أقص حكايات النساء على الكتب، تلك أشياء ظريفة كنت أتذكرها عن لحظات جنونى، ولم تكن تلك النساء تستطع تصديق ذلك كما لو كانت حكاية حقيقية.

– أين يمكن أن نجد مجنونة بإشعال الحرائق يحبسها زوجها فى برج عال؟

كن يقلن ذلك.

من الأفضل مواصلة سماعهن، بشكل خفى أو غير خفى، متصنعة النعاس وملقاة على الأريكة كما لو كنت مريضة.

كنت أفكر فى كل تلك الروايات التى كانت تلك النساء تدعى كل واحدة منهن قدرتها على كتابتها، ولم تكتبها أى منهن أبدا.

وكنت أفكر فى لحظات أخرى. أن أحرص على رأسى حتى لا تضمر كرأس أبى.

كانت رأسى مترعة بالتفكير، رأس فى حالة رفض دائم.

fb/mashro3pdf

رأس ملىء بعصافير صغيرة، كما كان يقول أبى، ولم أكن أحاول أن أخالفه الرأى فى ذلك. حتى اعتاد على تلك الفكرة، فى فترة التصييف الإجبارية تلك فى مصحة الماريسمى أرسل إلى أبى لوحة مرسومة، كانت اللوحة عبارة عن رأس فتاة شابة شعرها ممشط على هيئة عرش وضع فيه أبى مجموعة من العصافير المغردة. كان يقول أشياء كهذه من خلال الرسوم، كان يرسم بعضها عن إحساسى بعدم الثقة وعن هيامى بالكتب. كانت هذه طريقته فى التعبير الساخر.

أهديت لوحة العصافير المغردة لتلك المرأة ذات الجرح الأحمر حول رأسها، والذى يبدو كما لو رفعوا قمة الرأس لينظروا فى مخها.

أحبت اللوحة كثيرا، ربما لهذا قدمتها لها، لأننا كنا نقضى أوقاتاً طويلة معا فى صالة استقبال المصحة، لأننى كنت فى حاجة إلى مفاجآت التليفزيون ليبعدنى عن التفكير، بلا عصافير ولا رغبة فى القراءة.

كانت المرأة ذات الجرح الأحمر تبتسم للنافذة.

مشاهدة التليفزيون كانت تشعرنى بالراحة، التليفزيون كان شمسى الليلى، كنت أقضى أمامه الليل بطوله، حتى أبعد رأسى الملىء بالعصافير من كثرة القراءة ولأفرغ عينى من الكلام الذى يحشوها من الكتابة الكثيرة، أحيانا كنت اقرأ أمام التليفزيون دون أن أترك المرأة ذات الجرح الأحمر حول رأسها وحيدة.

كان الصوت يُصاب بالخرس أمام التليفزيون. كان الصوت كثيرا ما ينام عندما أتظاهر بمشاهدة التليفزيون، كان التليفزيون كقرقرة القط، لم أكن أتابع التليفزيون فقط كنت أضعه أمامى كقوة وحيدة قادرة على إصابة الصوت بالنعاس، حينها أستطيع إن اقرأ بهدوء، وأفكر بهدوء، أو أفعل شيئا أفضل: أتوقف حتى عن التفكير.

لكن الأصوات لم تكن مبهمة وغريبة كما كانت تلك الأصوات التى كانت تخرج من غرفة الأصوات، حيث أنه فى مصحة الماريسمى لم تكن هناك مكتبة، فكنت

fb/mashro3pdf

أشاهد التليفزيون، غرفة الأصوات بقيت فى البيت، تنتظر، كنتيجة لدخولى بيت الأمراض، أصبحت أطلق على المكتبة اسم غرفة الأصوات.

الشمس والتليفزيون عندما يستعملان بشكل مناسب فانهما أفضل شىء لتفجير الأفكار، فمن هناك جاءت فكرة غرفة الأصوات، وعندما استطعت أن أقنعهم بإخراجى من بيت الأمراض قررت تنفيذ فكرة غرفة الأصوات.

ربما كان أبى سعيدا. لم تعد غرفة نومى مثل ذلك المخزن المختل النظام بالكتب الملقاة فى كل مكان، بدأت وضع النظام، علقت مئات من الأرفف، وأمرت بتغليف الغرفة بلون أحمر نبيذى، وضعت صالتين صغيرتين للقراء ولمبة، بذلت فى تزيين تلك الغرفة الجهد الذى كان يمكن أن يتطلبه تزيين شقة كاملة، أصبحت الغرفة علامة على الاستقلالية، كنت أريد أن أمنح نفسى الإحساس بأننى سأغادر البيت بشكل نهائى، دون أن أتحرك منه، واستطعت أن أنتزع من أبى بعد نزاع طويل أن يبنوا مدخنة حديدية فى زاوية مناسبة، إلى جوار الأريكة الصغيرة، كنت أعد كل شىء حتى أستطيع الهرب من البيت بسهولة، أو ربما أردت أن أبين لأبى أن فكرة بقائى إلى جواره وانفصالى عنه فى الوقت نفسه فكرة ليست سيئة، كان أبى يشغل غرف الطابق السفلى وأنا أشغل غرف الطابق العلوى، وطبقا للخطة التى وضعها بنفسه، كما لو كانت واحدة من نكاته الساخرة، لكن الأمر كان جادا، قال لى:

– بما أن أشقاءك يعيشون خارج البيت يمكننا أن نقسمه بشكل جديد.

وضع تحت تصرفى مساحة أكثر بثلاثة أضعاف مساحة غرفة الأصوات حتى أظل املأها بالكتب، وهو فى الوقت نفسه، يستطيع أن يفعل الشىء نفسه بالطابق السفلى، تحول البيت إلى شىء فريد بعد أن قررت قبول عرضه وينفذ هو فكرته، تحول البيت إلى نوع من المكتبة المزدوجة، تجمع أدبين مختلفين ومتناغمين ومتكاملين، الأدب الاسبانى فى المنطقة العليا، والأدب القطالونى فى المنطقة السفلى، تماما كما يجب أن تكون عليه مكتبة برشلونية، مكتبة خاصة جدا بمدينة أحبها وأكرهها تماما كمكتبة أبى. مكتبة أرملة.

fb/mashro3pdf

مع ذلك، لم أستطع، كانت لدى غرفة الأصوات على هيئة مكتبة دافئة ومريحة، وتحت شباكى كانت هناك شجرة ليمون كبيرة، وفى المواجهة كانت هناك عيادة فوستر الطبية التى تزدحم بالأشباح المجنونة التى كنت أعتقد فىّ وجودها ولا أصدقها.

مشكلتى الآن بعث الحياة فى غرفة الأصوات هذه، كنت سعيدة فى غرفة الأصوات، شعرت بالسعادة لأول مرة، أصوات الكتب كانت تأخذنى إلى العالم وتفصلنى عن العالم فى الوقت نفسه، حتى الصوت كان يتفق معى ويقول لى:

– الكتب تملك المقدرة على تغيير مكاننا. لاتكذب أبدا، لا تقول أبدا إن شيئا تحرك من مكانه أو أن الإنسان لايزال ساكنا فى مكانه، أى كتاب يمكنه أن ينقلنا إلى أى ركن من الغرفة، أو فى غرف العالم، الكتاب يمكنه أن ينقلنا من مكاننا، من أريكة مريحة إلى صخور يمكن مشاهدة البحر من عليها، كتاب واحد يمكنه أن يصيبنا بالجنون، يمكنه أن يفصلنا عن أزواجنا، وعن أبنائنا، عن كل ما نكونه، يمكنه أن يشفينا من كل الجراح التى تصيبنا بها معاناة الحياة، لكن الكتب تحتاج إلى من يهتم بها. تحتاج إلى من يحميها ويستخدمها.

هوايتى تجاه الكتب ازدادت. وأنا الآن أريد مكتبة فاخرة، كانت كتبى مذبح عبادتى الخاص، كانت منبع قوتى ومكان صلواتى، استعدت هواية صيد الكتاب، هذا كان يعنى أننى أستطيع أن أقوم بعمليات تجارية لا نهاية لها، مقابل مرتبة أو طاولة أو ستارة حمام، استطعت أن أحصل من طالب من الأوروجواى كان يمر بأسبانيا على طبعة موقعة من مؤلف كتاب «البئر» اونيتى [1]، ومجموعة الشعر «المغامرات الضائعة» لمؤلفته أليسكاندرا بيزارنيك.

لم يكن يبدو أن الصوت كان يعارض توجهى المكتبى، كان يوجهنى:

– استخدمى كتبك بشكل يومى، وإن كان البعض يستخدمها كما لو كانت قطعا متحفية، لا يجب إخفاؤها خلف أبواب من الزجاج لأنها تفقدها بريقها

(١) خوان كارلوس أونيتى (١٩٠٩ – ١٩٩٤) كاتب من الأوروجواى.

fb/mashro3pdf

الطبيعى، لا يجب معاملة الكتب الغريبة وكأنها من الصين، فقط يجب احترام قاعدتين اثنتين: غسل اليدين قبل لمس الكتب، ثم وضعها بعد ذلك فى مكانها.

عندها فقط، وبعد ذلك أيضا حدث هذا مع «بدرو بارامو» [1]، عندما سافرت، السفر بشكل منفرد يكون له معناه عندما يتعلق بكاتب أو بكتاب، أحيانا كنت أقف أمام أبواب مؤلفين أعجب بهم كنت أتوسل إليهم أن يهدونى الطبعات الأولى الموقعة من كتبهم.

تلك اللقاءات السريعة بمؤلفين كبار كانت تمنحنى إحساسا بالخلود، بخلود الأشياء الأبدى، كان يمكننى أن أكتب تلك اللقاءات، وأكتب من خلالها أدبا، لكن الأصوات كانت تطالبنى بأشياء أخرى، لذلك مازالت أكتب نصوصا لا تُقرأ، الأصوات تصيبنى بالخلط وربما بفضل تلك الأصوات فأنا اكتب حياة الذين يكتبون نصوصا غير قابلة للقراءة، الأصوات كانت ملهمة لفنون الأدب المنتحل، الأصوات تلهى عن الحياة وعن تلك الحياة لا أستطيع أن اكتب شيئا. كنت غير قادرة على التفرقة بين حياتى وحياة الكتب، كانت حياتى حياة الذين يكتبون.

خرجت من بيت الأمراض لأحبس نفسى فى غرفة الأصوات، كانت هناك أشياء كثيرة ممكنة فى تلك الغرفة الغريبة، كانت الأصوات تقدم لى العديد من الفرص مما يجعل من الأفضل بقائى فى الغرفة حتى تأتينى تلك الفرص أو لا تأتى أبدا. كانت الأصوات الصامتة تصيبنى بالخلط بين الأشياء وكانت تدفعنى إلى كتابة هذه النصوص التى لا تُقرأ.

---

(١) بدرو بارامو، بطل الرواية التى تحمل اسمه والتى تعتبر من أشهر أعمال الكاتب المكسيكى «خوان رولفو».

fb/mashro3pdf

- ٥ -

إلى الشرق من برج بيدر ألبس كانت توجد مبان سكنية، أمام نافذتى المتميزة تماما، كانت مصحة الدكتور فوستر، تقع إلى الغرب من بيت جدى الضخم، عن بعد، من خلال شرفة البرج يمكن رؤية شريط ميناء برشلونة الأزرق، وأقرب من تلك الدائرة المتميزة يمكن رؤية سلسلة جبال مونجويك، لكن من الناحية الأخرى من البيت، الناحية الرطبة، لم أقل أى شىء عنها، كانت الناحية التى تؤدى إليها نوافذ الحمامات، والممر، وغرف الخدم والجراج، ومن النوافذ العليا من هذه الناحية من البرج يمكن رؤية مشهد ريفى خشن، يمكننا من خلاله أن نرى انقسامات جبال تيبيدابو، لكنها لم تكن تلك الجبال التى يجب أن نراها لأسباب جغرافية، بل الجبال الموازية للشهيد سان بدرو، سلسلة من الجبال المنعزلة لا يوجد عليها أى نوع من المبانى عدا برج الرادار الذى يؤكد أن برشلونة تنتهى عنده، في المنطقة السفلى من سفح سان بدرو الشهيد، أى، فى برج بيدر ألبس، ما بين الجبل وبيتنا، توجد مسافة عشرة أمتار، كان هناك مبنى شبيه بمبنى بيتنا، قبيح ومظلم، كانت تعيش فى ذلك البرج عائلة مكونة من الدكتور فوستر، الطبيب النفسى، مدير وصاحب، فيما اعتقد، المصحة العقلية التى تحمل اسمه، وزوجة هذا وعدة أبناء.

ما كنا نعرفه عن عائلة فوستر قليل، ربما لأن زوجته كانت قريبة من بعيد لجدة جدى، مؤسس دائر المعارف المعروفة، كان الدكتور فوستر وقتها رجلا أصلع بعض الشىء، وشعره أجعد، وأبناؤه أكبر منا بكثير، كلهم متزوجون، عدا

fb/mashro3pdf

الأصغر، فالنتين الذى كان يكبرنى بعدة سنوات، وشقيقة له، فيما أعتقد أننا بدأنا الدراسة الثانوية معا، وهذا جاء فى وقت دخوله هو إلى كلية الطب.

لآل فوستر شكل العائلة المتكاملة، بيت هادىء وغريب، وإن كان من ناحية أخرى قبيحا لأنه يضم أسراراً شاذة، كان على عائلة فوستر أن تسمع رغما عنها صرخاتنا وضوضائنا المستمرين للأبناء اليتامى المسعورين، هذا ما كانت تقوله الخادمات، وفى أكثر من مرة حدثونا عن شكاوى الدكتور فوستر من جحيم بيتنا عندما نتعارك نحن الأطفال كشياطين غاضبة.

على الرغم من وجودهم بشكل خفى ومنعزل قيل لنا إن عائلة فوستر كانوا يشكلون جزءا من جوارنا العائلى، فيما كنا نحن نتجاهلهم، تماما أو ربما أكثر من تجاهل وجود المصحة العقلية الموجودة فى المبنى المقابل. آل فوستر كانوا يحافظون على عزلتهم، على نفس طريقة مرضى المصحة، وربما أسوأ منهم، فلم يكن يخرج أى فرد من الأسرة إلى الحديقة، التى كانت فى الحقيقة مهملة جدا، ومليئة بالحجارة، على الرغم من ذلك، كانت لديهم عادة مقدسة ينفذونها حرفيا، عادة كانت لها علاقة بالمظهر الخارجى البارد لذلك البيت، خلال ليالى الصيف، كان الزوجان فوستر والابن فالنتين والابنة الصغرى، التى كانت لاتزال غير متزوجة، كانوا يجلسون لتناول العشاء فى شرفة الطابق الأول من البرج. وهى المكان الوحيد فى البيت الذى يدخله الهواء.

فى حوالى العاشرة يتم إضاءة لمبة تضىء المائدة المعدة والمحاطة بعدد قليل من الآكلين. من حديقتنا مع بعض الانتباه، يمكن سماع ضجة الأطباق وأدوات الطعام، ولو حالفنا الحظ يمكن سماع همهمات خفية، كما لو كانوا يتبادلون أسرارا، وقتها كنت أجهل أن المختصين النفسانيين لديهم قاعدة عامة بعدم رفع أصواتهم، خاصة أثناء اللقاءات العائلية، حينها كنت أعتقد أن عائلة فوستر كانت تتصنع الهدوء أثناء العشاء لتتسمع صرخات الأطفال اليتامى الغاضبين، كنت أتصور أن آل فوستر يتلصصون على تعاستنا، أما نحن، سواء فى الصيف أو

fb/mashro3pdf

الشتاء، كنا نتناول طعام العشاء فى كثير من الأحيان جالسين أمام التليفزيون، نكون فى بعض الأحيان وحدنا، لأن أبى كان قد بدأ عادته فى الخروج مبكرا، لأنه كان أول من يهرب من صرخاتنا كأطفال يتامى وتعساء. آل فوستر كانوا يتجمعون حول المائدة ذات المفرش الأبيض التى تكاد تحتل شرفة الطابق الأول الحجرية، لا يخرجون أبدا للعشاء خارج البيت، سواء فى الصيف أو الشتاء (عبر زجاج غرفة المائدة يمكن رؤية طقوس العشاء التى لا تتبدل) يكونون هناك فى صمت، فيما يتلصصون على حركاتنا كما لو كانوا حراسا للمصحة العقلية التى تقع فى المقابل.

نافذة حمام شقيقى التى تقع فى الطابق الرابع تطل مباشرة على مائدة الشرفة ذات اللمبة المضاءة، فى بعض الليالى كنت أفتح النافذة محتمية بالظلام، محاولة أن أسمع حوار الجيران الصامت، تماما كما لو كنت فى المسرح، تقريبا كل حديثهم عن المصحة والحكايات التى تحدث فيها، وإذا كانوا يتحدثون بصوت منخفض لأنهم كانوا يخشون أن ينتبه أحد إلى كلماتهم من الشارع المقابل، كل شىء قريب، لكن فى تلك السنوات كان كل شىء صامتا، صمتا كنت فى حاجة إليه لأعرف أى مكان يحتله صوتى داخل كلمات أسرة فوستر المتقاطعة، مشاهد العشاء فى الهواء الطلق كانت تحدث فى الصيف، حينها تكون هناك حشرة تدور مذعورة حول اللمبة التى تضىء العشاء، ويمكن سماع أصوات حشرات الحديقة وحركة الفئران، وأصوات أقدام خفر الشوارع الثقيلة، وأنين عجلات الترام التى تحتك بالقضبان فى ميدان بيدر ألبس.

عندما أتمكن من الإطلاع على سر مفهوم من تلك الأحاديث الليلية كنت أحتفظ به للمستقبل، لأننى كنت أعتقد فى تلك الأيام أن سرقة أى سر من أسرار أصحاب المصحة يمكن أن يفيدنى فى شىء، التى كانت تخدم فى بيت آل فوستر منذ سنوات كانت أكثر أناقة من اللاتى كن يخدمن فى بيتنا، كانت ترتدى دائما منديلا أبيض على ملابس سوداء بمقدمة بيضاء مناسبة للمنديل، وكانت حريصة

fb/mashro3pdf

وصموتة تماما مثل سادة البيت الذى تخدم فيه، لم تكن تتعامل مع خادمات البيوت الأخرى فى الحى، سنة بعد سنة، كان الحال يتكرر دون تغيير، نحن كنا نخرج إلى حديقتنا المجاورة لجيراننا لم نتمكن أبدا من الدخول إلى بيت آل فوستر، ولا حتى ندخل فى مصحتهم، ولا اذكر أن أبى تحدث أبدا مع الدكتور فوستر، ولا اذكر أنه تبادل معه الأحاديث المعتادة بين الجيران، من المؤكد أننا كنا نخشاهم لأنهم يمثلون النظام والجدية التى كنا نفتقدها نحن، نحن العائلة الممزقة التى تفتقد إلى ابسط قواعد التماسك.

كنت أتبادل مع الابن الأصغر فالنتين بعض كلمات التحية عندما كنت ألتقى به فى محل حلوى فويس، كنا نتصادف أحيانا أثناء تناول بعض الحلوى فى الكافتيريا، لكن لرؤيته بشكل جيد ليس هناك ما هو أفضل من النظر إليه من نافذة الحمام.

غرفة نوم، ذلك الذى سيصبح يوما من أشهر الجراحين فى العالم الدكتور فالنتين فوستر[1]، كانت تقع إلى جوار الشرفة ذات اللمبة المضاءة، كنت أستطيع بفضل الظلام أن أرى غرفة النوم المضاءة، حيث توجد طاولة إلى جوار النافذة كان يعتمد عليها فالنتين أثناء استذكاره، كان فالنتين يظل هناك طوال ساعات المساء والليل فى الصيف أو الشتاء.

بخلاف لقاءات محل حلوى فويس لا أعتقد أننى رأيت فالنتين يفعل شيئا آخر غير الاستذكار فى غرفته، شقيقاى، اللذان لا يعرفان الاستذكار مثلما كنت أنا بعيدة عن ركوب الدراجات كانا يعتبرانه شخصا شاذا، أنا فى السر كنت معجبة به، وهذا لا يعنى أننى كنت أحلم بالتنزه برفقته تحت ضوء القمر، فقط كنت أحب مراقبته أثناء استذكاره، كان يقضى أوقاتا طويلة مركزا بصره فى مجلدات الطب

(١) فالنتين فوستر، شخصية حقيقية وهو جراح عالمى يعمل مستشارا للأمم المتحدة فى الشئون الصحية.

fb/mashro3pdf

الضخمة. لم يحدث مطلقا أننى فكرت فى استبدال الأدب بطبه، لكننى كنت استمتع بمقارنة طريقة كل منا فى القراءة.

بعد أن أراقبه لفترة طويلة كنت أعود إلي غرفتى واعتمد بكوعى على طاولتى واقرأ، فقط، إن رأسى، كما كان يقول أبى، كانت مليئة بالعصافير وأصوات أخرى لم يكن من الممكن أن تدخل إليها القواعد الأساسية للمعلومات التى تتطلبها الشهادات الجادة.

كان أبى يحب رؤيتى وأنا أدرس الصيدلة.

- بذاكرتك العجيبة يمكنك أن تتذكرى كل رموز وكلمات الكيمياء.

لكنى أعرف أنه كان يمكننى أن أكون متمردة علي هذه الرموز.

تماما كفالنتين، كان أبى يقضى الساعات مرتكزا بكوعيه علي طاولة المكتبة يقرأ، أحيانا يرسم، لكن على العكس من فالنتين، كان أبى يصحب هذه اللحظات بكئوس من الكونياك أو الجن.

- الكحول يقتل ببطء.

كان الصوت يقول لى حتى لا أقلد أبى.

حينها كان أبى يبتسم، يريد أن يموت فى ريعان شبابه، كان يطلب منا أن نساعده على الموت ليس بعيدا جدا عن موعد موت أمى، يوم قديم نقارنه بالأيام الأخرى.

كان الكحول يساعده علي تحقيق قراره الانتحارى، لكن الكحول كان يبعده عنى وعن الكتب التى كنا نشترك فيها، كان الكحول يدفعه إلى كتابة وصايا غير مطلوبة، ويدفعه إلى ممارسة لعبة الاستخفاء فى المكتبة.

حذرنى الصوت يوما:

- ابحثى فى أرفف مكتبته، فى الفراغات التى توجد خلف الكتب، فى الدواليب التى يحتفظ فيها بالمجلات.

fb/mashro3pdf

بدأت أنا البحث خلف الكتب وأخرجت زجاجات الكونياك والجن الفارغة التى كانت مرصوصة أفقيا حتى لا يكتشفها أحد.

كنت أتساءل عن سبب قيام أبى بإخفاء تلك الزجاجات الفارغة التى لا مكان لها فى المكتبة. المكتبة ليست مشربا، إذن ما العلاقة بين الزجاجات والكتب؟.

كان أبى يشرب لينسى هوايته الحقيقية فى القراءة والكتابة، لهذا السبب كان يقيء غضبه ضد الكتب، لأنها تخبيء شواهد جنونه.

كنت القى بالزجاجات الفارغة إلى القمامة وكنت أنساها بالسرعة نفسها التى كان يخفيها بها أبى، بشكل ما كنت أساعده على إخفاء حزنه، كان أبى سكيرا صامتا ومسالما، من أولئك السكارى الطيبين، ذوى الشفاه الغليظة الساقطة، والنظرة الزائغة، قليلى الكلام، يجذبك بحزنه كرجل أرمل.

لكن الحياة وقتها كانت سهلة، وكان يمكنه أن يطلب المساعدة من أى جار له.

- أبى يشرب أكثر من اللازم. لذلك سيموت لهذا السبب.

كان يمكننى أن اقفز على الباب الحديدى وأن اطلب المساعدة من آل فوستر، جيرانى العنيدون.

- هيا يادكتور فوستر، تعال حالا، من فضلك، أن أبى يخفى الزجاجات الفارغة فى ارفف الكتب.

وأى طبيب نفسانى حقيقى كان يمكنه أن يحل المشكلة، أو على الأقل جزءا منها، وربما أنقذ هذا أبى.

ربما كان الدكتور فوستر الأب أو الدكتور فوستر الابن يمكنه أن يكون منقذ الأسرة، أحيانا لا يعمل القلب لأن العقل لا يعمل، وأخصائيو الحالتين كانوا من جيراننا. كان يمكنهم أن يطيلوا من عمر أبى، لو أن أحداً طلب منهم ذلك، أفضل أن أنسى هذا الموضوع.

فترة اكتشاف الزجاجات اتفقت مع انقطاعى أبى المفاجيء، تقلص عقله، جهاز

fb/mashro3pdf

القراءة والذاكرة انفض إلى حده الأدنى، نسى فجأة كل سوناتات جوزيب كارنر التى كان يقرأها على فى صغرى.

كنت أتذكر وجه الشاعر جابرييل فراتر [1] بسبب تشابهه مع وجه أبى. فراتر مكنه من اكتشاف أدب الشاعر فويس الذى أدى إلى انتحاره، مات قبل أبى بوقت قليل، وأن قد مات بنفس مشكلة الإدمان على الكحول.

كان على أن أحاول بكل ما أملك إبعاد اندفاع أبى الانتحارى.

كان يقول لى الصوت:

– يبدو أنه لا يشرب، لكنه يشرب، لم أره أبدا فى حالة سكر، لكنه ليس على ما يرام.

كان عقله يتجه نحو الانحدار، من المؤكد أن هذا نتيجة للكحول، أبى لم يعد ذلك الأب الذى كان، قليلا ما كان يتكلم، ويتحرك بشكل سيىء، عقله يتضاءل، كما يقول الأطباء، وهذا كان يحوله إلى شخص آخر ، وإلا كان من المستحيل فهم ما يحدث.

أو أننى لم أفهم لماذا قرر أبى توزيع مكتبته بين شقيقى، ولم يترك لى منها شيئا، لقد قرر نسيان الابنة الوحيدة التى تقرأ، ربما كان ذلك نتيجة نصيحة سيئة، لقد قرر أبى أن الأدب لا يجب أن يكون هدف امرأة فى الحياة.

ضعف الآباء يدفع بالأبناء إلي حافة الجحيم، لم يكن ينقص سوى قرار عبثى لألقى بنفسى إليه، غير أبى فكرته عنى بسبب الخمر، وعقله الأخذ فى الضعف، فقرر أن يورث مكتبته لمن لم يبدو اهتماما حقيقيا بالقراءة، ولم يكونوا يرافقونه فى الصلاة أمام قبر أمى.

كانت الحرب الأهلية الأم الميتة ليتيم الحياة الذى كان هو أبى، خطمته الحرب إلى نصفين، لا أمى الميتة، ولا بيت بيدر ألبس الذى كان حلمه المأمول استطاعا إقناعه باتخاذ موقف مفيد، تحول برج بيدر ألبس إلى مصحة فشله، كثيرا ما كان

(١) جابرييل فراتر شاعر اسبانى يكتب باللغة القطالونية.

fb/mashro3pdf

يحدثنا عن الدراسات التى كان يجب أن يدرسها لو لم تقصم الحرب ظهره، كما قصمت ظهر بعض زملائه فى الحياة، لحسن الحظ فإن القراءة كانت تدفعه إلى الانغلاق فى فشله، كلهم كانوا يموتون وفى فمهم كلمة صامتة، يهيمون خانعين، كانوا يأتون للمشاركة فى الأحاديث اليومية ويخرجون منها زرق الوجوه تماماً كذلك الشفق الذى كان يأتى بحثا عنهم كل صباح.

كيف كان يمكن للدكتور فوستر أن يفهم تعلق أبى بالماضى؟ أو من يعرف أن الدكتور ربما كان يراقبنا من شرفته فى ليالى الصيف؟ كنت مقتنعة أن بيتنا كان جزءا متصلا بالمصحة التى كان يعيش فيها المرضى الميئوس من حالتهم.

كان الصوت يهمهم:

– كما لو كنتم تحاولون التشبه بحياة الأشباح الذين يعيشون فى المبنى المقابل.

كنت أخفى نصوصى غير المقروءة خلف كتب مكتبة أبى لترافق زجاجات الخمر الفارغة، كان الأدب مختبئاً خلف الكتب كما لو كان الشكوى الدائمة للأم الميتة.

كان برج بيدر ألبس بيتا واسع بشكل كاف لعائلة مثلنا، كان هناك مكان كاف للموتى وأشباح الموتى، كان لأبى عدة غرف يستخدمها وحده، غرفة نومه كان لها حمام خاص، المكتبة يفضى بابها الأول إلى الصالون الرئيسى، والباب الآخر يفضى إلى صالة زجاجية مضيئة يحجزها عن الحديقة وحمام السباحة شبابيك زجاجية ضخمة، كنا نحن الأطفال نحترم أماكن أبى الخاصة. تعلمنا بشكل ما عدم اختراق صمته اليائس.

كان بيتا دافئا ومحببا، كانوا يقولون إنه كان بيتا جميلا وجذابا، تماما كما كانوا يقولون عن أمى، لم يكن من السهل على أن افصل البيت عن شخصية أمى، أو بمعنى أصح كنت أضع أمى دائما فى البيت، كلاهما كان شيئا معقدا.

fb/mashro3pdf

أبى، كان محبا للفنون الديكورية، كان يفهم فى الستائر المشغولة التى تصنعها نساء ماهرات، وكان يجيد تنظيم المساحات الداخلية لتشكل مساحات رحبة، من المؤكد أنه كان بإمكانه أن ينجح فى ممارسة أى فنون من الفنون، وربما كان هذا هو السبب فى أنه لم يحاول أن يركز على أى فن، فكان نصف معمارى، نصف رسام، ونصف روائى، ربما كان بإمكان أبى أن يكون أكثر من ذلك، لو لم تحدث الحرب الأهلية الأسبانية. ربما كانت تلك الحرب اللعينة هى السبب فى الحالة التى وصل إليها.

كان لأبى عشق خاص فى تحريك الأثاث من أماكنه وتوزيعه من جديد، كان يستمتع بإدخال تعديلات فى ديكورات البيت، ودائما كان يفعل ذلك للأفضل، يمكننى أن أتجرأ وأقول (وإن كان من الصعب قوله بجدية) إنه كان بيتا سعيدا.

كان ضيوفنا يقولون :

- إنه بيت لا يمكن أن يقول عنه أحد إنه تنقصه الزوجة أو الأم، أنه بيت خاص.

النظام الذى كان يفرضه أبى بشكل طبيعى كان يبدو انتقادا للنظام الجمالى لبرجوازية ذلك الزمان، على الرغم من أنه لم يكن نظاماً جماليا لمهندس معمارى متحرر، بل كان جماليا، ويكاد يكون عاما فى البيوت المجاورة، كانت الغرف مدهونة بألوان خريفية، والأرضيات مزيج من الموزايكو القطالونى والباركيه الخشبى، وقليل من السجاد، لأن أبى كان يعتبرها من الأشياء المستهلكة، كان هناك الكثير من فازات الزهور، والشبابيك الكبيرة كانت تجعل من الصعب التخفى من الليل الذى يزحف على الحديقة ويجعلنى أتخفى كالهنود الحمر هربا من قلقى الليلى.

لا يمكن لأحد من الوهلة الأولى أن يقرأ أنه بيت تعس، تعيش فى داخله أسرة محطمة تتعايش مع الأشباح، كان البيت مفتوحا دائما لأى زائر سواء كان لأشخاص معروفين لنا أو غرباء عنا، أشخاص طيبون أو سيئون، كان بيتنا يرحب

fb/mashro3pdf

دائما بالزائرين، ولم يكن يمر يوم واحد دون أن تكون هناك زيارة، كان يكفى دفع بوابة الشارع الحديدية للدخول إلى الحديقة والوصول بشكل مفاجىء إلى جانب حمام السباحة، بينما نكون نحن فى داخله، أو تحت السقيفة الزجاجية، أو أثناء قيلولة الصيف، أو قيلولة الشتاء، أو نكون فى غرفة الطعام، وأثناء الأكل، أو عندما يكون كل منا فى غرفته، الأسرة والأصدقاء كانوا يزورون أبى كما لو كان عارفا بالله طيب القلب ومالكا للقبول، يأتى لقضاء بعض الوقت فى البيت، كان هناك كأس من الكونياك جاهز دائما على المائدة الصغيرة، إلى جوار صبر أبى الطويل لسماع جميع الزائرين.

لم أر فى حياتى شيئا مثل هذا، وأتساءل ترى ما هو وراء أن الجميع شبابا وشيوخا يبدون سرورا لزيارتنا، يبدو البيت سعيدا، لكننا نظل نحن أناسا تعساء وعزلتنا تبدو كاملة، على الرغم مما يتمتع به أبى من حس منزلى، فإن غياب سيدة البيت يبدو ظاهرا، وربما كان هذا أحد أسباب الزيارات المتكررة التى تأتينا، ربما كانوا يشعرون بالانجذاب إلى نوع من الحياة غير الواقعية التى يعيشها هذا البيت، لذلك فى الحقيقة يوما بعد يوم وسنة بعد أخرى تبدو أمى لاتزال تسكن البيت.

يأتون أيضا للتأكد من الركن الذى تختفى فيه أمى، ورؤية لماذا يتحرك كل شىء فى البيت بشكل طبيعى.

كل شىء يجرى بشكل طبيعى، كل الأشياء العملية تبدو طبيعية، ومع ذلك تأتى خالاتى لمراجعة تصحيح الأوضاع من وقت لآخر.

كانت تعلمنى خالتى كارمن:

- افتحى حنفية المياه الساخنة، وامسكى المشط بيد وفرشاة أظافر فى الأخرى، ضعى عليها بعض الصابون وحكى حتى تخلصى المشط من القذارة.

وبينما الخالة كارمن تعلمنى بطريقة عملية كيفية تنظيف المشط كنت أرى كيف أن خالتى تنتهز الفرصة لتتلصص بحثا عن الركن الذى تختبىء فيه أمى.

fb/mashro3pdf

وإذا لم تكن هى، ربما يكون هناك شخص خفى ينظم الأشياء على الموائد، موازنة اللوحات المائلة على الحوائط ووضع الزهور كل فى فازاتها المناسبة.

أبى، استطاع أن يضع حضور أمى فى كل مكان يجب أن تكون فيه فى الواقع، كان السبب فى أن تراقبنا أمى ليل نهار من الحياة الأخرى، أى من هناك، من الغرفة المجاورة، حيث تبحث عنها خالتى كارمن باهتمام حقيقى.

حضور أمى هذا، كان يبدو لزوار البرج نوعا من الجاذبية الميتافيزيقية والترفيهية فى الوقت نفسه. كان يضفى على غرف البيت نوعا من السحر، أو اللاواقعية المؤثرة، حقيقة، كان بيتى يبدو بيتا من عالم آخر.

نظرا لمحاولات اللصوص المتكررة لدخول البيت، أشاروا على أبى أن يضع أقفالا على الأبواب والنوافذ، لكن أبى كان دائما ما يرد:

– الأمر لا يستحق وضع أية عوائق، على العكس، البيت المفتوح دائما يدفع اللصوص إلى التفكير بأنه لا يوجد شىء له قيمة فيها، وإذا دخلوا فإنهم يفعلون ذلك بلا عنف، بلا سلاح ولا أسلحة حادة يمكن أن تؤذينا.

واستجابة لأبينا، فان اللصوص كانوا يدخلون ويخرجون إلى البيت كما لو كانوا زائرين نهاريين، يسرقون ما يستطيعون ولا يؤذوننا جسديا.

مع مرور الوقت لم يعد هناك ما يستحق السرقة، ففى سنوات قليلة سرقوا كل ما له قيمة من أوان فضية وماكينات تصوير، سرقوا مجوهرات أمى، إلى أن تخلوا أخيرا عن زيارتنا، وحين يظهرون مجددا بشكل مفاجىء فإنهم يبحثون فى جيوب سراويل أخوتى النائمين ويأخذون النقود القليلة التى يجدونها.

كان الصوت يحمينى، قبل أن يظهر اللص فى غرفتى، كان الصوت يوقظنى.

كان يقول لى:

– هناك رجل فى البيت، احترسى، لاتصرخى.

لأن هذا هو بالضبط ما أريد فعله، الصراخ، طلب المساعدة، إيقاظ أبى، أو أمى رغم أننى أعرف عدم جدوى ذلك.

fb/mashro3pdf

اعتادت البنات الصغيرات والمراهقات على تخيل اللصوص الليليين، أنا لم يكن ممكنا أن أتخيلهم، لأننى بالفعل، لو كانوا فى بيتى، قد أموت رعبا، مثلا، أن أقشعر تحت الغطاء المبلل بالعرق، أو يصيبنى الشلل والخرس عندما اسمع وقع الأقدام، أو سماع صليل مفاتيح الأبواب على الرغم من الخبرة التى يتمتعون بها.

كان الصوت يسمح لى أن أشعر بالرعب، كان يدفعنى إلى الاستيقاظ وأن أضىء النور، وأخرج «ياله من رعب» من غرفتى، كمجنونة.

كانوا يقرظون فى البيت حدة سمعى، سمع يستطيع سماع الأصوات المستحيل سماعها، حتى سماع صليل النقود الصغيرة فى جيوب سراويل أشقائى النائمين.

«إنه ذنب الصوت – كنت أريد أن أقول – كان يوقظنى ويجبرنى على أن أفعل أشياء شاذة لتخويف اللصوص».

كان الصوت يحولنى الى شبح أبيض، شبح أكثر إرعابا من اللصوص أنفسهم.

كان يوجهنى بحزم:

– عليك أن تخيفى اللصوص، هيا، اسرعى.

وهذا ما كنت أفعله، افتح وأغلق الأبواب التى أصادفها فى طريقى.

إضاءة جميع لمبات البيت، كان ذلك بلا خوف أو دوار، كنت اهبط على السلالم الخشبية التى تئن، إلى حيث من المؤكد أن اللصوص اختبئوا.

كنت أفعل كل هذا لأخيف اللصوص وربما تخويف المجانين الذين أمامنا، لأنهم ربما استغلوا دخول اللصوص لبيتنا ليدخلوا هم أيضا، كان علىّ أن أفعل كذا لأخيفهم، أبعدهم بسرعة، كنت أفعل كل هذا: الجرى من أقصى البيت إلى أقصاه، دون صرخات أو ضوضاء، تماما كما يمليه على الصوت، لكن، كنت أحادث نفسى يعتقدون أنهم أتوا لسرقة بيت مسكون بالأشباح، بيت ملىء بالأشباح الليلية كثيرة الضوضاء التى لاتبالى بشىء.

fb/mashro3pdf

فى أحيان كثيرة كان اللصوص يخرجون من بيتنا ليسرقوا مصحة المجانين.

فى بيت متسع مثل بيتنا، بيت لاتحده حدود معروفة، وحيث لا يستطيع أبى أن يشكو عدم قدرته على الاختلاء بنفسه، هناك المكتبة والصالون والصوبة الزجاجية وغرفته التى يعتبر صاحبها الأوحد، لكن فيما يبدو أن أبى لم يكن يرى فى كل هذا متسعا له، ويرغب فى المزيد، لذلك قرر أن يجرب شيئا دون أن يخبرنا به، إلا أنه فى يوما ما، ودون أن نفهم السبب، قرر أن يشركنا فى تجربته الجديدة، وقبلها كانت هناك تجربة أخرى، تجربة الدير.

تجربة قدمها لنا فى شكل مفاجأة كبرى، جمعنى وشقيقى فى يوم سبت بعد تناول طعام منتصف النهار.

قال:

- اصعدوا إلى السيارة، لقد أعددت لكم مفاجأة.

كانت تفوح فى المناخ رائحة المقابر، كانت قد مرت سنوات على تلك الزيارات التى كانت تتم أيام الآحاد والتى لم يعد يذكرها أحد، مع ذلك توقع ثلاثتنا ماهو أسوأ، ملامح أبى المرسومة على وجه جعلتنا نتوقع غير ما اعتدنا عليه، عندما يكون أبى سعيدا، وهو قليلا مايشعر بالسعادة، نخشى مايخبئه لنا، حينها يصيبنا الخرس، ولم نتحدث فى السيارة عن أى شىء ونحن فى طريقنا عبر شارع مونتانر، عبرنا المدينة كلها وتوقفنا فى «جران فيا».

قال أبى عند إيقاف السيارة:

- إنه هنا .

أشار إلى مبنى من الشقق السكنية يقع إلى بالقرب من مشرب الأورتشاتا الفالنسية [1] تبعناه فى طريقنا إلى بوابة المبنى، دخلنا بعد ذلك فى المصعد إلى أن وصلنا إلى الطابق الرابع، هناك أخرج أبى مفاتيح من جيبه وفتح أحد الأبواب.

---

(١) الأورتشاتا مشروب صيفى بارد أبيض اللون يتم إعداده من مزيج عصيرحب العزيز واللبن وتشتهر به منطقة فالنسيا التى تقع علي شاطىء المتوسط حيث يكثر نخيل حب العزيز.

fb/mashro3pdf

قال معلنا:

- هذه الشقة.

كانت المفاجأة عبارة عن تلك الشقة، لم أعرف هل أغلق أم أفتح عينى، كنت أريد أن أغلقهما لكنهما كانت تفتحان، مع ذلك كنت أريد أن أعرف قبل أن أنظر من حولى أن أسمع صوت أبى يشرح هذه الشقة الغريبة حديثة الطلاء.

سأل أحدنا، وربما كنت أنا أثناء فتح عينى:

- هل هذا بيتنا الجديد؟

ابتسم أبى.

فكرت ساعتها فى التعاسة التى تعنى مغادرة برج بيدر ألبس المفاجئة لنعيش فى هذه المفاجأة المرعبة.

لمعت عينا أبى، كان يريد الاستسلام، لكن الابتسامة تأتى فى أوقات معينة، دون الاجتهاد فى تصنعها ، لم يكن أبى يشبه أبى، تحول فجأة إلى مهنى متخصص فى تأجير الشقق، اجتهدت لكى أفتح عينى أكثر، كان أبى يخفى شيئا.

من خلال نافذتى الصالون الصغيرتين يمكن رؤية أشعة المساء تسقط على جران فيا.

كانت للشقة خصوصيتها، حينها طرأت على ذهنى فكرة أنها تصلح للنشر فى مجلة للديكورات الحديثة والجريئة.

- زينتها بنفسى.

قالها أبى بخجل فى اللحظة التى اكتشفت فيها وشقيقى البار الصغير الذى يفصل الصالون الصغير عن المطبخ .

كان الأثاث من خشب الصنوبر المدهون بالورنيش، ينتمى إلى نظام عملى إيطالى يعود إلى فترة الستينيات، المقاعد والموائد كانت لها أرجل رقيقة ملتوية، ومبطنة بقماش القطيفة الأزرق والأحمر الغامق، أرجل قطع الأثاث رقيقة مؤنثة،

fb/mashro3pdf

كانت هناك أكواب جديدة على الموائد، ومنفضات سجائر ملونة، فكرت قليلا وأردت أن أغلق عينى من جديد.

«تحول أبى إلى مهندس ديكور شقق ويستغل أمسية السبت ليعرض أعماله الفنية على أبنائه».

هذا ما كنت أريد أن أفكر فيه، هذه هى الحكاية الممكنة والحقيقة من الوهلة الأولى، لكن مع ذلك كان يجب التكهن بالحكاية كلها انطلاقا من لحظات الصمت التى كانت ترون على أبى، وكانت تتكون فى الآتى: سيظل برج بيدر ألبس البيت العائلى وهذه الشقة ستصبح المكان الذى يمكن لأبى أن يجتمع فيه بأصدقائه.

«ترى مانوع الأصدقاء الذين يمكن أن يجتمع بهم أبى فى هذه الشقة؟» تساءلت:

بعدها بقليل أجابنى الصوت:

– أجر أبوك هذه الشقة إلى جوار مشرب الأورتشاتا الفالنسية لتكون ملجأ لغرامياته.

اختفت الشقة من ذاكرتى فورا، كأنها لم تكن، لكن بقى شىء من كل هذا شىء سكن هناك فى الداخل، شىء صعب وقاس بقى داخل شقيقى بالذات، وهما الأكثر براءة، اللذان لم يتحدثا مطلقا عن هذا الموضوع، موضوع حدد مصير حياتهما، بكل وضوح وقوة، لم يكن لأحد أن يتخيل أن مجرد شقة يمكن أن تحدد حياة شقيقى الاثنين.

فقد اختار شقيقى الأصغر طريق الدير، دخل فى حضرة الجماعة الدينية التى كان يميل اليها أبى، تحول إلى راهب فى دير بوبليت، ولا يزال هناك متخفيا خلف أسئلته الكثيرة وملابسه السوداء والبيضاء، وواجباته الرهبانية، إضافة إلى واجباته الصوفية، على الأقل هو يهتم بمكتبة الدير، لكنه تحول إلى مجرد راهب، وهو مايعنى أنه اتبع طريق أبى.

fb/mashro3pdf

على العكس من ذلك تماما كان شقيقى الأكبر، الذى وجه عنايته نحو جمع الشقق ليستمتع فيها بغرامياته ، ويتاجر فيها.

لايزال شقيقاى يبحثان عن طريق أبى.

حالتى كانت مختلفة، بقيت أنا فى بيت بيدر ألبس كحارسة أمينة على برجه، سجينة فى البرج برفقة روح أمى الجموح.

لكن حدث شىء آخر، بعد سنة، حاول أبى للمرة الثانية أن يأخذنى إلى تلك الشقة المنسية فى جران فيا، فعل ذلك كرد جميل، كرد فعل تاريخى نتيجة الديمقراطية الإسبانية وحرياتها الثقافية.

قال:

– فلنذهب الى «جران فيا» لنرحب بالرئيس «تارادياس» [1] من الشرفة.

ركزت على كلمة شقة، كانت وقتها لها وقع سيىء، فى زمن يبدو سعيدا، ومقدسا، استطيع أن أتجرأ وأقول كان وقتا أسطوريا.

كما لو أن ذلك الاحتفال بالترحيب بالرئيس تارادياس القادم من المنفى يمكن أن يشفع لوجود تلك الشقة.

إعادة الحكم المحلى بعودة تارادياس كان حدثا لاينسى، خرجت برشلونة عن بكرة أبيها الى الشارع لترحب به وتراه قادما فى سيارة مكشوفة، يسير فى جران فيا كما لو كان رئيسا أمريكيا.

أصر أبى:

– لحسن الحظ أننى مازلت احتفظ بتلك الشقة.

وهكذا منح شقفه الغامض القديم معنى رسميا، بل وأسطوريا.

هذا حدث بعد سنوات طويلة من نزهة السبت التى حددت مصير حياة أبنائه، كنا قد كبرنا، ولكننا كنا لانزال ننتظر المزيد من المفاجآت.

---

(١) جوزيب تارادياس «١٨٩٩ – ١٩٨٨» سياسى كان من أبرز الداعين الي استقلال قطالونيا عن إسبانيا، وعاش فى المنفى لسنوات طويلة ثم عاد بعد رحيل الجنرال فرانكو عام ١٩٧٥، وكان أول من تولى منصب رئيس مقاطعة قطالونيا بعد وعوده الديمقراطية على إثر انتخابات عام ١٩٧٧.

fb/mashro3pdf

كنا فى شرفة جران فيا نتأمل موكب الرئيس والجمع المصفقة عندما قال:

– ربما يكون الاحتفال العائلى القادم بزواجى.

بهذه المناسبة جمع أبى فى الشرفة جمعا كبيرا من الأقارب، أقربهم إليه كان لايزال يصدق أن أبى أجر هذه الشقة لهذه المناسبة التى لا تنسى.

أطلقت إعلان زواجى بصوت مرتفع حتى يسمعه الجميع، وبشكل خاص «اسونثيون» صديقة أبى.

حاول أقاربى إخفاء مشاعرهم، كانوا يشعرون بالسعادة ويهللون لرؤية رئيس قطالونيا الجديدة بحيث أنهم لم يهتموا بحماقاتى، عندما كنت أفتح فمى كان يصيبهم الرعب.

«فى أى مشاكل ستضعينا الآن؟» كنت أرى ذلك فى وجوههم المرتعبة.

إلا أن اسونثيون أبدت اهتماما بمشروع زواجى، لأن تطلعاتى كانت تتوافق مع تطلعاتها الزوجية.

كان رئيس حكومة قطالونيا يصرخ من الشرفة:

– يا أهالى قطالونيا، أنا هنا.

ومن شرفة جران فيا كنت أنا أصرخ بمشروع زواجى من بدرو بارامو.

بدرو بارامو الذى لم يكن يعرفه أحد.

كانت اسونثيون الوحيدة التى استقبلت كلماتى بجدية.

سألتنى بشكل يجعلها تؤيد مشروعى:

– متى يكون العرس؟

غامرت بالقول:

– خلال شهرين.

انتبهت حينها إلى أننى تحدثت دون استشير بدرو بارامو.

أبدت اسونثيون سعادة غامرة، كان وجهها يطلب من ريح الشرفة أن يخفى الرئيس تاراديأس، كانت تنتقل فى أنحاء الشرفة مغمورة بالخبر.

fb/mashro3pdf

كانت أسونثيون تقول بسعادة وابتسام:

- ستتزوج، إنها جادة فى الأمر.

طبقا لرؤيتها، بفضل زواجى يمكن لأبى أن يتزوج من جديد، بزواجى تختفى عقبة عاطفية، العاطفة الكبرى لابنة ملعونة تسكن جلد الأم.

- من من ستتزوج؟

تساءل أقاربى.

أجبتهم أنا:

- من بدرو بارامو، كاتب مكسيكى.

- من؟

شخص مجهول فكرت . خطأ من أخطائها المعتادة، تراجع من فتاة قطالونية فى وقت ترحب فيه بالرئيس تارادياس.

لم يمر وقت كبير قبل أن تتحالف أسونثيون مع بدرو بارامو، حددت موعد الزواج مع زوجى المستقبلى، تحالفا معا بشكل من الأشكال.

كان أبى يحتضر فيما أنا لا أفكر سوى فى زواجى، سيبقى أبى فى برج بيدر ألبس، وأنا لا أفكر سوى فى زواجى، هذه الأشياء كان يأخذها أبى علىّ فى صمت عندما كان يحادثنى بالتليفون ليلا، كان يئن بسبب الخمر والحزن.

كان عقل أبى يضمر، وأنا لا أفكر سوى فى زواجى، عندما يضمر العقل فلا أهمية للخمر.

إلا أن زواجى من بدرو بارامو لم يكن السبب فى قتل أبى، إذا كان هناك شىء دفع به إلى الموت فإن ذلك كان زواجه هو وكل الخمر والزواج سببا الموت، الخمر كان يدفعه إلى كتابة وصايا ما كان يجب أن يكتبها، وأسونثيون، هى وأنا، ابنته الكاتبة، كنا سبب موته، عندما أخبروه بأن ابنته تكتب كتابا، رواية فضائحيه تقص حكاية الأب والابنة، كان ذلك كارثة، كانت الخنجر الذى قضى عليه بالموت.

طلب منى بدرو بارامو أن أتعلم منه رواية قصة حياتى، رواية قاتلة.

fb/mashro3pdf

كان لزوجي رأى خاص جدا عن الأزمات العصبية والأسباب التى منعونى بسببها من الكتابة، الكتابة الخفية.

كان دائما مايقول:

- الكتابة قد تخفف من بعض أنواع الاكتئاب الحادة.

فلا يعرف الواحد منا إن كان مريضا بالأدب أم أن الأدب هو المريض.

فى البداية كان كل شىء مؤلما، عندما هاجمتنى حمى الأهل والأدب، جاءتا معا كما لو كانتا توأمان، طبقا لحالة الكتابة.

عندما كان بدرو فى حالة صافية كان يقول:

- الرواية التى أكتبها الآن عبارة عن قصة حياة ميتة.

وهذا الفكرة لم تكن محببة الى نفسى اطلاقا، لكننى لم أكن أملك شيئا لأفعله أمام فكرة قاتلة، كانت رغبتى فى أعماق روحى أن أكتب مثل ديكنز، وعندما حاولت إرضاء أبى بنسخ كتابة ديكنز كانت صفحاتى تتمرد على أهدافى وكانت تتحول إلى نصوص لنساء مجنونات.

كان ديكنز أحد المؤلفين المفضلين لدى أبى، لكنه كان أيضا شيئا أكثر من هذا، الكتابة مثل ديكنز كانت بالنسبة لأبى تعنى أن أدخل فى الخصوصيات وأترك عائلتى بعيدا، يبدو أن هذا هو ما كان يفعله ديكنز دائما، كما يقول، أعلى درجات الخجل فى الأدب.

بعد سنوات من تمكنى من قراءة ديكنز كما يجب، وبعد أن تعلمت منه كل شىء تقريبا وتمكنت من أن أستجيب لأبى بشأن الخصوصيات، كان أبى حينها قد مات، بمعنى أننى لم أتمكن من الاستجابة له أبدا.

- لا أعتقد أن والد ديكنز الحقيقى كان يجب أن يرى نفسه فى ميكوبر، تلك الشخصية التى يطبعها الاهمال، والثرثرة والتبذير، كما كان والد ديكنز.

لكن والد ديكنز لم يكن يقرأ ولم يكن محاطا بالكتب كما كانت جزيرة أبى

fb/mashro3pdf

الخجول، لم يكن ذنبه أن أبى ورث الخجل من الكتاب القطالونيين الذين سبقوه والذين كان معجبا بهم ربما كإعجابه بديكنز تماما.

كنت أتخيل والد ديكنز أحيانا يتمرد على ابنه المتحرر لأنه تجرأ على تحويله إلى شخصية روائية تعيش حياة أب سكير.

كنت أكتب، وعندما كنت أكتب، متخذة خطى الموتى، كان هناك أثر لصوت صامت ومدفون، صوت ضعيف كصوت مجنونة خرساء، المقابر كانت أكثر تأثيرا من الكتب، الموتى يملون نصوصا، كان يقول الصوت:

- لاتزالين تصرين على النصوص غير المنشورة .

كنت أعتقد أنه من الأفضل ألا أشير فى روايتى الى شقة جران فيا المشبوهة.

أيضا لم يظهر بيت أمراض الماريسمى فى تلك الصفحات، على العكس من ذلك تماما تكرر الأبطال الأساسيين فى حياتى.

مخطوطاتى كانت سرية، لا أحد، يعرف عنها شيئا عدا بدرو بارامو، نصوصى غير المنشورة كانت كالكنوز المدفونة، وكل ماهو مطلوب الآن عدم تركها تتعفن، يجب أن أتحلى بالشجاعة وانشرها.

- مبروك - قال بدرو بارامو - هنا توجد أفضل دور النشر باللغة الإسبانية، انتهزى الفرصة، هيا، لاتكونى خجولة، تقدمى وانشريها.

وكان يقول أيضا:

- أنت تفتقدين إلى الثقة فى نفسك، وهذا ليس أمرا طيبا إن أردت أن تكونى كاتبة.

كنت أعتقد أنا، أن كتابة جيدة تستطيع أن تكتب رواية وبعدها تموت أو تنتحر، كان يجذبنى عنوان «لاشىء» للكاتبة كارمن لافورت[1] لكننى كنت معجبة بتلك الكاتبة تماما كإعجابى بالصمت الذى أنهت به حياتها ككاتبة.

---

(١) كارمن لافورت «برشلونة ١٩٢١» كاتبة إسبانية تكتب باللغة القطالونية، من أهم أعمالها «المرأة الجديدة».

fb/mashro3pdf

ربما كنت أخشى الأدب، وإمكانياته القاتلة ولهذا كنت اخفى كتاباتى القديمة تحت الأرض ، احترازا.

الصوت، حينها، كان يتركنى فى حالى مع أفكارى الخاطئة، تحول الصوت فى وقت من الزمن إلى الصفحات القديمة لنصوص حياتى، المكتوبة باللغة الإسبانية.

– أنا هنا، فى الحدود المستحيلة لكاتبة قطالونية تكتب باللغة الإسبانية.

كنت أقول هذا لنفسى لأبرر لنفسى مأفعل.

«لكن ، أليس هذا مثيراً عميقاً بحثا عن التوازن» فكرت.

كان يشجعنى بدرو بارامو :

– المهم أن تكتبى.

كان تعبا من تشجيع كاتبة صموتة، كان بدرو بارامو يتجسس على مخطوطاتى غير المنشورة ويقول، كما لو كان يلعب:

– دعى أمواتك يستريحون، أفعلى ما يأمرونك به ربما بذلك تحصلين على مالا تتوقعين.

– كارمن لافورت ماتت؟

كنت أجيبه أنا، حالمة بإمكانية أن أقلدها.

لم يكن أحد يعرف، أنها تبخرت، كما لو لم تكن وجدت من قبل، هذا موت أيضا، أنه طريق طيب لكاتبة حقيقية، بالنسبة لكارمن لافورت ابتلعتها الأرض كمخطوط قديم.

– انبشى كل مخطوطاتك.

كان يكرر وقتها بدرو بارامو.

حياتى كلها كانت اقتناصا .

من حين لآخر كنت أنظر إلى صورة الكاتبة المختفية كما لو كانت صورة أمى واطلب منها العون، لكن الكتاب عندما يموتون لايحركون ساكنا لمساعدة من بقوا على قيد الحياة.

fb/mashro3pdf

– قصى على، إذن عن أى شىء تتحدث الرواية التى ستكتبينها؟

كان يقول بدرو بارامو كاظما غيظه من كتاباتى غير المنشورة.

كما لو كان من الممكن حكاية الروايات، بالتحديد الرواية تكون رواية ببساطة لأنه ليس من الممكن حكايتها، وهذا هو سر الروايات، الرواية هى همهمة الخلود، صورة خاصة جدا، اعتراف خفى نصف معلن، من الخطأ الكشف عنه.

بسبب سر أننى روائية أصابنى الصمت.

– يقولون إنه أمر مخجل، وعدم احترام لأسرتها.

أو ربما:

– اصعب شىء كتابة رواية يمكن حكايتها.

لكن الأكثر صعوبة فى هذه اللحظة هو إخراجها من مخبئها.

نتحدث دائما عن الموتى، أحيانا نتحاور ونتجاذب بسببهم، نحلم أحيانا بأن لنا أبناء ونحلم أيضا بالمشاكل التى تحدث بيننا بسبب هؤلاء الأبناء المفترضين الذين يسمعوننا نتحدث عن الأدب.

– لاتتحدثوا عن الأدب.

يرجونا أبناؤنا المفترضون.

وعن أى شىء كان يمكننا أن نتحدث إذا كنا قد متنا ومحكوم علينا بالفناء مسبقا.

فى بعض الأحيان يضىء نور ويفتح أمامى طريقا يمكن أن يكون مفيدا لى ككاتبة ، لكننى لا أثق وارفض المرور.

حينها يستعد بدرو بارامو للقفز على الجسور لإنقاذ مخطوطاتى، من المؤكد أنه يفعل ذلك ليقنعنى بأن كتاباتى كانت ملعونة، وأن هناك روايات فى الدنيا مكتوبة على لسان موتى، وأن تلك الروايات قليلا ما تنشر.

– هناك قبور كثيرة – ويضيف – ولا حتى الله يريد أن ينبشها

fb/mashro3pdf

أراد بدرو بارامو أن يضع عظامه مع عظام موتاى، وأن يرسلنى الى المكسيك، أى مكان بعيد، بعيدا عن الصمت.

لكن حلمى لم يكن يتطابق مع ذلك الحلم.

حينها كان يغضب يهجر البيت، يختفى ليومين، كنت أمزق أنا أوراقى لأسرع بمرور الساعات، وأعيد جمعها بعد عودته كما لو كان هناك علاج لذلك الانفصال الفجائى.

كنت أكتب ضد بدرو بارامو، وضد حركاته الكسولة، ولهجته المكسيكية المتعالية.

ظلت الأوضاع معوجة ولم تكن هناك طريقة لإصلاحها.

كانت الأيام الأخيرة لبرج بيدرألبس، كنت أعود إليه من وقت لآخر لأزور أبى، كنت أعبر الحديقة، أترك الصوبة الزجاجية من خلفى، أصل إلى المكتبة وهناك أجده، جالسا، متناوما، دون أن يحمل بين يديه كتابا ليقرأه والكثير من العتاب، كنت أجهل أكثر الاتهامات، وأبى، فى الحقيقة لم يعرف كيف يوضحها، كان يخضع لأوامر، كان كما لو كان هناك من ثقب عقله بمثقاب ووضع فيه مجموعة من الاتهامات غير الصحيحة عن ابنته التى لاتستحق كل هذا، اشتعل ماتبقى فى عقله حتى حولنى الى عدوة له، على الرغم من أبى، الجالس وحيدا ضائعا مابين الكتب لم يعد قادرا على التذكر، ولم يكن يعرف السبب فى أننى تحولت فجأة الى عدوة له.

لم يعد البرج مفتوحا للزيارات كما كان من قبل، ولايكاد يزوره أحد، رغم كل هذا كنت أفضل زيارته أثناء الساعات التى تكون أسونثيون زوجته فى البيت، عندما يكون شخص آخر يبدو ألم أبى أقل عداء.

بشكل عام أجد أسونثيون جالسة فى الصالون تحيك أو تطرز.

على بعد أمتار قليلة يوجد أبى يتعارك مع الأرواح التى تهاجمه وتغمم عينيه وتدفع بشفته السفلى الى الأسفل، شفتان جافتان ومترهلتان، لم يكن يعرف أبدا

fb/mashro3pdf

أنى أضع على عينى نظارات معتمة حتى أنسى مشهد أبى هذا، لكن أحكامه المسبقة يمكن الإحساس بها حتى فى كتب مكتبته، التى لم تعد كما هى، تحولت إلى كتب مهملة، تدفع إلى الأسى.

حركاته الاتهامية كانت أكثر إيلاما وتبدو كشىء مثل هذا:

- انظرى كيف استطعت أن تدمرى مكتبتى بهجرك البيت.

وأيضا:

- إذا كنت ترغبين فى الذهاب فلتذهبى إلى الأبد، ولاتعودى أبدا.

من ناحيتى ، كنت أحاول أن أتجاذب أطراف الحديث مع أسونثيون للتخفيف من حدة العاصفة، كان أبى يطلب منى أن أبقى معه، وفى الوقت نفسه أن أذهب إلى الأبد، كيف يمكن احتمال هذا؟ كيف يمكن تنفيذ ذلك؟

كنت أتحدث عن أى شىء لتحاشى الحديث عن الكتب، أى نوع من الكتب، كنت أخاف أن يعود أبى إلى تلك الجمل:

- مثل «ديكنز» أكتبى مثل ديكنز.

كانت يتحدث عن عثراتى اليومية فى حياتى الخاصة، والنجاح القليل لبدرو بارامو الذى يحظى بتشجع أسونثيون، يتحدث عن أى شىء عدا الكتب ومحاولاتى الفاشلة ككاتبة كتب.

إلى اليوم الذى سمع فيه أبى تهديدى بكتابة ونشر رواية، تهديدى بأن أعيش حياة كاتبة متكاملة، كاتبة مستقلة عن شرف واكتمال كتابة ديكنز، فى ذلك اليوم كان أبى أكثر صمتا، لم يكن يريد أن يرانى، كانت أسونثيون تقول أشياء، تحاول تهدئة الأمور بينما كانت فى الحقيقة هى المسئولية عن كشف أسرارى، هى التى ربطت الأمور بمخطوطاتى الفضائحية، تلك الصفحات غير المقروءة التى تمرغ سمعة العائلة، وكانت أسونثيون التى تقول تلك الأسرار التى تتناولها الأفواه، فيما كان أبى يموت.

fb/mashro3pdf

– قيل لى إنك تكتبين رواية – تدخلت أسونثيون ما أن رأتنى ودون أن تتخلى عن تطريز جورب كانت تحيكه.

– قيل لى إنها رواية عن الأسرة، عن أبيك وأمك وزوجة أبيك وشقيقتك.

واصلت تطريزها كما لو لم تكن تتحدث.

– قيل لى إنك تمرغينا فى التراب، خاصة أبيك.

أصلحت من عقدة تطريز وعادت الى الحديث.

– قيل لى إن هذا مخجل، ويجلب الفضائح لأسرتك.

غيرت وضع الإبرة من يد إلى أخرى لممارسة التطريز.

– أيضا قالوا لى إنك تنشريها هذا مفترض.

بدت كلمة «هذا مفترض» قبيحة جدا.

حدث هذا بالضبط فى ذلك اليوم، الذى ذهبت فيه بمفردى، لزيارة أبى، دون أن يرافقنى بدرو بارامو، ربما كنا منفصلين وقتها، أو ربما لم نكن منفصلين، أو من الممكن أيضا، كان بدرو بارامو هو الذى اخبرهم بكتاباتى الفضائحية من المعتاد أن المصائب تأتى تباعا: الانفصالات الزوجية، الاتهامات، والفشل، لكن زواجى أو فشل زواجى لم يكن مهما فى تلك اللحظة، الاتهام الخطير كان يتمثل فى كتاباتى غير المنشورة التى تتراقص هناك كسلاح مشهور، لم يكن أحد يهتم بفشلى.

– ولن أقول لك من قال لى كل هذا وأكثر من هذا، وهو مالا أريد أن أتحدث عنه الآن حتى لا أجعل أبيك يعانى.

قصائد المعاناة، تلك كانت الفكرة التى فى رأسى والتى قدمتها عنى أسونثيون بنفاقها، كان مشروع كتاباتى، وحين يتم نشرها تصبح اتهامات «قصائد المعاناة».

كانت أسونثيون تحيك بينما كان أبى يموت فى كرسيه، مكلوما.

fb/mashro3pdf

منذ زواجه من أسونثيون لعب أبى دور الأب المتزوج المكلوم، تملك أسونثيون الآن الفرصة لتحلمنى مسئولية الألم الذى يعانيه أبى من زواجه الأول وحتى الأخير.

سألت:

- ماذا قالوا لك أيضا ؟

أصابتها العصبية، لم تكن أسونثيون عصبية أبدا.

- قيل لى ماهو أكثر، وهو شىء لايليق بابنة فى حاجة إلى رأس مختل لتكتب كل هذا الخيال المؤلم.

واصلت العمل بالإبرة فى الجورب.

- أبوك يشعر بالألم والغضب.

عندما يشعر الآباء بالألم والغضب تحت تأثير حيل الزوجات، يمكن أن يصل رد فعلهم الى ماهو أسوأ، وهو كراهية أبناءهم، أبى يكرهنى، لهذا مات، لهذا كتبت أنا أيضا نصوصى غير المنشورة، وكان سبب ذلك نصوص ابنة ديكنز المهينة، التى أدت فى النهاية الى قتله، قام بتغيير وصيته ومنع عنى ميراث كتبه، التى كانت لى، تركنى بلا كتبه التى وعدنى بها، تناسانى، كرهنى لأننى بدلا من ان أكتب مثل ديكنز كتبت كابنة لأبى.

ترك أبى مكتبته لشقيقى، ولرهبان الدير، معتقدا أنها ستكون أكثر أمانا من دير بوبليت، لأن وجودها هناك يضئ روح أبى، لكن أخى لم يتمكن من أخذ الكتب الى زنزانته فى الدير وتركها محبوسة فى غرفة مجهولة، خارج الدير، ولايزورها أحد.

لم يسمحوا لى برؤيتها.

كان أبى يعتقد أننى حاولت أن أكتب دون أن أكون برفقة كتبه، فإن كتاباتى ستتحول الى دخان متطاير لايصلح للنشر.

fb/mashro3pdf

كان أبى يعتقد أنه لو مات بسبب الألم الذى سببته له روايات ابنته، فإن كتاباتى ستتأثر الى درجة الشلل.

لكن أبى لم يقرأ المخطوط المذنب أبدا، فقد كان أبى قد ترك القراءة من حينها، لذلك فإن ما قتله هى تلك الأصوات النمامة، أصوات تقتل بسبب الغيرة.

من الممكن أن تكون مخطوطتى قد قتلته، لكن هذا لم يحدث، قتلته الأصوات الغيورة وكل الخمر الذى كان يرافق تلك الأصوات، عندما كنت أذهب الى البرج لزيارته لم يكن ينظر إلى، كان يبحث عن حذائى كما لو كان مكتوبا عليه: الابنة المعلونة.

ابنة أنانية لأنها تكتب كتبا وترى كل شىء من خلال الكتب التى تريد أن تكتبها أو لا تكتبها.

مات أبى بالسكتة «يسمونه أيضا مرض القلب» ويعتبر السبب الأول للموت فى البلاد الصناعية المتقدمة، جيراننا الدكاترة فوستر لم ينفعونا فى تلك الليلة، لم يهتم أحد بالتنبيه عليهم، كان يمكننى أن أذهب إليهم واطلب منهم المساعدة، لكن أسونثيون اتصلت تليفونيا وطلبت عربة اسعاف، وجاء طبيب الحالات العاجلة بعد وصول عربة الاسعاف بينما كان الدكاترة فوستر ينامون فى البيت المقابل، وجد أبى الوقت لكتابة رسالة يعلن فيها تخليه عنى ويتركنى دون ارث كتبه العزيزة على قلبه، أبعد كتبه عن ابنته المفضلة التى كانت، كما توقع هو فى تلك اللحظة، على وشك الانفصال من زوجها بدرو بارامو، أو ربما كانا منفصلين فى تلك اللحظة، لم أعد أذكر الأمر بالضبط.

كتب الطبيب الذى جاء بعد عربة الاسعاف تقريره، تقرير مكتوب تحت تأثير الرسالة الوصية.

كان التقرير يقول تقريبا:

«مات قلبه لأنه لم يكن يصله الأوكسجين الكافى، لم يكن يصله الأوكسجين الكافى لأنه لم يكن بدمه البروتين الدموى المطلوب، الذى مهمته حمل الأوكسجين

fb/mashro3pdf

بين الحجرات التى تغذى القلب، والسبب وجود انسداد فى الشرايين بسبب الطعام الغنى بالشحوم، والتدخين والكحول ، بسبب الحياة المرفهة، إضافة إلى استعداد طبيعى للإصابة بهذا المرض، وربما كان لزيارة ابنته ذلك المساء التأثير الذى تسببه تلك الإصابة وانعكاساتها بشكل مفاجىء على القلب، مما أدى الى ازدياد فى الضخ الدموى غير المعتاد عن الضخ المعتاد، مما أدى الى ازدياد الضربات القلبية عن المعتاد».

هكذا يكتب بعض الأطباء، وهذا الطبيب الذى وصل بعد وصول سيارة الاسعاف ليكتب تقريره الطبى عن موت أبى المفاجىء، ليس هناك شك فى أن لديه استعداد طبيعى للكتابة.

بينما كانت أسونثيون تراقب جسد أبى من بعيد، نزعت من بين يده التقرير وتوجهت غاضبة باتجاه البيت المقابل..

سألتنى بيلار، خادمة آل فوستر:

– أيهما تريدين أن تقابلى؟

أيهما؟ لم يكن هناك فارق كبير لكشف أسباب عنف التقرير. لم اعرف ماذا أقول لها.

– فالنتين لايزال فى الولايات المتحدة، إذا كنت تريدين رؤية الدكتور فوستر ستجدينه فى المصحة لأول مرة.

كان الصوت هناك من جديد، إلى جوار الباب.

نبهنى:

– احترسى مما تفعلين، من يدخل هذا البيت من الصعب أن يخرج منه.

طلب منى شخص ما أن أدخل، وبعد أن عبرت الحديقة رافقنى إلى مكتب مدير المصحة.

fb/mashro3pdf

لم يكن لدى وقت لأشرح للدكتور فوستر أن أبى كان مخطئا لأنه كان يفترض أن الكتابة على طريقة ديكنز تعنى كتابة روايات واقعية وأبطالها شخصيات مأخوذة من الشعب، وليست مستوحاة من بين أفراد الأسرة والأقارب، لم يكن أبى يعرف الشخصيات التى كان يستوحيها ديكنز من أبويه المسكينين، كان أبى يقرأ ديكنز كما لو كان شخصاً منبوذا فى العالم، بلا أبوين، ولا أشقاء، ولا أقارب، وربما لم يكن يعرف شيئاً عن حياة ديكنز، ولا يعرف عن وجود «مامى» الابنة الكبرى التى كانت متفرغة للعناية بأبيها. وربما عندما كان أبى يقول إن الكتابة على نسق ديكنز، كان يريد منى أن أقوم بما كانت تقوم به «مامى» الابنة البكر لديكنز، أبى كان يجهل أن روايات ديكنز الواقعية كانت مليئة بالمعلومات الشخصية. ربما كان أبى يخاف فى داخله أن انتهى إلى الكتابة على طريقة ديكنز.

لم أستطع أن أشرح للدكتور فوستر كل أدب ديكنز. لذلك قدمت له ملخصا.

استطعت أن أقول له:

- أنا أبنة ديكنز.

كان يجب عليه أن ينقذنى. إنقاذى كان فى يد ديكنز، وإلا فإننى سأظل ابنة أبى المدللة العصية.

fb/mashro3pdf

- ٦ -

لم تكن كنيسة «سان بيسنس» الواقعة فى حى ساريا من الكنائس الجميلة، خاصة إذا قارناها بالبهو القوطى لكنيسة دير بيدر ألبس. كانت كنيسة ساريا قبيحة وفى الوقت نفسه محببة إلى النفس بسبب قرويتها، المؤمنون يدخلون ويخرجون منها طبقاً لطقوس مختلفة لا علاقة لها بالسنوات التى تمر بها.

تطل أبواب الكنيسة الرئيسية على ميدان ساريا، حيث يطل أيضاً محل حلوى فويس، متعامدة مع الكنيسة وبالقرب من المزارع القطالونية، ومكتبة جيلبرت. وبار الميدان وكشك الصحف، كان شاعر ساريا ج.ف.فويس معتادا على ترك الكافيتيريا خلال الساعات التى يتناول فيها سكان الحى غداءهم. ويصبح ساعتها الحى صامتا كما فى أفضل أيامه كقرية صغيرة فى ضواحى برشلونة، يتنزه الشاعر فويس مرتديا ملابس أيام الأحد الأنيقة كعادته، يعبر الميدان، يمر أمام الكنيسة، يهبط باتجاه شارع المعبد ويواصل مسيرته باتجاه البيت، الذى يصله بعد دقائق قليلة من دورانه حول الكنيسة. لم يكن الشاعر رجلا لطيفا، لكنى كنت أحب رؤيته أثناء سيره بنظرته المركزة على الرصيف دون أن ينظر باتجاه أحد حتى لا يكون مجبرا على إلقاء التحية، يكون تائها فى أفكاره ويكون جادا إلى درجة تبعد عنه مقاطعة أى سائر، ملابسه ثابتة لا تتغير، كان يرتدى بدلة رمادية أو بنية غامقة، وخلال الشتاء يرتدى معطفا، إضافة إلى القبعة التى لا تفارقه، حينها، كان فويس شاعرا موقرا، كانوا يتحدثون عنه باعتباره مرشحا للفوز

fb/mashro3pdf

بجائزة نوبل للآداب، وهو الأمر، الذى يقولون إنه يساعد على انتشار اللغة القطالونية دوليا، تلك اللغة التى أصابها المرض بسبب مؤثرات معاكسة سابقة، حينها، كان هناك العديد من الشعراء القطالونيين قد ماتوا، جوان فينجولى كان قد مات، ومات ابيسريو، وكان أبى قد مات أيضاً، وكان الشاعر فويس فى تلك الساعة التى تقترب من الثانية والنصف أو الثالثة مساء يخرج من الكافيتيريا ويعبر الميدان دون أن يفكر فى كل أولئك الموتى، موتى أسرتى أو موتى كل الشعراء. أو هكذا كان يبدو.

كان حظى أنى التقيت به مرات عديدة، لكنى لم أجرؤ أبدا على تحيته، كنت أراه تائها فى أشعاره بحيث لا يمكن أن أجذب نظره، تلك اللقاءات العرضية كانت تذكرنى بالأشعار التى كتبها فويس لأمى مما جعلنى أحاول أن أحتفظ بها لأقرأها. كانت لطيفة، وتعكس جمال وحلاوة أمى، استطعت أن انتزع من فويس تلك الأشعار المنسية لتذكرنى بأى شئ قد لا يكون لى، وحينها تكون ضائعة لا قيمة لها..

اليوم الذى مات فيه ج.فى.فويس، اعتقد أننى أتذكر أن سكان حى ساريا شعروا بالحزن فقرروا فى لحظة واحدة تكريم الشاعر على طريقته بالسير وعيونهم مركزة على بلاط الرصيف، وتركوا مكانهم فى الكنيسة للقادمين من برشلونة إلى ساريا لإلقاء النظرة الأخيرة على الشاعر.

خلال جنازة فويس كنيسة ساريا، التى كانت كبيرة ولكنها ليست ككنيسة دير بيدر ألبس، كانت مزدحمة بالوجوه البادية الحزن ، فى الخارج كان المناخ باردا ولم يكن فى الداخل موضع لقدم لمشاهدة الوجوه التى أصابها الحزن أكثر مما أصابها برد الشتاء، تمكنت من الوصول إلى منتصف الكنيسة بصعوبة، وكما كان الوضع يتطلب الجدية فى مثل هذه الحالات، تعرفت على الفور على وجوه شهيرة ومعروفة فى أدبنا، وعلى الرغم من أنها كانت جنازة مزدحمة إلا أنها ظلت جنازة

fb/mashro3pdf

هامشية، جنازة عائلية وشعبية، كما لو كان حي ساريا تحول فجأة إلى موطن ومقر كل شخصيات الثقافة البرشلونية الحية.

انتهت المراسم وبدأت الجموع في التفرق، منع البرد تكوين مجموعات على سلالم مدخل الكنيسة كما كانت هي عادة الأصدقاء والمعارف، لم يكن هناك ألم عائلي، كان فويس شاعرا منعزلا، وكانت عائلته صغيرة جداً بحيث تتكون فقط من عمال محل الحلوى الذي كان يمتلكه، الذي أغلق في ذلك اليوم أبوابه بشكل استثنائي، وهكذا حاول كل واحد منا على طريقته الخاصة تقديم واجب العزاء للشاعر الخفي الذي يحمله كل منا في داخله، ترددت للحظة وقررت العودة إلى البيت بدلا من متابعة الجنازة باتجاه المدافن . قبل أن أبدأ سيري توقفت قليلا، لم أكن أريد أن أعود لرؤية الوجوه الشهيرة في الثقافة البرشلونية من جديد، وبدأت بعدها الهبوط باتجاه شارع انجلي، درت يسارا عبر شارع بابلو الكوفر ودخلت الشارع الترابي الذي يشبه حرف «إل» المؤدي إلى بوابة مدافن «تريس توريس»..

عاد الصوت إلى محيطه المعتاد، وكما في مثل هذه الحالات كان يحدثني من خلال واجبه الأبوي لحمايتي.

قال كما لو كنت عجوزا هرمة:

– ها أنت تجدينهم جميعا بالقرب منك، جميعا معا، وموزعين بشكل جيد بأسمائهم الكبيرة..

كانت المجموعة التي تبعت نعش الشاعر قد اقتربت من بوابة المدافن، تجمعوا على يسار المدافن، بالضبط في الناحية التي يرقد فيها موتاي.

– إنها من تأثير بدرو بارامو.

قال الصوت بوقاحة.

على الرغم من ذلك ولقول الحقيقة، فإن المسافة ما بين قبر أبوي والقبر الذي من المقرر أن يستقر فيه نعش ج.في.فويس كانت أقل من مائة متر.

fb/mashro3pdf

كانت مقبرة ساريا صغيرة الحجم.

سمعت أحدهم يقول:

- شاعر آخر يستحق جائزة نوبل يفقده التاريخ، فى الحقيقة هو يستحقها.

استغرقت مراسم الدفن دقائق قليلة، دائما ما أذهلتنى سرعة دفن الموتى التى كانت تجرى بشكل شبحى، القسس والبناءون هم أبطال الطقوس الذين لا غنى عنهم، دائما ما تكون السرعة طابع الدفن حتى يمكن الانتهاء من الطقوس بأقصى ما يمكن، كما لو كانوا يتوقعون أن يتراجع الميت ويستيقظ فى آخر لحظة، أو كما لو كانت مهمة دفن الميت من الأمور المخجلة أكثر منها محزنة..

وددت الاقتراب فيما بعد من قبرى أبوى، حينها انتبهت إلى أن شخصا كان يتبعنى، كانت على الأرض طبقة ثقيلة من الحصباء تحمى الأحجار من الانفصال بعضها عن البعض، ذلك فإن وقع أقدام الزائرين عليها يصبح الضوضاء الوحيدة التى يمكن سماعها، كنت متأكدة من أن شخصا كان يتبع خطواتى، افترضت أنه شخص معروف لى، افترضت وجود أصدقاء لى فى جنازة الشاعر، وهكذا أدرت رأسى بشكل خفى وشاهدت رجلا، متوسط العمر، بنظارة مذهبة الإطار، طويلا، نحيف الجسم، وشعره غامق اللون، كان يسير فى أعقابى وتوقف إلى جانبى تماما عندما توقفت أمام المقبرة التى يرقد فيها أبواى . لا أحب أن يرافقنى أحد فى مثل تلك اللحظات، وما إن حاولت أن أستدير برأسى حتى بادرنى الرجل، وجهه على رغم الظلام وبرد الشتاء كان يبدو معروفا لى، بقوله:

- هنا نحن دفنا آخر الشعراء.

فهمت أنه كان يشير إلى كل جيل الشعراء القطالونيين، وافقت على قوله بهزة من رأسى.

- اسمى كارليس ريبا.

قال على الفور.

fb/mashro3pdf

– أنا طبيب.

مضيفا لتوضيح سوء الفهم الجميل.

– نحن جيران.

قلت، وربما من المؤكد تحدث صوت أمي من خلالي قادما من أعماق مقبرتها، لأنها كانت الوحيدة في أسرتي التي تملك حس الفكاهة الباعث على الحسد.

لكن طبيبا – طيبا لا يلوى فمه ليعلن عن ابتسامته، ولا ينظر عرضا كما لو كان يعرف جارته الميتة طوال حياته..

الطبيب لا يقول الكلمات التي نطقها كارليس ريبا عن مقبرة جده:

– نتحدث لنقول لا شئ، نتحدث بكلمات تسقط كزهور متحللة تتعفن في المقبرة.

لم أكن قادرة بعد على التفريق ما بين إن كان كارليس ريبا مجنونا أم شاعرا، لكني كنت أعرف مسبقا وبكل تأكيد أنه لم يكن طبيبا فقط متخصصا في التشريح المرضي.

لفتنا العتمة بين مقابر الأهل بينما كان حارس المقبرة يحرك مفاتيحه بشكل عصبي.

– هيا بنا لتناول أي شئ.

عرض فكرته بتسلط.

أعاد إلى ذهني حركة أبي العفوية الحنونة معتمدا على ذراعي عندما دعاني للخروج من المقبرة..

لم تكن هناك بارات قريبة من المقبرة ولا في أي من الشوارع المؤدية إلى حي «لوس تريس توريس» السكني، كان كارليس ريبا يعرف ذلك، إضافة إلى هذا أن البار كان نقطة النهاية ، النقطة النهائية التي يصل إليها عابرا بحارا متعلقا في ذراعي كرجل يقبل الخضوع لامرأة واحدة بدلا من التعلق بكل النساء.

fb/mashro3pdf

طوال ذلك الطريق الطويل سيرا على الأقدام عرفت أن كارليس ريبا فكر بالفعل فى طلب الزواج منى، ولم يكن مهما أن أقبل بمصاحبته إلى أول بار نعثر عليه فى طريقنا لأنه كان يبدو ممكنا أن أقبل عرض زواجه.

كان زوجى كارليس ريبا متنبئا، ومثله مثل الكثير من العلماء والشعراء، كان مجنونا بالقلق والخوف، بالإضافة إلى أنه طبيب، كان كارليس ريبا يكتب الشعر ويقرؤه كما لو كان أبياتا كتبها آخرون، وأطلقوها فى الهواء ربما يلتقطها شخص ما.

- القصيدة، يجب أن تكون كالكرة التى تنتقل من جانب إلى آخر، القصيدة كرة تنتقل بين أيد لا حصر لها..

ويلقى قصائد الآخرين كما لو كانت أشعاره هو، وتنتهى فى النهاية إلى أن تصبح قصائده كما حدث مع قصائد «بيسوا» الذى كان فى وقت من الأوقات يدعى ألفاروكامبوس..

كان يشرب، ويلقى قصائد لفويس، وكارنر وكارليس ريبا، جده، ويلقى قصائد عن حقيبة السفر، يمزجها جميعا فتبدو نصوصا معقدة وجميلة مكتوبة بلغة مكونة من لغات متعددة ومتعارضة.

بينما كنا نسير ليلا، والبرد يضرب شفاهنا، كان يتحدث منتشيا بالشعر، يتحدث بلغاته المتعددة، كان سجينا فى ذكائه الغزير:

- هذه الأيام، لا أعرف لماذا، أنا راض عن نفسى، لكن لا، لا ليس هذا بالضبط ما يحدث، أريد أن أقول إننى أقضى وقتا سعيدا مع نفسى، سعيدا بالحواس، القديمة والجديدة، اعتقد أنك كنت سعيدة فى لحظة ما مع نفسك، إنه شىء من الأشياء الجميلة فى العالم : أن يسعد الشخص من نفسه. أن يستيقظ مثلا، ويلعب مع نفسه لعبة الذكاء فيجد أن الخراف تكاثرت، والأوزات وقعت فى الفخاخ، والأبقار تمنح لبنا سخيا، والأعناب نضجت، والسهول خضراء،

fb/mashro3pdf

أن كل شئ تكاثر ويسير بقوة الدفع الذاتى، الجمال فى أن التفكير نفسه يحمل لنا مفاجآت مدهشة، أنه شئ يحدث فى مرات قليلة، الاقتناع بالذكاء، شيء جميل فلسفيا، كالهضم الجيد، أعتقد أن أفضل تعبير يشرح هذا: جمال الإحساس بأننا نسير مع أنفسنا.

تركنا من خلفنا شارع بابلو الكوفير وصعدنا باتجاه انجلى متجنبين الريح المواجهة لنا، أنا من كنت أتحدث الآن وكنت أقص عليه قطعا من ذكائى المريض.

– نحن التعساء، من ورثنا إرثا ثريا اسمه الأدب، الذى يبدو كصندوق لكنز مغلق بالأقفال، ومن المستحيل فتحه، صندوق من الإشارات المأخوذة من الكتب.

كنت أقص عليه حينها أننى أكتب نصوصا غير مقروءة لا ينشرها أحد.

قال:

– الظلام، أى كاتب ما هو سوى حارس أمين على مملكة من العتمة أو يكون منتحلا.

ما إن وصلنا إلى طريق بونانوفا حتى اتجهنا نحو ممر الملكة اليسندا دى بيدرألبس.

– أنا كتبت قصيدة طويلة، أطول قصيدة كتبتها حتى الآن، كتبتها فقط فى اثنى عشر يوما، تخيلى عن أى شيء تتحدث؟ عن أسبانيا، أحيانا أراها شيئاً جيداً، أحيانا أخرى أرى أنها لا قيمة لها، وفى أحيان ثالثة تكون الشيئين معا. وهذا فى الحقيقة خطير، لأن الردئ هو الذى نحبه جميعا، وإذا كان جيداً..

لم تكن قصيدة للنشر، إنها رقص على عدة لغات، فيها الروسى واللاتينى والإنجليزى والألمانى وكلمات أخرى منحوتة. حتى يمكن وصفها أنها أجنبية ويمكن تسميتها قطالونية، بحيث يصعب نشرها فى كتاب شعرى باللغة القشتالية.

كان كارليس ربيا شابا وإن كان من الصعب التنبؤ بسنه، لأن الذكاء يضيف إلى عمر الشخص المتشكك القانط، ولا يبدو عمره الحقيقى إلا عندما يضحك،

fb/mashro3pdf

يبين سنوات عمره كشاعر عجوز مندهش كاتب لقصائد خجولة، لكنه يضحك قليلا، يبدو كاتبا ينتمى إلى زمن آخر. واحد من أولئك الكتاب الشاذين الذين ينتمون إلى بدايات أو نهاية قرن غير معروف جيدا، كنت أناديه بإعزاز «جريلبارزر»، أحيانا اسميه «الشاعر المسكين»، بسبب شخصيته كرجل عجيب، يطفح بالذكاء لكنه لا يملك القوة الكافية ليواجه الحياة كما هى، رجل يبدو قليل الثقة وعديم الخبرة فى الحياة، لكن من يتذكر اليوم الكاتب الفيينى جريلبارزر.

كان فى وجهه طول بعض الشئ، تماما مثل جريلبارزر، وجنتاه غائرتان، شفتاه نحيلتان، وأنفه معقوف وعيناه كبيرتان بنظرة مغرورقة تصعق من ينظر إليها.

كان يقول عن نفسه:

– أفضل ما فى أننى ولدت بعد انتهاء وجودى.

كانت الحياة تعنى بالنسبة إليه لعبة وجودية متواصلة، جميعنا أحفاد لأجدادنا الأقوياء، ما نحن سوى ظلال أدبية مستطيلة.

كنا متشابهين ونحن نتحاور أثناء عبورنا جسر ساريا باتجاه برج بيدرألبس. قررت فى تلك الليلة ذاتها أن اطلع كارليس ريبا على عالمى، الحديقة، وبيت جدى الكبير.

– إنه العالم الوحيد الذى لازلت أفهمه.

– من هو مكتوب على جبينه الانتحار ينتمى إلى هذا العالم بالصدفة، لأنه فى النهاية لا ينتمى إلى أى عالم.

هكذا كان كارليس ريبا يتحدث.

وصلنا إلى بيدرألبس. كان البرج مغلقا، كان أبى قد مات منذ بضعة سنوات، لكن البرج كان من الممكن أن يكون مفتوحا، ما بين إغماض عين وفتحها كان يمكن لعتمة شباك غرفتى أن تتحول إلى وضوح جلى.

fb/mashro3pdf

يكفينى أن أفكر فى ذلك، كنت أسير متعلقة بذراع كارليس ريبا ومثل أى ليلة أفتح فيها بوابة الحديقة وندخل فى برج بيدرألبس. كان أبى جالسا فى مقعده الدائم تحت لمبة «البرجولا» المضاءة، ينتظرنى فى حالة من الوعى الكامل، أترك ذراع كارليس ريبا وانشغل بتقديم كل منهما للآخر بطريقة لائقة، أبى يبدو سعيدا وغيورا، أبى منفعل وقانط أيضاً، ربما كان سعيدا لأن ابنته قررت فى النهاية أن تريحه برفقة حفيد كارليس ريبا. مع ذلك فإن المشكلة فى حفيد ذلك الشاعر كارليس ريبا، يعتقد أبى أن الحفيد ليس إلا صورة مشوهة لجده، الشاعر الكبير كارليس ريبا، يعتقد أبى أنه ليس إلا رجل مسكين، شاب ربما كان موهوبا بكتابة الشعر، لكنه يبدو الآن ضائعا تماما، بسبب طغيان شخصية جده عليه، إنه شاب غريب الأطوار، بلا شك، لأن ابنته لا تخرج إلا مع أشخاص غريبى الأطوار ومساكين.

كان كارليس ريبا يشعل سيجارة من أخرى، ينظر إلى مبنى المصحة الفخمة من أعلى إلى أسفل ويبذل جهدا ليصدق أنه يمكن أن يكون مصحة عقلية.

قال:

- اعتقد أنه يمكن أن يعيش هنا فقط المجانين المقنعين.

هناك خطوط فى الحياة لكل نوعية من الناس، لكن أين الحدود الحقيقية، كان بيتى أيضاً كمصحة فوستر يعيش فيه مجانين مقنعين، وتبدو طفولتى وتختفى ما بين نوافذ وأسطح البيوت الثلاثة.

قلت لكارليس ريبا:

- أنا مجنونة مقنعة.

على الأشياء أن تكون كما يجب أن تكون وأن رؤيتها توحى بالهدوء والرغبة فى تنظيم الحياة، والبدء فى تنفيذ مشروعات كبرى.

تركته يتحدث:

fb/mashro3pdf

– إذن، يخطر لى أنه يمكننا أن نؤجر بعض الغرف فى مصحة بيدرألبس وندخل ونخرج منها كأشخاص طبيعيين أو كمجانين مقنعين. هذا الحل يحررنى أيضاً من مطاردات زوجتى السابقة وتهديداتها المستمرة بأطفالى.

لكن إضافة إلى الأبناء كانت هناك الكتب، كتبه وكتبى، لا نستطيع أن نستغنى عنها، كانت لكارليس ريبا مكتبة أكبر من مكتبة أبى مرتين، مكتبة تحتوى على ملايين الأشعار.

– القراءة الكثيرة تملأ الرأس بالأفكار المشوشة.

أطلق الصوت رأيه فجأة.

تلك كانت جملة قديمة.

أجبته دون أن يكون هناك داع لذلك.

– القراءة تعيدنا إلى إنسانيتنا.

عندما كان كارليس ريبا يشرب كنت أبتعد عنه، لم أكن أريد أن أكون جزءا من ألم لا يخصنى. فى ليالى الخمر والسهاد تلك كنت أكتب صفحات جميلة، لكنه دائما ما كان يسخر منها.

– الخمر والأدب متعارضان، وإذا زاد إصرارك على مزجهما معا يكونان كزوجين بشريين.

فى تلك الليلة الأولى لنزهتنا معا فى شارع بيدرألبس تركت كارليس ريبا وحيدا أمام حجر السور قائلة له من بعيد:

– ذاكرتى تحتفظ بآفاق غريقة .

العلاقة التى تشى بصداقة طويلة تسير ببطء هادئ تتقوى خلالها أواصر تلك الصداقة. عدنا كارليس ريبا وأنا للنزهة فى فترات تالية، أيضاً كنا نحب الهبوط باتجاه طريق الرملة فى برشلونة ونسير حتى البحر ثم نعود بعدها. نتصعلك ببطء ليلا فى الشوارع الخالية لمدينة ضائعة فى الذاكرة.

fb/mashro3pdf

كثيراً ما كان يختبئ كل منا في مكتبته الخاصة لاختبار مستقبل كتبنا. في أحيان أخرى كنا نلتقي صدفة. حينها كان كارليس يسخر كالعادة من تلك الصدفة السعيدة.

- المصادفات الكثيرة تقول لي إنه لا محال من زواجنا.

لكني كنت ابتعد مفكرة في المقابر، في القبور المجاورة وقواعد السنوات الماضية، ترى من كان يمكنه أن يقول لي كيف ستمضي الأشياء، يا لها من مصادفات غريبة.

كان كارليس ربيا يعيش في تلك الفترة في مكان مطل على الشارع مباشرة، نوع من الجراجات بباب معدني مخصص بشكل يصلح لحانوت أكثر منه مكان للمعيشة. كان يحتفظ فيه بكتبه على أرفف معدنية تغطي جميع الجدران وبسبب نقص المساحة فقد شغل أكثر من ثلاثة أرباع المكان. في الطرف النهائي كان هناك مكان على الأرض لسرير ومائدة ودش وحمام صغير..

كانت هناك مدفأة كهربائية صغيرة وفي بعض الأحيان هناك أنبوبة غاز تكفي للتدفئة والتخفيف من الرطوبة التي يمكن أن تصيب الكتب، بعض تلك الكتب ذات قيمة ثمينة ولا يمكن الاحتفاظ بها بأي طريقة كانت، كان يظل صامتا في ظل الستائر المعدنية المنخفضة حتى الأرض، يستمع إلى أحاديث المارة الذين يتوقفون أمام بابنا معتقدين أنه باب خان مغلق.

في بيته المخبأ كان كارليس ربيا كثيراً ما يفكر في الموت، تفكير كنت أحاول تجنبه لأنني كنت أعتقد أنني وصلت إلى ذلك الجانب المظلم من الحياة.

- مريح أن يفكر الواحد منا أنه سينتحر.

كرر هو.

كان ذلك دواءه المفضل بالنسبة لروحه المتشائمة، بل إنه أفضل بالنسبة له من مشروب الجن الصافي.

fb/mashro3pdf

– الحياة تعنى تأخيرا يوميا للحظة الانتحار.

كانت الكتب أداته لإبعاد فكرته عن الموت.

كنا شخصيتين غريبتين غارقتين فى مخزن من الكتب، شخصين بلا دوافع ولا مشروعات يمتلكان مواهب سيئة التوجيه.

كانت الكتب تغرقنا فى فكرة الموت.

بخلافى أنا التى كنت أشاركه سهراته أحيانا، لم يكن هناك أى شخص آخر يزور مرسمه، وهذه هى التسمية التى كنا نطلقها على سكنه لتمييزه عن بيتى.

شيئاً فشيئا، بدأ القلق والبرد والرطوبة والإهمال الرجولى الخاص يدفع كارليس ريبا إلى الحياة فى بيتى. لكن كتبه لم تكن كذلك، لأنها فى معظمها بقيت فى مرسمه لذلك كان على زوجى أن يذهب إلى هناك لحراستها والاعتناء بها بشكل يومى، كان كمن يستيقظ يوميا ليذهب إلى العمل فى مكتبه.

فى بعض الأحيان، كنا نفكر فى ضم المكتبتين، لكن لم نكن نملك مكانا واسعا لجمع هذه الكمية الكبيرة من الكتب، وأخيرا عندما حصلنا على المكان المناسب كان ذلك بفضل الكتب، أنا متأكدة من أننا كنا نحب فكرة الاستقلالية الكتبية، كما لو كانت الكتب أبناء غير طبيعيين ترفض مشاركة الآباء فى سعادة القراءة.

الذنب دائماً ذنب الكتب، مع ذلك، لولا حياتى الضائعة بسبب الكتب، أنا ما كان يمكننى الزواج مجددا، لكن الأدب له أهدافه الخاصة، ومن بينها تلك القراءة الصدئة. الابنة اليتيمة لأب عاشق للكتب.

حياة زوجية مستقرة مثل تلك التى كنت أصر عليها فى حياتى الزوجية الثانية كانت أقل أدبية ولا تمنح مادة كثيرة للكتابة، لكنها كانت على العكس من ذلك، فإنها تمنح المادة الاستعارية الكافية لاستمرارية القراءة والكتابة.

كارليس ريبا، حفيد الكاتب كان قارئا مغامرا، مثلى تماما، من ناحية أخرى عندما تعرف على قال لى:

fb/mashro3pdf

– كنت أعرف أننى سأنتهى إلى التعرف إلى فتاة مجنونة بالأدب.

أنا مقتنعة أنه كان يتوقع أن يحولنى إلى كاتبة مهمة يمكن مقارنتها بجدية الشاعرين كارليس ريبا وكلمنتينا اندرايو، كانت لزوجى الثانى مشاكل أسرية، لكن، من لا يعيش بلا مشاكل أسرية! فالكتب فى النهاية منشفة لتجفيف دموع الأبناء والأحفاد الناشئة عن المشاكل الأسرية .

والكتابة هى الملجأ الظاهرى الأكثر استقرارا. دافع الكاتب لاختلاق الأعذار ليعيش منعزلا وبذلك يحصل على ما يحتاجه من الوقت ليبتعد عن اعتيادية الموت الرتيبة، لكن الكتابة لا تعنى أبدا أكثر من ممارسة حل الألغاز الإشارية لشواهد القبور.

حذرنى الأدب:

– الآن حانت الساعة.

كان يقول لى، اجلسى إلى مكتبك وتزوجى من جديد من رجل ربما لا يكون المناسب لك لكن بالمقابل يستحق كل الوقت الذى تنفقينه فى القراءة، كونى جادة وتزوجى كما يجب، حتى لا تتحولى إلى أى «أنايس نين» [1] ، وتقفزى من عشيق لآخر لتتقيئى على الورق كل بذاءات حبك، الأدب أعظم طريق يؤدى إلى الموت، إذن تزوجيها.

لأول مرة يتفق الأدب وروح أبى على شئ واحد، شئ لا يوجد إلا من خلال تداخل الكلمات المتقاطعة مع شواهد القبور.

فى الحقيقة هكذا حدثنى الأدب لحظتها، ولأول مرة عرفت أن استمع إليه بانتباه، ربما كانت واحدة من الكاتبات التى تسكننى استطاعت أن تستمع إليه، رغم أننى لازلت أجهل من جاء أولا الرجل طالب الزواج أم حاجتى إلى الزواج

(١) أنايس نين (باريس ١٩٠٣ – لوس انجليس ١٩٧٧) كاتبة أمريكية من أصل كوبى تركز فى أعمالها على السيكولوجية النسوية من خلال الرموز والسريالية، من أبرز مؤلفاتها: «الجرس الزجاجى».

fb/mashro3pdf

مرة أخرى بسبب حياتى المكتوب عليها أن ترتبط بالأدب. لكنه كان هناك، إلى جوار القبرين المجاورين لقبرى أسرتى، قبرا جارى كارليس ريبا.

ذلك الرجل كان هناك من يرافقه أيضاً، لأنه فى سن معينة فإن كثيرا من الرجال يسحبون من خلفهم سلسلة طويلة من الواجبات. زوجى الثانى كان يحمل عربة من القنابل التى ساعد على نقلها وتركها بعد ذلك فى واحد أو آخر من براميل القمامة قبل أن يكمل تهديده بتفجيرها. رغم ذلك فإن هذا الرجل كان على استعداد لمشاركتى فى أسراره الخاصة.

كان من الممكن أن يحب أبى هذا الرجل، ربما كان لديه أكثر قبولا من بدرو بارامو، لكن ذلك لم يكن السبب الذى جلعنى أقرر الزواج مرة أخرى من متخصص فى التشريح المرضى، طبيب يخبئ تحت ردائه الأبيض عورته كشاعر..

كان يقول عن نفسه:

- إنه فصام حميد ومفيد.

لم يكن قادما من بلاد بعيدة، لقول الحقيقة، كان قريبا من بيتى جدا، على بعد أمتار قليلة من المقبرة، أصوله المباشرة تأتى من شواهد قريبة من شواهد قبور أسرتى، التقارب كان كبيرا كما لو كان هدية، إنه حفيد الشاعر كارليس ريبا، والمثير حقا إنه يحمل الاسم نفسه.

حفيد كارليس ريبا لم يكن كاتبا معروفا، لكنه كان شاعرا متميزا عن جده، على العكس منه كان شاعرا لا ينتمى إلى طبقة معينة، الشاعر المختبئ خلف قناع الطبيب المتخصص فى التشريح، الأطباء الجيدون يعتبرون قراء جيدين، وربما كانت هذه فضيلته البارزة ليكون زوجا لكاتبة لم تنشر كتبها بعد. تحول كارليس ريبا مع مرور الزمن إلى زوجى بسبب تعلقه بالقراءة وعلاقته الخاصة والمشكلة مع الكتب.

كان دائما ما يقول أيضاً:

fb/mashro3pdf

– عندما لا يكون ممكنا منافسة الآباء فإن أفضل حل هو التحول إلى كتاب.

كان يشعر تجاه الكتب باحترام يقارن بالاحترام الذى كان يشعر به أبى تجاه الشاعر كارليس ريبا.

أما بالنسبة لى، فمن المفترض أنه كان يحبنى لأننى كانت الامتداد الكاذب لشعوره بالاحترام تجاه الكتب.

ترى هل حولنى إلى الكتاب الذى لم يكتبه أبدا؟

كثيراً ما كان يحذرنى زوجى:

– لن أتركك أبدا إلا إذا قررت الابتعاد عن الكتب.

إضافة إلى ذلك فإن رجلا مثله كان من الممكن أن يكون منجذبا إلى السحر الذى كنت غارقة فيه، والذى كان كثيرا ما يسميه بؤسى أو عذابى.

لم أتخيل مطلقا أن رجلا له تلك الهوايات الغوائية يمكن أن يوجد على وجه الأرض ولا حتى اعتقدت فى أن أعثر عليه أبدا. للحقيقة كان على أن أشعر بالخجل من مثل هذا الرعب الكتابى.

كان يمكننى أن أنعى عليه عدم اهتمامه بوجودى الفيزيقى:

– وجسدى؟ أم أن جسدى لا يهمك؟

ليس لأنه لم يكن يعلن ذلك صراحة، لكنى أعتقد أنه بالنسبة لكارليس ريبا فإن تلك الفضائل الفيزيقية، على الرغم من أهميتها، لا تعدو سوى أن تكون مجرد أشياء تكميلية، الأساسى بالنسبة له، الأساسى الوحيد، كانت نصوصى غير المقروءة وكل ما يمكننى أن أفعله بها. وما كان يحدث لى بسببها.

فى يوم جميل جاء كارليس ريبا وسكن فى بيتى، فعل ذلك بحذر، على طريق المكتشفين الذين يبحثون عن طريقة مناسبة للدخول فى حياة القبائل البدائية، تاركا من ورائه إشارات من الدخان، داخلا عبر علاماتها ليفرض نفسه فى النهاية كمالك مسالم. جاء أعزل، لكن أى رجل يكون أعزل بعد الأربعين من العمر. هذا

fb/mashro3pdf

الرجل، كما قلت من قبل، جاء مربوطا بترسانة من المتفجرات ومهدداً بتفجيرها فى كل عناق نعانقه فيه، فى كل حركة يخطو باتجاه شئ، هذا الرجل عاش فى حيوات أخرى، ولذلك عانينا من جميع أنواع الاعتداءات، لكن كتبنا كانت أكثر قوة من القنابل.

فى الحقيقة كان كارليس ريبا يبرهن دائما على أنه كان الأقرب إلى فى كل لحظة تمر ، وربما أكون أكثر صراحة لأقول إنه كان يقترب منى مع كل صفحة كنت أقرؤها، وكنت أواصل قراءة مزيد من الصفحات كلما زادت الأعمال الإرهابية التى كانت تمارسها ضدنا زوجته السابقة . وكلما مر الزمن كنت أشعر أننى محبوبة أكثر وزوجى فى حاجة أكثر إلى ، فى الوقت نفسه تأكدت بنفسى أن الأدب الملجأ الجيد للحماية من المتطرفين والمتخلفين الذين ينتهكون الأسرار الخاصة .

أتذكر بهذه المناسبة لعبة صغيرة فى أحد تلك الكتب فى أسوأ الأيام التى عاشها زوجى وقدمه لى كنوع من أنواع التسلية .

تحدانى بقوله :

– فلنر هل أنت قادرة على العثور فى أحد تلك الكتب على مقطع مكتوب عن الشهوانية التى تفتقد إليها شخصية نسائية أسطورية .

كانت تجذب زوجى صورة المرأة التى تقرأ . وأعتقد أيضا أن هذا كان يشعره باللذة ، لكنى لم أكتشف شيئا داخل تلك الكتب عدا صورة تعود إلى القرن الماضى ينسبونها إلى شخص ما يدعى «بيناود» عثرت عليها فى كتاب فى الأدب الشهوانى ، لم أكتشف شيئا آخر عن وضع القراءة الذى حولته الحياة المعاصرة إلى شىء غير عادى وغير موجود تقريبا .

أشار بالطبع كتاب روائيون عديدون إلى تفاصيل خاصة وأوضاع مختلفة للقراءة ،زم شفاه امرأة أثناء الانهماك فى حالة القراءة ، الجفنان الناعسان

fb/mashro3pdf

الكاحلان ، الخطوط المكشوفة لنهديها اللذين يعتمدان على الكتاب ، لكن هؤلاء الكتاب لم يعلنوا أبدا أنهم كانوا يشعرون بالشهوة بفعل القراءة نفسه الذى تقوم به امرأة منطلقة وحكيمة ، على العكس من ذلك تماما ، فإن صورة المرأة القارئة كانت سببا مباشرا لابتعاد هؤلاء عن القراءة . إضافة إلى ذلك فإن الكتاب يمكن استخدامه كوسيلة للتباعد أو التقارب بين رجل وامرأة . هذه النظرية كانت بعيدة تماما عن ذهن زوجى ، كان يحب رؤيتى فى وضع القراءة ، فيما كنت أخشى من تباعده فكنت أحاوره ، مع ذلك ، فإن الوضع الطبيعى والمطلق كان بالنسبة له موازيا للضجر . هذا السأم الدائم كان أحد سلبيات شخصيته .

كان يؤكد :

– السأم من أساسيات الحالة البشرية تماما كالرغبة فى الخلود ، فإذا تم قبول الفناء فإن هناك أسبابا لعدم الهروب من الضجر ، الذى هو فى النهاية أساس الخلود الإلهى .

وأنا حينها كنت أقرأ وأترك الكتب تتراكم إلى أعلى مايمكن لقياس العالم والصمت الناشىء عن النص .

كان كارليس ريبا مصاصا للدماء ، عندما يعثر على كتاب يستحق القراءة كان يمتص دمه تماما ، كان يسجل بعض المقاطع فى كتيب للكتاب الذى كان يشعر تجاههم بالإعجاب . كانت لديه حاسة تجاه المقاطع التى كان يتباهى بها من وقت لآخر . فى أحيان كثيرة كان يفعل ذلك فجأة وبلا مقدمات ، كان الأمر يختلط علىّ كثيرا لأننى لا أعرف أن كارليس ريبا هو الذى يحدثنى أم أنه كان ماكينة تترجرج بالنصوص .

وصلت إلى حد التساؤل عن ما إذا كان زوجى يحب أن يرانى بكتاب بين ذراعى قبل أن يرى بين ذراعى ابنا له ، من ناحية أخرى فإنه لم يبد أبدا رغبة فى

fb/mashro3pdf

ذلك . فى أحيان كثيرة كنت أتساءل عن أن فكرة الأمومة التى كانت لديه تساوى مشهد المرأة الجادة التى تحمل كتابا مفتوحا بين يديها .

كان يمكن أن يسعد أبى رؤيتى متزوجة من أحد أفراد عائلة الشاعر كارليس ريبا ، كنت أعتقد أحيانا أنه مات ليمنحنى تلك الفرصة ، فالواحدة منا تمضى الحياة فى ممارسة عكس مايرغب فيه أبوها ، وعندما يموت تفعل تماما ما كان يرغب فيه . أحيانا كنت أعتقد أننى إذا كنت قتلت أبى فذلك من أجل العثور على كارليس ريبا .

كارليس ريبا الوحيد الذى كنت أذهب إلى المقابر برفقته فى هدوء ، ولم أشعر مطلقا بالحاجة إلى السؤال عن الذكريات أو التفكير فيما توقظه داخلى تلك الزيارات ، يمكن القول إنه كان الأقرب إلى ماضى الخاص والحقيقة أنه ما كان مهتما بذلك أبدا ، والمدهش حقا أن دعوات الذهاب إلى المقابر كانت دائما تصدر منه ، كنا نحب زيارة المقابر ، لكن هذا لم يكن سببا كافيا للعودة إلى المقابر مرات ومرات ، كان زوجى يسعد كثيرا بزيارة قبرى جديه الشاعرين ويبدو أكثر من مجرد صدفة أن أبى وأمى يرقدان إلى جوار قبرى جديه الشهيرين .

ربما كان هذا من الأمور الخاصة بالشاعر أن يزور المقابر بشكل متكرر ، ربما كانت طريقة لإبعاد الخوف ، لأن زيارة المقابر تحقننى بشىء من الشجاعة المطلوبة لمقاومة الألم الإنسانى .

– الشاعر إما أن ينتحر وإلا فهو ليس بشاعر .

كان كارليس ريبا يقول ذلك بمناسبة تلك النزهات برفقة الموتى .

منذ أن نبدأ الطريق الترابى المؤدى إلى المقابر حتى الوصول إلى شواهد المقابر الأسرية تكون عادتنا أن نتحدث عن الكتب والمؤلفين الذين كتبوا تلك الكتب.

– بعد الموت ، فإن الأدب هو أفضل موضوع للحديث .

fb/mashro3pdf

وأنا كنت أفكر أيضا فى المقابر فيما نواصل حديثنا الدائم ، لأنه من الأمور الشاذة جدا أن نتحدث زوجى وأنا عن الأدب ، رغم أن الأدب موضوع جدى للحديث كثيرا ، وربما يكون أحيانا من الأمور الصحية أن نسأم من الحديث عن الأدب إلى حد الشبع . الذنب مجددا ذنب المقابر ، لأن هذا الجنون الكتبى له صلة مباشرة برماد الموتى .

لم نحلم بالأطفال مطلقا ، فالجنون مرض متوارث ، كما أقول أنا بفم ملتو ، مع ذلك لم يكن الخوف من الجنون هو الذى يدفعنى إلى عدم الإنجاب وتكرارى فى آخرين ، بل الخوف الدائم من الانتحار .

كان يقول :

– تسلط فكرة الانتحار شىء خاص لايمكن أن يموت أو يحيا ، ولا يمكن إبعاد الاهتمام بها بسبب ازدواجيتها هذه .

من نظرة مبسطة نبدو أبطالا للتعاسة ، تسلط فكرة الانتحار علينا تبعدنا عن التخطيط والحلم بأشياء سعيدة كإنجاب الأطفال مثلا .

– كثير من الخمر فى الدم حتى لانضيع وقتنا فى الانزعاج بأشياء كهذه .

الآباء لم يعرفوا النهاية التى تنتظرنا جميعا ، ويفضلون الحياة متجاهلين هذه النهاية .

حتى اخوتى لم يقبلوا فكرة الإنجاب ، أحدهما بسبب تعلقه بنساء كثيرات والآخر بسبب نقيصة أخرى ، لم يضعوا فى حياتهم مكانا لمتابعة التزاوج ، نحن الاخوة الثلاثة انطلقنا إلى العالم بسرعة آلاف الكليومترات كل واحد بعيدا عن الآخر ، دون أن تكون من حولنا حياة أخرى غير مرآة الفراغ وبحر القنوط .

كنت أكتب عن تلك الأشياء نصوصى التى لم يكن يقرؤها سوى كارليس ريبا ، الذى كان يقرؤها بحماس .

fb/mashro3pdf

كانت قصصا عن كتاب مساكين ، يسيطر عليهم اليأس والقنوط مثلنا تماما . قصصا مكتوبة حتى لايبقى هناك شيء أفضل فى الحياة من القراءة لأنه السقف الذى يخفف من حدة الجنون .

كان كارليس ريبا ينصحنى بقوله :

– يجب عليك أن تجمعيها كلها وتضعى لها عنوانا نهائياً ، ما رأيك فى عنوان كهذا مثلا « العتمة» ؟ «The darkness» ، يبدو قريبا من معنى حيوان بحيرة نيس [1] الخرافى .

لكن لا أنا ولا هو فكرنا فى أن نحرك إصبعا لنشر تلك النصوص غير المقروءة التى لازلت أواصل أنا كتابتها لتجنب الفضيحة لعائلة أبى . لم نكن نحب الشهرة التى ترافق الكتاب . كنا نفضل أن نبقى فى الجانب الصامت من العالم .

من هو الكاتب ؟

يقول كارليس ريبا :

– الكاتب هو متسول الكلمة . ما الفارق بين كاتب وصعلوك ؟ فى لا شيء . كلاهما يصيب بالغثيان ويحتميان من البرد بالكلمات .

أنا التى لم تكن تشرب الخمر كنت مدمنة تحت الكلمات .

– هو ذاك أم ليست الكتابة ؟

المجنونات تنحتن الكلمات والمجنونات حسنات الحظ من تترجمن منحوتاتى اللغوية . فى بعض الأحيان تصاب الماكينة بعطل فيما فمى لا يتوقف عن إلقاء الكلمات المنحوتة .

– أكتبى .

---

(١) بحيرة نيس فى بريطانيا ، وتقع فى شمال أسكوتلندا ، ويقال إن وحشا خرافيا يسكن فى تلك البحيرة وكان مادة لعدد من الأعمال الروائية والسينمائية .

fb/mashro3pdf

يقول كارليس ريبا ، كمن يقول اهدئى . هدئى من روعك .

هكذا يتكلم المجانين والكتاب الذين يصابون بالجنون عندما لا يكتبون وينذرون أنفسهم للموت على أيدى الكلمات .

الماكينة التى تترجم كلماتى تحذرنى أيضا من عاداتى الغريبة . تستغيث بالصوت ويظهر الصوت ليذكرنى :

- لا تتمادى . الأفضل ألا تتمادى .

الصوت كان أمى الثانية ، ميكانيكى الكلمة .

ما كان لكارليس ريبا أن يهتم ، كان يسمح لى أن أتصرف كمجنونة ، لم ير الفارق بين جانبى المجنون وجانبى الآخر الأقل جنوناً .

كانت هناك أشياء أكثر أهمية ليقولها أو يصمت .

السير كان يهدئنا . كنا نبحث عن حادث الوجود ، ندور حول بيدر ألبس كغرباء بلا ذاكرة ، كنا نثير فقدان الذاكرة بخطواتنا غير الواعية . ودون أن نقصد كنا نقتل الذاكرة شيئا فشيئا .

fb/mashro3pdf

- ٧ -

ماتت أمى فى برج بيدر ألبس تماما كالموت الذى حلمه أبناؤها ، الذين كانوا يريدون أما ، حية أو ميتة ، لكن من الممكن احتضانها بخصوصية . لكنها لم تمت فى المصحة . وقتها كانوا يتحدثون قليلا عن المصحات والمتستشفيات ، بالتأكيد كانت موجودة ، لكن من كانوا يستطعيون دفع تكاليفها لم يكونوا يثقون فى خدماتها كثيرا ، ماتت أمى بعيدا عنا ، نحن أبناءها الصغار ، بالتأكيد أنها ماتت فى مكان شاذ ومزدوج الغرابة .

كانوا يقولون :

- مات فى المصحة .

تلك الكلمة غريبة لم تكن تعنى شيئا .

المصحة فى رأيى لم تكن تختلف عن المستشفى . مع فارق واحد ، أن المستشفى كانت قريبة والمصحة كانت بعيدة ، بعيدا جدا إلى درجة عدم الثقة فيها.

لم يكن هناك أى أثر من أمى فى غرفتها ، أنا لا أشك أنها كانت هنا يوما ما.

كانت هناك صورها الفوتوغرافية وصورها المرسومة بالفحم والصور الزيتية المنتشرة فى جميع أركان البيت . لكن حينا كنت أفكر : ما هو السبب فى أن أحدا عاش هنا يمكنه أن يختفى فجأة من البيت دون أن يترك أثرا فيه ؟.

غطاء سرير أبى كان باهت اللون ، كدماء الموتى الجافة ، فيما كان غطاء سرير آخر مشابه له محفوظ فى دولاب الغرفة ، كنت حينها أجمع ذراعى وأغلق

fb/mashro3pdf

عينى لأعيش موتها من جديد وأشعر بلحظة موتها ورائحتها فى الغرفة ، كنت أحاول فى بعض الأحيان تشمم جميع أركان غرفة أبى لساعات وساعات ، بحثا عن رائحتها، تلك الرائحة الأمومية الخاصة ، رائحة حلوة تغطى على كل روائح عطور أبى الجافة .

– هل يمكن ميراث رائحة الأم أيضا ؟

كنت أفكر أحيانا أن ذلك ممكنا ، تماما كلون عيونها ، منحتنى أمى رائحتها وعطرها ، وهذا يمنعنى من العثور على رائحتها وهو ما كان يدفع أبى إلى احتضانى وتشمم شعرى وأذنى ككلب نصف يتيم .

– هل الميتة يمكن أن تكون حية أيضا ؟

ماهو الفارق بين الحالتين إذا كان يمكن الانتقال من حالة إلى أخرى بسعادة مذهلة ؟

بيت أبى الحقيقى كان بيت جدى ، القريب من بيتنا والذى قرر أبواى بعد زواجهما بقليل أن يبنيا فى حديقته بيتهما الخاص ، رغم ذلك فإن بيتنا لم يكن أبدا بيت أمى ، فقد كان البيت يكاد يشبه جسد أمى ، وبما أنها لم تسكن هناك أبدا ، أو أنها عاشت فيه بشكل عابر ، فقد تحول البيت إلى رمز عظيم لأمى .

ربما أنها ماتت فى بيت جدى لأمى ، لأن بيتى لم يكن يصلح ولا حتى للانتحار.

بيت جدى كان يصلح للموت ، دون مغادرته طوال قرون ، كان بيتا فخما له بابان رئيسيان كبيران . البوابة الحديدية الضخمة المغلقة دائما والمطلة على طريق يؤدى إلى ميدان بيدر ألبس ، والبوابة الأخرى فى أقصى الحديقة تؤدى إلى شارع المونستيريو . وهى البوابة التى تدخل وتخرج منها عادة السيارات التى تأتى إلى البيت .

fb/mashro3pdf

للمبنى مدخلان ، الرئيسى ، عبارة عن درج من الرخام وعلى جانبيه أعمدة دائرية ، فيما المدخل الخلفى مخصص للخدم ، لم يكن يستخدم المدخل الرئيسى سوى الضيوف ، حيث يؤدى إلى ممر ومن هناك عبر ممر رئيسى توجد بوابة زجاجية كبيرة تؤدى إلى الصالون الرئيسى .

يفوح بيت جدى برائحة تشبه رائحة أمى التى لايمكن العثور عليها فى أى بيت آخر ، على جدرانه لوحات تعرض مختلف العصور القطالونية الفنية التى كانت فى بداية القرن ، إضافة إلى لوحات زيتية لفنانين انجليز ، فى جانب من الصالون يبدأ درج بعرض ثلاثة أمتار ومفروش بالسجاجيد الأنيقة ويؤدى إلى شرفة انجليزية ، وممنوع علينا نحن الأطفال استخدامه . لكننا كنا نستخدمه من وقت لآخر ، كل ما كان ممنوعا فى بيت جدى ، تفوح منه رائحة أمومية .

على الرغم من الصالونات التى توجد فى الطابق الأرضى فإن الحياة العائلية كانت فى المكتبة ، حيث تظل المدفأة مشتعلة طوال الشتاء ، فيما جهاز اسطوانات الموسيقى كان مخبأ فى دولاب من الخشب يتخذ شكلا يشبه شكل عقب الكتاب .

كان ممنوعا علينا نحن الأطفال الجلوس فى الديوان . كان الديوان بدوره يفوح برائحة خانقة تنطلق من الأم الغريبة .

مع ذلك فإن ابنة خالتى كريستينا كانت تؤكد أن أمى لم تمت فى بيت أبويها ، والذى كان فيما مضى بيت أمى وجدى أيضا ، على أى حال هى التى تكبرنى بعدة سنوات كانت تتذكر ذلك .

ترى هل تتذكر أمى ؟

كانت تقول ابنة خالتى كريستينا :

– أتذكرها قليلا أو أكاد .

لذلك لم تكن ذكرياتها تساعدنى على العثور على الغرفة التى كانت تنام فيها أمى أثناء عزوبيتها . ولكن من خلال ما كانت تشير به ربما تكون تلك الغرفة التى اكتشفت فيها «جين ايرى» .

fb/mashro3pdf

كانت ابنة خالتى كريستينا السبب فى أن أضحك وأنسى التفكير فى الأشياء الحزينة ، لذلك لم تكن حليفة جيدة للبحث عن ما كنت أحاول العثور عليه .

ماتت أمى بعيدا عن البيت ، بعيدة عن أطفالها ، بعيدا عن بيدر ألبس ، ماتت أمى ، أو هذا ما يؤكدونه ، فى مصحة «لا جاريجا» ، قرية فى مقاطعة «بابيس» القريبة من برشلونة .

ماتت أمى ، وهو ما يقولونه ، دون أن تعرف أنها كانت على وشك الموت ، دون أن تعرف أنه لم يتبق لها من الحياة سوى بضعة أشهر ، ماتت شابة ، وقبل أن تكمل الثلاثين .

متى ولدت أمى ؟، هذا الأمر أجهله ، لكنها ماتت ، وهذا ماشهدوا به ، ماتت فى يوم الاحتفال بقديسها ، ماتت بينما كانت تستعيد عافيتها فى المصحة ، وبشكل خاص فى يوم عيد قديسها .

برج بيدر ألبس وبيتها الجديد ، والانتقال إلى البرج وميلاد ابنها كانت أسباب موتها .

إضافة إلى جهل الأطباء وتلك الحساسية المرضية التى تجعلنا لا نصدق الآخرين ، كانت أمى تعيش خيالا مريضا بمرضها ، كما لو كانت تهزل .

هى كانت تثق فى أبى ، وأبى بدوره كان يثق فى أبيها ، الذى كان يثق بلا حدود فى الدكتور «السينا» ، وكان الدكتور السينا بدوره طبيبا وعالما إنسانيا وعضو شرف بمعهد الدراسات القطالونية .

الدكتور السينا كان الطبيب الرسمى للشعراء القطالونيين ، وكان الدكتور السينا يكتب فى أوقات فراغه كتبا نقدية ، وعندما كان يزورنا كان يتحدث عن الكتب .

عندما كان الدكتور السينا يأتى إلى بيتنا لأسباب مرضية كان هناك من يقول:

- جاء الكاتب .

fb/mashro3pdf

يمكننا أن نقول عن الدكتور السينا إنه شاهد موت كل عائلتى تقريبا ، كان يمتلك مكتبة ممتازة ، مكتبة لكتاب قطالونيين .

بالنسبة للدكتور السينا أنا كنت مريضة الراحة ، المريضة التى تحتاج إلى راحة طويلة ، وقليل من الكتب .

كان الدكتور السينا طبيب أمى وطبيب كل عائلة أبى ، لكن الجزء الآخر من عائلة أمى لم يكن يرى فيه رأيا طيبا .

كان أخوالى يقولون عنه :

– يمكن للدكتور السينا أن يخطىء مثله مثل أى طبيب آخر .

قالت لى ابنة خالتى كريستينا :

– أمك ماتت بسبب الدكتور السينا . لو أنه انتبه قبل فوات الأوان ربما كان يمكن إنقاذها ، لكنه لم يعرف مطلقا أن أمى كانت متعبة دائما ، وكان الدكتور السينا دائما ما يقول إن هذا بسبب الأعصاب ، كانت أمك دائما ما تتعافى .

بالنسبة لعائلة أبى كان واضحا أن الطبيب المخطىء هو الدكتور فيريراس عندما تعرف على مرض أمى بشكل متأخر وعندما لم يتبق لها سوى القليل من الحياة .

كان الخلاف حول الطبيبين العائليين مخففا لألم الغياب .

لم يكن هناك شىء وقتها لإنقاذها ، ولا شىء يمكن فعله الآن ، الجانب الذى كان يدافع عن الدكتور السينا كان يطلب الصلاة من أجل روحها ، فيما كان يطالب أهل أمى بنسيان الأمر ، وأنا كنت أنظر إلى السماء متسائلة فى غضب : أين أنت ؟ أين أنت لأراك ؟

تم افتتاح مصحة عيون جاريجا المائية فى القرن الماضى ، كانت فى الأصل مستشفى للمياه المعدنية تنتمى إلى القرن الرابع عشر، هذه المصحة كانت مزارا لعدد من الكتاب المتعبين أو الذين كانوا يعانون من مشاكل السمنة ، فى حياة أمى، كان زبائن المصحة من المرضى والعجزة ، والمهملين ، أنا لم أكن هناك أبدا ،

fb/mashro3pdf

مجرد التفكير فى مصحة جاريجا يصيبنى بالغثيان والاختناق ويجعلنى أصاب بالدوار .

مياه المصحة كانت غنية بالمعادن التى تساعد على شفاء الجهاز التنفسى والعصبى والتقرحات الجلدية ، وأيضا تساعد على مقاومة الإجهاد .

لم تكن لدى أمى أى من تلك الأمراض ، ولم يكن أى منها سببا فى موتها ، ولكنها لم تعرف أن فترة وجودها فى تلك المصحة كانت لمجرد تخفيف آلام أيامها الأخيرة فى الدنيا ، كانت تعتقد أو أنها كانت تريد أن تعتقد أنها تتعافى من آلام وضعها الأخير ، وهو الثالث فى عداد المواليد .

كانت أمى تحلم بيوم الاحتفال بمبنى برج بيدر ألبس ، ذلك البيت المبنى بالطوب الأحمر والأسقف القرميدية التى أمرت مع أبى ببنائها فى المكان الذى كان حديقة البيت القديم لجدى لأمى ، خرجت أمى من المصحة بعد مرور شهر من وضع آخر أبنائها ، وبدلا من الوصول إلى البيت المبنى حديثا ، كما كان مخططا من قبل بينها وبين أبى ، تم إرسالها إلى مصحة عيون جاريجا المعدنية ، بحثا عن الراحة .

– أنت يا أمى كنت تريدين أن تتعافى ، وتتقوى لتحتفلى بافتتاح برج بيدر ألبس .

قاموا نيابة عنها بعملية الانتقال ونقل الموبيليا والحقائب والصناديق ، وأيضا أسرة الأطفال الصغار والأطفال، بعض الصناديق والملابس والبيضاء بقيت ضائعة فى أركان البيت القديم لسنوات طويلة بعد ذلك ، كنت أنا أمضى وقتى فى البحث عنها فى محاولة لفك ألغاز آثار أمى ، فى بعض الصناديق الكرتونية كانت لاتزال هناك قوائم مكتوبة بخط أمى تعدد الملابس التى توجد فيها .

– كنت تريدين أن تتعافى لتفتتحى البيت وتواصلين إنجاب الأطفال .

لم تتمكن مكتبة الدكتور السينا من شفاء أمى ، التى كانت تموت دون أن تعرف ذلك ، ودون أن تعرف أن افتتاح البيت أصبح أمرا متأخرا .

fb/mashro3pdf

ترى كيف يمكن تفسير موت مفاجىء؟ الموسيقى . أو ربما أدب ، لاشيء سوى مثل هذه الاهتمامات التى يمكن أن تفسر موتا مبكرا ، موتا فى غير محله .

التفكير بأن أمى ماتت من أجل أطفالها لم يكن تعليلا مقبولا ، كنت أتمنى لها موتا مسببا .

بفضل صمت أبى تمكنت من تخيل موت جديد كل يوم . كلها كانت ميتات مزيفة .

كان أبى يتنقل مابين بيت الموت والبيت الذى وضعوا فيه أطفاله الصغار .

كنا كما أطفال الكلاب الصغار نجرى فى البيت من مكان لآخر محدثين ضجة بسب الارتطام بالحوائط .

كنا محل شفقة الحى ، لكن حى بيدر ألبس كان صغيرا ، كما لو لم يكن يشكل جزءا من العالم ، عالم كان الجميع يرغب فى الهرب منه ، حتى مجانين المصحة المقابلة كان كثيرا ما يحاولون الهرب منه ، لكنهم كانوا يعيدونهم إليه من جديد ، وكانوا يعودون إلى الهرب منه ، لم يكن للمصحة سور سوى البوابة الحديدية التى تغرى بالهرب عبرها ، أى شخص يملك بعض المهارة يمكنه أن يقفز منها ، ليسقط على الرصيف ويجرى حتى محطة الترام . وهذا ما كان يفعله بعضهم .

المصحة كانت برجا من أبراج الحى ، لم تكن هناك أى إشارة تشير إلى أنها مصحة عقلية ، وهكذا كان من السهل نسيان وجودها ، إلى درجة أننا نسينا وجودها بيننا ، ولم يعد يهمنا معرفة تفاصيل محاولة هروب أى مجنون منها .

كنا ننظر إلى المصحة دون أن نراها ، كما لو كنا نتأمل قطا يتجول فى الحى، تثير حركته المجانين وتدفعهم إلى تقليده .

كان كارليس ربما يحمينى من جنونه أكثر مما كان يحمينى من جنونى ، أنا لم أكن فى حاجة إلى أشياء مادية ، بل إننى كنت أحاول التخلص من الماديات ،

fb/mashro3pdf

كنت أريد أن أمزق حياتى ، أريد التخلص منها ومن بيتى ، أريد أن أبقى مع الحوائط الأربعة العارية دون أن يكون محتما على أن أتحمل الكتب كما لو كانت سلاسل مربوطة إلى أحلامى المريضة .

لكننى كنت فى حاجة إلى خيط ذهنى يربطنى إلى كارليس ريبا . كخيط ماء يتقاطر متعجلا على جسدى الذى كان فى حاجة إلى أنفاس كارليس ريبا الذى كان يدخل ويخرج من وإلى الحجرة الصامتة الحزينة .

الحنين مرض . لكن هذا لم يكن مرضى ولا حتى مرض كارليس ريبا . مرضى كان مصنوعا من الأسرار الحميمة جدا ، الذى يسمونه مرض النظر .

مرض النظر كان يمنعنى من قراءة الكتب ، فكانت مكتبتى تبدو كديكور قديم لا فائدة ترجى منه ، ربما كان هذا السبب فى أن الكتب كانت تسقط من مكانها بلا سبب ، كما لو كانت هناك أشباح تدفعها إلى بسبب سلبيتى كقارئة .

كنت أفكر فى نومى أن الحرب ليست حدثا عابرا ، الحرب يمكن أن تبدأ وتستمر فى أى لحظة ، كما هى الآن ، حرب بين من كانوا على ثقة من أنهم لايمكن أن يعيشوا حربا من أى نوع .

فجأة أيقظتنا ضجة من نومنا ، كتابان نقديان للكاتب جورج شتينر قفزا من مكانهما على يسار المكتبة وسقطا إلى جوار قدمى سرير كارليس ريبا .

سأل كارليس ريبا بقلق عندما استيقظ :

– ماذا حدث ؟

– كتابان هربا من المكتبة .

– وحدهما ؟

تساءل زوجى قلقا .

أجبته على الفور :

– بالطبع .

fb/mashro3pdf

– ربما كان الأمر مجرد كابوس .

قال ذلك واستدار إلى الناحية الأخرى .

عندها أشعلت الضوء ، كتابان للنقاد والباحث شتينر على الأرض كأنهما يريدان قول شيء ، يشيران ، بالطبع ، انهما كانا متزاملين على الأرفف ، وهذا يضيف إلى الحدث سحرا ، فلم يكن هناك أى دليل على أن زلزالا حدث .

– كيف يمكن أن تسقط الكتب هكذا ، دون أن يكون هناك ما يبرر ذلك ؟

– هذا من عمل الساحرات .

قال كارليس ريبا وهو نصف نائم .

تعليل غير كاف ، لأنه ما بين ضجة السقوط السحرية وتفهمنا للحدث لم يكن قد مر أكثر من نصف ثانية ، فى هذه المساحة الزمنية كان مستحيلا أن أكون قد تنقلت فى نومى ومررت بتلك الأرفف الموجودة فى المكان الموجود فيه زوجى .

أعدت الكتابين إلى مكانهما على الأرفف .

لماذا شتينر بالتحديد ؟ كنت أسأل نفسى وأن أحاول استعادة حلم الحرب القديم .

إنها أشياء سحرية لا تقبل التأويل .

– أسرار خاصة بالكتب .

أضاف كارليس ريبا الراقد مستيقظا .

حكايات حقيقية كهذه تبدو كذبا .

الحميمية التى كانت تربطنى بمؤلفى الكتب التى توجد فى مكتبتى كانت تتسبب فى هذه الكوارث الليلية ، الكتب تحتج ، لم أكن أعرف بالضبط إن كان هذا بسبب سلبيتى تجاههم بسبب مرضى الفجائى أم بسبب الحميمية التى تمكنت من إقامتها مع مؤلفى الكتب التى تحاصر غرفة نومى . أم كلاهما معا .

fb/mashro3pdf

مرض النظر كان يجعلنى أرى نساء حيث انظر، كنت أرى بشكل خاص سيدة تتكرر مرات لا تعد .

لم يكن مرضى من اختيارى جاء المرض دون أن أدعوه وعاش فى زمنى الحذر كما لو كان يريدنى أن أنسى نفسى .

الدكتور موت تعهد بشفائى .

كان يقول :

– إنه أمر لا مفر منه، أن الأوان أن تعيشى طفولتك .

طفولتى : بالنسبة لى زمن ميت، مساحة مجهولة لم أجرؤ على تخيلها، مساحة بلا أم .

أفضل الأطباء النفسانيين هم اللا أطباء. .

الأصدقاء يضعون مشاعل فى أعينهم ، لكنهم لا يشفون ، وظللت أنا أرى أشيائى الشخصية، حكاية الطفولة، وواصلت قراءة نصوصى غير المنشورة بمفردى.

الكلمات الحقيقية موسيقى حقيقية، كنت أقرأ النصوص كما لو كانت نوتا موسيقية ، كنت آكل الموسيقى . المهم كان معرفة وفهم ما أقرأ، من يفهم كل شىء لا يعرف شيئا، وأنا كنت أبتلع كل جهلى دون أن أمضغ شيئا ، كنت أرى الدكتور موت طبيبا نفسيا، وأيضا كنت أرى امرأة، هى دائما لا تتغير، كانت تأتى إلى بيتى دون سابق إنذار، وحتى دون أن تطرق الباب، كانت ترتدى الأبيض، تماما كالأحلام، كانت تبتسم بحلاوة، كانت تبدو أحيانا منشغلة بأى قطعة أثاث فى البيت، أو منشغلة بالمداعبة، مثلا، كمداعبة حافة بطانية، فى أحيان أخرى ، كانت تنظر إلى وتدعونى لقول شىء، لم تكن تبدو مهتمة بوجود كارليس ربما من عدمه، لم تكن تنظر إليه، أنا فقط كنت الموجودة، أنا من كنت مجرد ظل اسود لشكل ظاهر.

fb/mashro3pdf

كنت ألتقيها أحيانا فى الشارع ، حينها لا أعرف سرا كان يمنعنى من تحيتها ، ربما الخوف من ألا ترد تحيتى، ومع ذلك، كانت تنظر إلى بحزم، كنت اعتبر أنها هى التى يجب أن تبدأ بالتحية، لأنها أكبر منى سنا، وهذا يمنحها هذا الحق، فى تلك اللقاءات فى الشارع كانت السيدة تبدو كما لو كانت لا تعرفنى .

«إنها أمى»، كنت أفكر مرتعبة دون أن أعرف إلى أين اتجه، «أم تتجاهل وجود ابنتها» .

بالطبع لم يكن جسدى هذا الجسد المناسب لابنة مراهقة ، جسدى هذا كان يخدعنى ، ويمنع حتى أمى من التعرف على .

«تلك السيدة كانت مجنونة»، كنت أعتقد وكنت أتناساها لفترة من الزمن إلى أن بدأت تعود للظهور فى بيتى من جديد .

– فلنترافق .

عرضت عليها بينما أنا كنت مندهشة من تلك الكلمات غير المقنعة على الإطلاق.

كانت مجنونة مسالمة ، كانت أمى، أو هذا ما كنت أعتقده أنا لما كنت أراه من تشابه بينى وبينها عدا فى ابتسامتها .

كنت أريد أن أسرق ابتسامتها واضعها فى وجهى أنا، لكن ألم الغياب هذا كان يجفف فمى ويجعلنى أبدو ميتة وأمى هى التى تمتلىء بالحياة .

– لماذا لم تأتى قبل ذلك ؟

– حينها، ابتسمت .

هى كانت صبورة وتستمع إلى مطالبى غير الظاهرة دون أدنى معارضة.

كنت أقول لها :

– الكتابة عقاب، لأنك حين تبدئين لا تستطيعين أن تنتهى ، لابد من المواصلة ، رغم الصمت، يجب أن تواصل كما لو أن ألما متداخلا فى أعماق الروح .

حينها كانت تؤمن على ذلك .

fb/mashro3pdf

– الكتابة عقاب كبير يكاد يكون أكبر من رفقتك . كيف يمكننى أن أتخلص منك بينما أنت تشكلين جزءا من حياتى .

لم تكن تلك الكلمات ترن جيدا فى جسدى هذا المكتمل ، إنها كلمات طفلة تعترف أمام الجدران ، إنها أشياء ناتجة عن مرض عينى .

قال كارليس ريبا :

– ستشفين مبكرا، تلك الأشياء تشفى بمرور الزمن .

كان يشير إلى مرض عينى .

لكن الزمن يمر، والسيدة لا تخرج من عينى .

– يجب على أن أذهب معها، مؤكد ، إنها فى النهاية لن تعود لتقلقنى .

أجفلتما تلك الكلمات .

الموت حين يأتى فيه شيء من الحلم السعيد، شيء من حالة الراحة الأبدية .

لم يكن كارليس ريبا يخاف الموت وكان يتحدث عنه كعشيقة مستحيلة، إلا أنه كان يخاف موتى، كما لو كانت سيدة العينين منافسة قوية تحاول ان تختطفنى.

حيث يكون المرء نائما أو سكران يخطىء الكلمات بالفراغات فى الكلمات المتقاطعة ، هكذا تحول الأدب بالنسبة لى .

كان كارليس ريبا زوجا غريب الأطوار، فقد مارس حقه كأب تماما وكصديق عطوف، فالحب قد يكون نتاجا موازيا لظل شخص بدوره المؤكد فى شخص آخر، أيهما الأكثر واقعية ، السيدة الحشرية أم الدكتور موت؟ .. بالنسبة لعينى المريضتين كلاهما كان بلا فائدة لكن لا مفر من وجودهما .

كان كارليس ريبا يهددنى بانتحار لو أنى تركته .

كنت أقول له .

– ألا ترى أنك تخرج الأمر عن حده .

تهديداته لم تكن مغلفة بالعاطفة أو التشوق ، كانت كما لو كانت تأكيدا بأن هذا العالم ليس للموتى .

fb/mashro3pdf

ظهور تلك السيدة التى كانت تتخفى فى زى الأم كان يمكن أن يكون إنذارا لهروبى إلى الجانب الآخر .

كان يقول كارليس ريبا .

– مجرد ترهات .

كنا نتحادث قليلا، كما لو كان حديثنا معاديا للكلام وحتى لا نستهلك قوانا، من هنا كان عدم اختلاطنا بالناس ، كان الأصدقاء الحقيقيون يعدون على أصابع اليد الواحدة .

وضعنا لم يكن مقبولا من الناس العاديين والسعداء ، كنا شخصيات مقلقة، غير قابلين للإنقاذ ، كان مظهرنا يدل على انه يمكن ان يحدث لنا اى شيء، ولم يكن من السهل ان نفتح على أنفسنا ابوابا مجهولة ، كان الناس يفارون منا.

– مفكرو القرون الماضية كانت لهم اسبابهم للتخلى عن السخرية عند الحديث عن موضوعات اساسية مهمة، على العكس تماما، يمكن التعرف على أى مبدع من خلال السخرية من نفسه ، الموت المقابل السيء للابتسامة .

هكذا كان يتحدث كارليس ريبا عندما يبدأ الكلام، هذا رغم انه كان قليل الكلام.

– الكلام فى أساسه لإصدار أوامر إلى متلقى الحديث حتى يتخلى هذا عن كينونته ويتحول الى مجرد مستمع. هنا لا نتحدث عن مستمع التليفزيون ، يصبح المستمع عبدا للإشارات .

الأدب فقط والموسيقى يسمحان للمتفرج بالضياع فيهما. وهذا فى رأيى شيء مشكوك فيه .

على الرغم من أنه من الأفضل التخلص من الكتب ، إلا انها ممتلكاتنا الوحيدة.

كان كارليس ريبا يريد بيع مكتبته ، بدأ يقول انه متعب من الأدب ويريد أموالا، من ناحية بعد تجربتنا مع المكتبات وأمناء المكتبات . كنا نفضل اهداء

fb/mashro3pdf

كتبنا على السماح لها بأن تقع بين أيدى اولئك الشريرين ناقصى التجربة فى التعامل معها.

فى البداية كنت أعتقد انها فكرة رديئة جدا وان سببها الأساسى هو تلك السيدة التى كانت تزورنى فى بيتى .

- هل جننا فجأة ؟

كان الدكتور موت يشرح لى اسبابه :

ربما لو أننى أنا أو أنت قمنا بتأليف كتاب أو وضع أى نظرية كان يمكن أن يكون هناك سبب لترك هذه الكتب كجزء من مراجع أعمالنا .

عندما يكون الذكاء حادا، يمكن أن يكون أفضل أعداء الإنسان . والذكاء كان أسوأ فضائل كارليس ريبا .

بدأت شيئا فشيئا فى قبول فكرة الهجر، ومنها انتقلت إلى أقصى طرف التلذذ بفكرة مشروع بيع الكتب بالوزن ، أو بأى طريقة ممكنة، للتخلص من مكتبتينا.

أى شىء كان يمكن قبوله لو كان سيخلصنى من سيدة العينين، والتخلص من المكتبتين كان يتطلب تعاونى الكامل ، لأننى كنت أتمتع بحس البائع أكثر من زوجى.

إضافة إلى هذا :

- ألم يكن أبى أول من فكر فى دفن مكتبته فى ذكاء ابنه .

قدم لى الدكتور موت مشروع البيع على النحو التالى : أولا بيع مكتبته هو، والتى تضم العديد من المراجع الخاصة، وإذا سمحت لنا الأموال التى سنحصل عليها ، نقوم بتأجير المصحة النفسية، على الرغم من هذا التدرج ، كان زوجى معاديا للمصحات العقلية ، لكنه فكر فى تأجير بيت طفولتى المشكل ، ومن هنا بدأ فى بيع مجموعة كتبه الثمينة .

مفاجأة أن نذهب لنعيش كمستأجرين فى المصحة، المشكلة جاءت عندما بدأنا فى بيع الكتب .

fb/mashro3pdf

السيد دالماو ، صاحب المكتبة العجوز الواقعة فى شارع «بانيوس نيوفوس» اشترى كتب جارثيا لوركا وسالفات بباسيت وماتشادو بمقدم مالى كبير، أصابنى هذا الحال بالاكتئاب بعض الشيء ، أنا كنت راغبة ورافضة فى الوقت نفسه فى التخلص من الكتب. أيضا حماس كارليس ريبا كان يشملني عندما كان يحاول ان يشرح لى أحوال عمليات بيع الكتب ربما دفعنى إلى هذا مزيد من الاكتئاب .

فى ذلك اليوم ، لا زلت أذكره جيدا ، ٢٤ من نوفمبر لم يظهر صوت السيدة المعتاد، هبطنا كارليس ريبا وأنا باتجاه محطة «الملكة اليسندا». كان يوما رائعا، خريفيا ومشمسا ، كانت الساعة تشير إلى حوالى الثانية مساء، كان موعدنا مع السيد دالماو ، كان كارليس ريبا يفكر فى شيء كنت أجهله حتى تلك اللحظة، فعرض على أن نتنزه فى حى بيدر ألبس كالمعتاد .

كان مرض عينى قد أجبرنى على البقاء فى البيت خلال فترة طويلة، والدكتور موت كان فى حاجة إلى التنزه فى الهواء الطلق ، كان يقوم بنزهاته وحيدا، حينها قررت أن أعترف بالسر الذى حافظت عليه حتى ذلك المساء، فى ذلك اليوم قررت أن أخفف من حماس زوجى بكل ما أملك من طاقة، الذى لم يكن قد تخلص بعد من حماس بيع المجموعة الأولى من الكتب، كانت قد حانت ساعة خروج المدارس فكنا نلتقى بهم فى الشارع ، على رصيف الجسر الضيق الذى يربط حى ساريا بحى بيدر ألبس .

– هذه أمى قادمة .

نظر كارليس ريبا باتجاه الأمام ورأى تلك الهيئة البيضاء التى كانت تقترب منا ببطء .

– يجب أن تحييها .

قال .

– كيف أحيى امرأة لا أعرفها .

شعرت بالرعب .

fb/mashro3pdf

ربما كانت فكرتى عن الأم هى تلك المرأة التى تسكن إلى جوارنا ، والتى تكاد تكون مجهولة بالنسبة لى، والتى كانت تتناول طعام عشائها فى شرفة بيتها فى بيدر ألبس. أو كانت تروح وتجىء من حى لآخر على الرصيف المشمس لتحرك ساقيها .

سارت السيدة والأحصنة الرمادية الأبدية التى كانت لا تزال على قيد الحياة دون أن تحيينا. لم أسمعها تتحدث بشكل مباشر مع السيدة فوستر، ولم تتح لى الفرصة أيضا الحديث مع أمى، كنت أراهما واسمعهما من خلال نافذة طفولتى فى برج بيدر ألبس . كيف لى أن أميز بينهما ؟.

كلاهما متشابهتان لحاجتى لأمى .

كلاهما شابتا وحيدتين، ببطء وفى صمت .

– إنها السيدة فوستر .

قلت ذلك فى النهاية لأهدىء من روع زوجى ، مع ذلك، لم أكن متأكدة بعد، كنت على استعداد لأن أدفع نصف حياتى للتأكد من أن تلك السيدة ليست سوى السيدة فوستر، لكن شيئا داخلى كان يدفعنى إلى الاقتناع بعكس ذلك، شىء ما فى داخلى كان يلعب مع أمى لعبة الاستخفاء. مرت السيدة فوستر إلى جانبنا دون أن تنظر إلينا دون حتى أن تنتبه إلىّ ، كانت نظرتها مركزة على بلاط الرصيف الذى كان على هيئة مربعات كنت أحفظها عن ظهر قلب. مرت إلى جانبنا كما كان معتادا منها، محاولة أن تبدو مجهولة .

– يا لها من مفاجأة ستواجه السيدة فوستر عندما تعرف ما سأريك اياه الآن.

هربت تلك الكلمات من زوجى .

لكنى لم انتبه إلى زلة لسان زوجى .

واصلت السير حتى الناصية التى يفصل الشارع عندها بيتا عن الآخر، إنها

fb/mashro3pdf

الخطوط الجهنمية ، الحدود النهائية ما بين الجنون والجنان ، إنها الحدود من جديد، الحدود بين الألم واللغة .

أول ما كنت أفعله عند الوصول هو النظر إلى نافذتى المفضلة، نافذة حجرة نومى، بستائرها المفتوحة وزجاجها المضبب، كما لو كانت تنتظرنى .

بعدها كنت أتطلع إلى مصحة الدكتور فوستر للتأكد سريعا من حلم طفولتى، إنها لا تزال فى مكانها، كالمعتاد، مطلية الآن بلون أزرق متوسطى ، صامتة كالمعتاد ، لكنها أكثر حيوية مما كانت عليه من قبل .

سرنا باتجاه البوابة الحديدية التى تلتف حول حديقة المصحة ، كنت أعتقد أننا سنواصل طريقنا المعتاد لنصل فى النهاية إلى حديقة «لورينيتا» ذلك المكان الصغير المكون من حديقة برية تقع على سفح هضبة تيبيدابو .

إلا أنه فى هذه المرة، توقف كارليس ريبا أمام المصحة ، وضع يده فى جيب جاكتته وأخرج مفتاحا ، إنه مفتاح بوابة المصحة .

قال لى :

– لا تخافى ، لا يوجد أحد .

فتح الدكتور موت بوابة المصحة الحديدية ودعانى للدخول .

– إنها لك .

أضاف بينما كنت فى حالة ذهول وأنا أقف على حشائش الحديقة التى تبدو كالمقبرة .

– أخبرنى .

– إنها لنا، لقد استأجرناها .

fb/mashro3pdf

- ٨ -

كانت مصحة فوستر المكان الوحيد فى الحى الذى لم نملك الشجاعة الكافية لزيارته عندما كنا صغارا وكنا نقفز على الأسوار والأشجار المحيطة بجميع البيوت المجاورة لمراقبة الجيران سرا .

كنا فى الواقع نرى المصحة كما لو لم تكن. كانت أمام أعيننا مجرد مصحة عقلية، لكننا كنا نفضل تجاهل التفاصيل الصغيرة التى تحتويها ، بعد مرور سنوات طويلة تمكن زوجى من أن يدخلنى إليها لأتعرف عن قرب على كل التفاصيل الدقيقة لذلك المبنى الغائب الحاض ر، بالنسبة لى . تماما كما كانت أمى.

قبل زمن من مفاجأة زوجي كارليس ريبا بإهدائى الدخول للمبنى ، تمكنت من زيارة مصحة فوستر مرة واحدة، عندما دخلت بشكل عشوائى ووقفت أمام الدكتور فوستر وقلت له :

- أنا ابنة ديكنز .

ومنذ تلك اللحظة بقيت فى المصحة كل الوقت الذى استمر فيه حلمى بأننى الابنة المتبناة لديكنز .

عندما دخلت مكتبه، ربما تساءل الدكتور فوستر عن ما كنت أخفيه من وراء هذا التأكيد الغريب .

لكنه لو سألنى ما كنت أعرف كيف أجيبه ، كنت أشعر أننى غائبة عن الوعى

fb/mashro3pdf

ومشوشة بسبب موت أبى. لم أكن أعرف بنت من أكون، مجرد ظل ، صوت لا وجود له .

كانت المصحة تعج بالممرضات والممرضين وبعض الراهبات، كانت بالنسبة لى شيئا غريبا، لم أتذكر أبدا أننى رأيت مثل كل هذا الجيش من العاملين عبر نافذتى المميزة .

داخل المصحة كان المناخ يدعو إلى التفاؤل، الممر تطل عليه أبواب زجاجية تؤدى إلى مكتب الدكتور فوستر ، الباب المقابل يؤدى إلى استراحة الزوار ، كانت الشبابيك عديدة وكبيرة ، لكن الستائر كانت مسدلة ، ربما بسبب الضوء القوى القادم من الحديقة .

أتذكر أنها كانت تفوح برائحة طعام .

الابنة المجهولة لم تكن تملك صوتا، وهذا كان يفسر عدم قدرتى على الكلام ، كما لو كانت جملة «انا ابنة ديكنز» تفسر كل شيء منذ موتى وحتى قصة ميلادى.

كنت اشعر بالراحة فى المصحة، ما كان يزعجنى هو وجود مرضى آخرين، إلا أننى ظللت، خلال كل الوقت الذى قضيته هناك فى استراحة الزائرين، صامتة، برفقة الدكتور فوستر ، أو وحيدة ، لم أكن قد شاهدتهم بعد .

أين كانوا ؟

فى تلك اللحظة فضلت أن أتخيل أن هذا المبنى كان يوما ما مصحة دون زبائن، وكانت تعمل بكامل طاقتها فقط لتبرر مهنة الطبيب النفسى التى كان يمارسها الدكتور فوستر .

مصحة عقلية تقع أمام بيتى لا هدف لها سوى إثارة الرعب فى قلبى وتحويلى إلى مجنونة .

إنه النوم، كنت أشعر بالحاجة إلى النوم، وكنت أريد أن أبقى هناك لأنام ، لكن كيف لى أن أطلب ذلك، ربما لو أننى نمت لتمكنت من الرقاد على أحد تلك الأسرة غير المرئية ، وبهذه الطريقة تمكنت من النوم بحثا عن صالة الانتظار .

fb/mashro3pdf

كنت محظوظة، رفعونى على أكتافهم وحملونى إلى السلالم العليا نحو مكان ما، استيقظت فى الليل فى إحدى الغرف المنتشرة فى الطابق الأول .

كانت تسيطر على فكرتى، لم أستطع مغادرة التفكير فى حالتى التى وضعتها أمام الدكتور فوستر، أنا الجارة اليتيمة التى قررت أن تسكن فى المصحة .

بالنسبة للأطباء النفسانيين فإن الجيران لا أهمية لوجودهم ، لكن العكس ليس صحيحا ، فأنت تشعر أنهم يراقبونك بشكل دائم .

كنت أريد أن أكتشف الفارق الذى كان بين بيتى وبين ذلك البيت المعروف المجهول فى آن واحد .

الغرفة التى وضعونى فيها كانت تتجه نحو الجنوب ، منها يمكن رؤية البحر من بعيد وجزء من قمة مونجويك ، ومجرد الخروج إلى شرفة حجرية صغيرة حتى يمكن رؤية نافذتى المميزة .

كانت المصحة تذكرنى بسكن تلك الفتيات اللاتى كن يدرسن اللغات خلال الدروس المنظمة فى الدول الأجنبية لمزيد من تحسين اللغة .

أول شىء أثر فىّ بصدق كان مشهد بيتى القديم عبر نافذة المصحة، من شرفة الغرفة التى خصصوها لى كان يمكننى أن أرى بيتى كاملا، وبالتحديد الجانب الشرقى وجزءا من الجانب الشمالى، أى أرى غرفتى . ومدخل الخدم. كنت أعتقد أن منزلى القديم كبير، لكن من خلال رؤيته من المصحة يبدو كحشرة، ضعيف البنية ، تحيط به بعض أشجار الصنوبر والحشائش المتسلقة التى يبدو أنها منسقة بعناية تامة، أكثر مما كنت أعتقد من النظرة الأولى، كانت محكمة حتى لا نرى المجانين الذين يوجدون فى المصحة، عدا شىء واحد ، نافذة غرفتى، التى كانت مستطيلة وكبيرة جدا، بدت صغيرة ، لكنها كانت مرتفعة ومفتوحة على العالم كما لو كانت قمة بركان. إنها مثيرة .

تلك المصحة ، إضافة إلى أنها سكن مترف للأثرياء تذكرنى أحيانا بالفندق ،

fb/mashro3pdf

لكنى أكره الفنادق، من المؤكد أن هذا المناخ المترف الغارق فى الصمت، تفوح منه رائحة خشب مغلق، حيث يحدث كل شىء خلف الأبواب المغلقة والتى لا يمكن عبورها بسهولة، كنت أريد أن أعيد تخيل مناخ مصحات المياه المعدنية ، وأن أمنحها الهدوء الكاذب والخطر .

ربما لم يكن يعرف الدكتور فوستر ماذا يفعل معى ، طريقتى الخاصة فى البحث عن ملجأ فى مصحة تكسر كل قواعد مديرى المصحات النفسية المحكمة ، بعدها بفترة عرفت أن الدكتور فوستر، لا اعرف إن كان بشكل مباشر أم غير مباشر، اتصل بأثونثيون ، زوجة أبى الميت قبلها بساعات قليلة ، وكانت هى التى منحته ذلك الإذن العائلى لإدخالى المصحة بشكل تطوعى .

قالوا لى إنها قالت :

– فى الفترة الأخيرة تبدو متوعكة بعض الشىء .

لكن الجملة الوحيدة التى تمكنت من نطقها بعد ظهورى فى المصحة كانت فيما يبدو واضحة المعنى لتحديد أول ظواهر مرضى، ليس أمرا طيبا، ويجعل المرء يفكر فى أن شخصا ما يعلن عن علاقاته الحميمة والأسرية مع الكاتب ديكنز .

ربما اعتقدوا أنه مجرد هذيان كاتبة .

ووضعونى فى قسم الهذيان ، سواء كان هذا له مبرره أم لا ، فأنا ككاتب كنت أحمل الرقم أربعة .

مرضى الأمراض العقلية ، سواء كانت حالاتهم لحظية أم متوطنة ، وعلى مستوى معين من الثقافة والتعليم الجامعى يكتبون أحيانا كيف يعيشون مرضهم، هذا ليس بغريب، بين العشرات من مرضى المصحة كانت هناك أربع نساء، فى قسم الكاتبات.

مسئولة هذا التقسيم هى الدكتورة كوهين، هى نوع من الطبيبات الكاتبات، كما كنت أسميها، وكانت تأتى إلى المصحة كل صباح وتذهب بعد منتصف النهار

fb/mashro3pdf

بقليل، تستقبلنا فى مكتب مشمس به ممر يؤدى إلى الحديقة الأمامية للمصحة، بشكل عام، كانت تستقبلنا جميعا دفعة واحدة، كما لو كنّا نحن الأربع نمثل حالة واحدة، كانت كطريقة للعلاج الجماعى غير المجدى، لأن الكاتبة رقم واحد، والكاتبة رقم ثلاثة، والرقم أربعة التى هى أنا، لم يكن هناك ما يجمع بيننا سوى الورق والقلم الذى كنا نعلق فيه عواطفنا على الحوائط.

كانت الدكتورة كوهين تريد أن تجمعنا معا فى كتاب واحد، تلك كانت فكرتها السرية غير المعلنة، بعد أن قمت بجمع بعض المعلومات المتفرقة والدلائل تمكنت من أن اكشف ذلك لها مما اثار دهشتها ، كانت الدكتورة كوهين تريد أن تضعنا تحت صفة الكاتبات حتى يمكنها أن تعطى لكتابها معنى، كاتبات، مع ذلك، كن غير قادرات على الكتابة المتعقلة، ولهذا السبب كن فى المصحة النفسية، أو كن كاتبات أدبهن الشاذ يمنعهن من الكتابة بشكل متعقل .

سألتها :

– ما الذى يأتى أولا، الأدب أم الجنون ؟

أنا كنت كاتبة غائبة، الكاتبة اللاشىء، من ناحية أخرى، الأقل طلاقة فى الحديث .

كانت الدكتورة كوهين تريد أن تبحث فى العلاقة بين المرأة وبين الجنون والكتابة.

كنا نحن ارانب معمل تجاربها .

كانت الدكتورة كوهين تريد أن تبرهن، فيما يبدو لى ، أنه لا يوجد ادب دون نساء كاتبات، وأيضا، أنه بلا جنون لا يوجد أدب ، أو أن الأدب يعنى الجمع بين المرأة والجنون .

كنت ألعب دور الصفحة البيضاء أمام الدكتورة – الكتاب، كنت أشارك فى عملية الاستشفاء الجماعى كما لو كنت محكوما على بالاعتقال فى انتظار لحظة الإفراج التى لا تأتى .

fb/mashro3pdf

مع الدكتورة كوهين، كنا ننتهى دائما إلى الحديث عن الادب، أى مادة أدبية كانت تصلح حتى لا يتم التعامل معى ومع نصوص غير منشورة كموضوع للحديث .

كنت متأكدة فى بعض الأحيان من أن الكاتبة الوحيدة بين المجتمعات الخمس فى الصالون هى الدكتورة - الكتاب ، هى تحاول أن تصنع شيئا ذا فائدة لمستقبلها المهنى ، كانت تعتصرنا إلى أقصى حد، كانت تمتص عقولنا لتملأ بإحاطاتنا والثلاثمائة أو الأربعمائة صفحة لكتابها المستقبلى. أليس هذا بالضبط هو عمل الروائية ؟

لكن الدكتورة كوهين كانت تريد علاجنا ، هذا مالا تفعله الروائيات .

- بطلات الروايات لسن سوى مريضات مأخوذات من مصحات نفسية .

- أليس من المحتمل أن يكون هدفها تحويلنا إلى بطلات فى رواية ؟

تأكيدات وأسئلتها التشكيكية كانت الدكتورة كوهين تثير حنقى .

كان واضحا أننا نحن النساء الأربع كنا هناك لأننا نحب الحياة اقل مما نحب الأدب .

تقنية الدكتورة - الكتاب التى كانت تستخدمها معى باستمرار هى الإثارة الدائمة، كانت تلك الطريقة الوحيدة، فيما أعتقد، التى كانت تجلعنى أطلق صوتى الداخلى كغطاء زجاجة الشمبانيا .

على الرغم من أنها كنت تفضل قراءة نصوصى غير المنشورة ، فإنها لم تقرأ أبدا كارليس ريبا بحب وحنان ، كانت تقرأ وتنسخ صفحاتى لتعيد نسخ جملى بعد ذلك فى كتابها . كانت جملى أمثلة غريبة بعض الشىء. أنا كاتبة الشعر المربك.

كانت حالتى الطبية تثير اهتمامها .

كانت تقول :

fb/mashro3pdf

– ليس صدفة، أن تكونى هنا الآن، لم يكن لديك الخط الفاصل بين الأشياء على الاطلاق ، فلنعمل فى هذا الاتجاه .

المرضى الحقيقيون لا يساعدون الأطباء النفسانيين ، كنت أحب أن أمارس دور المريضة الحقيقية مع الدكتورة كوهين، السر كان يكمن فى اكتشاف سبب وصولى إلى المصحة .

كانت الدكتورة – الكتاب تقول بقلق .

– لا يأتى أحد إلى هنا بالسرعة التى يأتى بها أحد لتولى القيام بعمل ما، أو للاستمتاع باجازة سياحية .

لكنى لم أكن أجيبها، أنا كنت مريضة متحفظة ، لم أكن على علاقة حقيقية مع باقى المرضى، كنت أمثل حالة الكاتبة التى تحضر جلسات العلاج الجماعى من خلال الأدب .

فى لحظات معينة كانت المصحة منزلا لممارسة التمرينات الروحية، كنا نحن المرضى نقضى جل أوقاتنا منعزلين فى غرفنا ، للنوم أو الراحة نتنزه فى الحديقة كل منا برفقة أفكاره، نحن الكاتبات كنا نخرج إلى الحديقة وحدنا، كل منا تحمل كتيبها بهدف تدوين ذكرياتها ورؤاها، بعدها نسلم المذكرات للدكتورة – الكتاب لكى تواصل وضع خطط علاجها للنساء المصابات بهذيان الكتابة .

كنا مسميين بالادوية بشكل كبير مما أبعدنا عن التفكير فى القراءة أو الحلم بالكتب، انا لم أكن أفكر فى أى شىء، كنت أطيع دورى المنوط بى ككاتبة رقم أربعة .

الكاتبة رقم واحد كانت الأكثر شبابا بين الكاتبات الأربع، مع ذلك كانت هى الكاتبة السكيرة ، مأسى الحياة دفعتها إلى الأدب ومن ناحية أخرى ، فإن صعوبة الأدب دفعتها الى الخمر، والخمر بكميات كبيرة اغرقتها فى الشعور بالذنب وكانت تدفعها الى إيذاء نفسها . إنها الحلقة المفرغة، كنا جميعا ندور فى تلك الحلقة المفرغة .

fb/mashro3pdf

بعدى أنا ، كانت رقم واحد الأكثر خجلا والأقل كلاما، وإن كانت الأكثر ذكاء وثقافة بين الكاتبات الأربع، أنا قرأت كتبا أكثر ، لكنها هى كانت تفسرها وتحللها بشكل جذاب وأكثر سحرا من طريقتى .

بتوقفها عن السكر ، فإن الكاتبة رقم واحد كانت أقرب إلى الشفاء ، أو الموت، طبقا لرؤية كل منا ، لأنها فى هذه الحالة ستصاب بكل أنواع الأمراض وعليها أن ترقد فى السرير لتشفى من أمراض سرية .

الكاتبة رقم اثنين، هى الشخصية الميالة إلى الانتحار ، كانت الأكبر سنا بين الأربعة، تم إنقاذها من العديد من محاولات الانتحار، كانت المخضرمة فى المصحة، والأكثر خضوعا للمراقبة، حرصت الدكتورة كوهين على تعيين حراسة سرية من حولها ، بهذه الطريقة تمكنت من إبعادها عن أخطارها الشخصية .

كانت الكاتبة الانتحارية تصاب احيانا بهلوسات فتختلط عليها الوقائع، لذلك كثيرا ما كانت تمتد إليها يد ممرضة لحقنها بمهدىء يخفف عنها هلوساتها، عدا ذلك فإن قصائدها جميلة جدا .

لهذا السبب كنت أقول للدكتورة – الكتاب :

– إذا كانت هى قادرة على كتابة هذه القصائد الجميلة فإن ذلك يعود إلى الهلوسات .

كانت الكاتبة رقم اثنين تسمى قفزة العقل بالحمى، عندما تشعربالحمى تبدأ فى الكتابة كالمجنونة .

كانت الدكتورة – الكتاب تريد أن تصل فى بحثها إلى أن المرأة الكاتبة لابد وأن تبحر فى الجنون ، كانت تقول بالضبط :

– السباحة فى بحر الجنون على طوق هوائى .

المشكلة أن الدكتورة كوهين كانت منتفخة بالهواء بينما نحن كنا فى حاجة إلى الهواء .

fb/mashro3pdf

كنت أقول لها :

– قبل أن نكتب ، يجب أن تعثر كل منا على بيت مناسب لها ، أن تعثر على فضائها الخاص، صفحة كتابها المناسبة .

من حسن حظ الكاتبة رقم ثلاثة أن مشكلتها كانت اقل حساسية، كانت تبدو عليها أعراض الشبق، إضافة إلى أنها لم تكن تخجل من ذلك .

كانت امرأة جميلة رغم أنها صعبة المحادثة ، لأن أحاديثها تتركز دائما على الجنس وحينها يصبح من الصعب إخراجها من هذه المنطقة، كانت تتزيا دائما بطريقة فاضحة وأول أولوياتها التخطيط لألف طريقة وطريقة لمطاردة الأطباء والمرضين ،كانت تحفظ عن ظهر قلب صفحات كثيرة من أعمال هنرى ميللر ، وأيضا لكاتب آخر ثقيل الظل اسمه بوكوفسكى . متحمسة دائما لتشرح لنا العلاقات الجنسية للكاتبة أنابيس نين مع أبيها ، عازف البيانو خواكين نين، الثالثة كانت شبقة مترفة .

منذ البداية كنت أشعر بالنفور من الكاتبة رقم ثلاثة، لم أكن احتملها وكنت أتجنب الجلوس إلى جوارها أو حتى أنظر إليها .

كانت تقول لى بتنطع : – تبدين كراهبة .

كنت أقول لها بحنق غبى :

– أنا أثيرية .. لا أوجد ، يمكنك أن تشعرى بالراحة لو أبعدت نظرك إلى اتجاه آخر .

نحن المريضات كنا نعيش منفصلين كل منا بعيدة عن الأخرى على الرغم من أننا كنا نأكل على مائدة واحدة ونتقاسم مكان الراحة بالحديقة ، كل واحدة منا كانت تبدى احتقارها المفتعل تجاه الكاتبة رقم ثلاثة ، الجنس الظاهر كان يبدو كخنجر معلق فى السماء، كنا نهرب كلنا من تلك المرأة المسكنية التى كانت تتعرى بلا داع، وتصدر إشارات مثيرة ، وتصبح ثقيلة الدم عندما تكون حزينة ، ومكتئبة ومنغلقة على نفسها .

fb/mashro3pdf

لكن الثالثة ، عندما تكون ساخرة تكون خفيفة الروح بحق. بعد أيام قليلة من التعرف عليها توقفت عن الهروب منها ، وبدأت أتابع مداعباتها الفاضحة، حماسها كان مبالغا فيه إلى درجة أننى كنت أعتقد أنها تمثل دورا مكتوبا لها خصيصا لترفه عنا .

الصفحات المكتوبة التى كانت تقرؤها الثالثة بصوت مرتفع على الدكتورة – الكتاب كانت كتابة جنسية فاضحة، وعندما كانت تهرب منها بعض الجمل الغنائية الجنسية – الأدبية، كانت تمحوها متعمدة كما لو كان الشعر ليس سوى الخمار الأسود للجنس .

ما بين المد والجذر ضد موقف الدكتور كوهين الرقابى، كانت تؤكد الدكتورة على أن الكاتبة رقم ثلاثة تقدم كل قدرتها الأدبية من خلال التحرر عبر الكتابة الجنسية، بينما كانت الثالثة تعترض عليها، وكانت تتشدد فى مزيد من الشبقية.

كانت تحتج :

– الشعر ليس سوى الواقى ضد الأدب الجنسى.

كانت تقص علىّ خبراتها العملية فى ممارسة العادات السرية.

– علقى مرآة كبيرة بحجم رجل، ضعيها على الأرض، وابدئى فى خلع ملابسك، أولا بشكل جزئى، وبشكل أساسى يجب أن تكونى متجملة جداً، خاصة وضع أحمر الشفاه، يجب أن يكون لونه أحمر بلون الكرز.

تواصل :

بعد ذلك مباشرة، انظرى إلى المرآة لفترة طويلة، ثم اركعى عليها دون أن تحولى نظرك عنها، انزلقى على الزجاج ببطء شديد، يبدو الزجاج باردا، عندما يصل ثدياك إلى المرآة ادعكيهما بها، افتحى ساقيك حتى ينزلق عرقك على المرآة، وتحركى من جانب إلى آخر.

كنت أقول لها:

fb/mashro3pdf

– أسرتى كانت على علاقة صداقة بأسرة «أنايس نين»

– لا أعتقد، أنت تكذبين، هل تعرفين لماذا كانت «أنايس نين» تطلق على نفسها اسم الكاتبة ؟

تقاطعنى :

– لتمارس الجنس كل يوم مع من تريد، كانت شبقة.

كانت تكرر من الذاكرة بعض المقاطع التى تربط بين نين وهنرى ميللر.

– كانت تمارس الجنس حتى مع أبيها، هل تعرفين ذلك؟

حينها، وحتى لا أهينها، كنت أخترع قصصا عنها.

أقول :

– أتذكر عندما جاءت فى يوم من الأيام إلى بيتى مع شقيقها الموسيقى، كان ذلك صباح يوم أحد، ظهرت فجأة امرأة صغيرة، نحيفة جداً، أنيقة بشكل لافت للنظر، وعلى وجهها مكياج فاضح، كانت تبدو كتلك النساء .

كانت أسرتى تتجنب اسم «أنايس» كما لو كان طاعونا.

قالت هى :

– كانت شبقة، المجنونة.

إلا أنها كانت تبدو لى سيدة مثل أى سيدة أخرى، وإن كانت أكثر أناقة فى الملابس والماكياج، لكنها كانت متناغمة مع المناخ الثقافى البرجوازى المحيط بها.

واصلت أنا :

– عدت لرؤيتها فى ذلك المساء نفسه، فى باليه كوبيلا، فيما أعتقد، أرسلنى أبى بدلا عنه، كان يكره الليسيه، وكانت هناك «أنايس نين»، وإن كنت لا تصدقيننى، فقد كانت معى فى البلكون نفسه.

لم تكن أسرتى ترحب كثيراً بأنايس نين فى بيتى، فيما كنت أنا أجمع مذكراتها وأقرؤها فى السر كما لو كان الأمر يتعلق بقصص ماجنة.

fb/mashro3pdf

كان أبى بالطبع يفضل ألا أقرأها.

- احتراما للأدب.

ربما كانت هذه إجابته لو سأله أحد عن رأيه.

الكاتبة الثالثة وأبى متفقان بالنسبة لهذه المسألة.

كانت تقول الكاتبة الثالثة:

- إنه زيف، كل هذا الاستطراد لشرح ممارساتها الجنسية.

كانت الكاتبة الثالثة تكافح من أجل التفوق على الحياة الجنسية لأناييس نين.

- نين مارست الجنس مع اثنين فقط من المحللين النفسانيين. بالنسبة لحالتى على العكس تماما، لا أكاد أذكر الرقم.

كنت أنا أريدها أن تذكر أسماء محددة، فالكاتبة الثالثة كانت تسلينى أكثر من أى شخص آخر .

كنت أسألها :

- أناس من المصحة؟.

كانت تجيب بانتصار :

- من كلا الجنسين.

- حتى الدكتورة كوهين؟.

أثرتها بسؤالى.

أطلقت الثالثة قهقهات عالية.

كان واضحا لى أن الدكتورة - الكتاب نجحت فى الهروب من اندفاعات الكاتبة الثالثة. وحتى الأطباء الأكثر شهرة كانوا يسقطون دائما بين ذراعى مرضاهم عندما يتحول أولئك إلى هذه الحالة، تماما كما فى حالة الكاتبة الثالثة، اعتقد أن جسدى لم يكن يوقظ فيها تلك الحالة، جسدى، فيما اعتقد، كان دائما أثرا أو جرحا بفعل غياب الجنس، الظلال ليس لها جنس، وأنا كنت دائما ظلا لكل النساء اللاتى سكننى فى طفولتى، كن يسكن أمام أو خلف حاجتى للجنس.

fb/mashro3pdf

– أنت أديبة أكثر من اللازم، هل تعرفين ما هى الكلمات الحقيقية التى كتبتها أناييس نين، الكلمات الصحيحة؟ سأقولها لك، تلك التى كانت تقولها بعد كل ممارسة جنسية مع أبيها، خواكين وأناييس، كانا يهجعان فى فندق أنيق فى فالسكورو، فى فرنسا، هل تذكرين؟، كانا يستأجران غرفتين، لكن أناييس كانت تمضى الوقت كله في غرفة أبيها لرعايته من ألم الظهر، كانت ترافقه، يتحدثان لساعات طوال، وعندما يأتى الليل تبدأ هى القبلة الأولى، وبعدها، حين ينتهيان، تدخل الكاتبة إلى الفعل مباشرة، ولا تنسى حالتها الأدبية، وتقول:

«عدت إلى غرفتى بمنديل ما بين ساقى لأن مياهه كانت دافقة، دخلنى ثلاث أو أربع مرات، دون توقف، ودون أن ينسحب».

خيالات مريضة مشوشة تتكرر فى مشوشة أخرى، ربما قال أبى ذلك لو أنه سمع حكاية أناييس نين، صديقة الأسرة.

فكرت حينها: «أن المصحة النفسية كانت عبارة عن ملحق ضخم لمكتبة، المصحة النفسية ما هى سوى الحالة العليا للحالة السفلى التى كانت عليها المكتبة من قبل، وطريقى هو هذا، من أسفل إلى أعلى، للوصول إلى أين؟.

ماذا بعد هذه الحالة العليا المسماة بالمصحة النفسية؟

حينها لم أكن أعرف كارليس ربيا، ومن المفترض أن المكان المناسب لإقامة روحى وفعل شئ مفيد بحيّاتى هو الاهتمام بمصحة الدكتور فوستر، قررت أن أسكنها، لكن رأى الأطباء كان متعارضا تماما مع رأيى.

خاصة الدكتورة – الكتاب، التى كانت تريد أن تخرجنى من هناك فى أسرع وقت ممكن .

كانت تقول :

– هذا ليس مكانا للاستجمام.

كما لو كانت الحياة حياتى، يمكن أن تكون فى مكان آخر.

fb/mashro3pdf

كانت تصر:

- إنه خطأ، هذا المكان لا يناسبك .

لهذا السبب كانت هناك صديقاتى، الصديقات الوحيدات اللاتى حصلت عليهن في حياتى، هذا بخلاف ابنة خالتى كريستينا .

- يصبح مفيدا أن تعيش كل يوم من حياتك كما لو كان هذا المكان مصحة نفسية.

من المؤكد أن الدكتورة - الكتاب كانت على حق ، المصحة النفسية الحقيقية الوحيدة هى الشارع، والناس الذين يمكن لقاؤهم فيه. لهذا السبب أنا كنت أفضل البقاء فى البيت.

- سبب خاطئ.

كانت تقول الدكتورة .

كان أبى يأخذنى أحياناً مع ابنة خالتى كريستينا للتنزه قليلا فى دير بيدرألبس.

كان يقول لنا :

- هيا نزور الراهبات.

كنا نخرج إلى الشارع وخلال دقيقتين كنا ندق الباب.

نحييهن فى صوت متناغم :

- حيتكن العذراء الطاهرة.

- ادخلا بلا ذنوب.

كانت ترد علينا الأخت المناوبة.

ابنة خالتى وأنا كنا نكاد نموت من الضحك والانفعال لأننا كنا نمثل الدور الرئيسى فى هذا المشهد.

كان أبى يبرر الزيارة بأى سبب كان، نحن فى النهاية جيران، الجيران

fb/mashro3pdf

الوحيدون بخلاف خالاتى والمجانين، الذين نتجاهلهم أو على الأقل نتجاهل وجودهم فى هذا المشهد الشاذ.

كنت أنا وابنة خالتى نستغل أى فتحة فى الخشب القديم لنراقب الراهبات، كنا كمن يسرق الدور من الممثلين الرئيسيين فى المسرحية.

حياة الراهبات كانت تثيرنى دون أن تجذبنى، من كانوا يجذبوننى حقيقة هم المجانين، خاصة أننى أراهم وهم لا يروننى، كانوا هناك وأنا لم أكن أريد أن أراهم. المجانين لا يمثلون، كانوا طبيعيين جدا مثلنا. كانت وجوه المجانين تبدو متعبة من هذا العالم، وجوههم كانت شاحبة كوجوه الموتى بسبب الأدوية المسكنة.

إذا كان بعضهم يخرج من الباب الخلفى للحديقة لحضور قداس الأحد ، كنا نحن نتصنع عدم رؤيتهم ، بصراحة لم يكونوا موجودين ، كانوا مجرد أشباح .

من يعرف ما كان يمكن أن يكون عليه أبى من صحة لو أنه بدلا من دفعنا لزيارة الراهبات فى دير بيدر ألبس كان يمكنه أن يقول لنا :

– هيا لنزور المجانين .

ما كان أسهل وأظرف من ذلك ، علمنا أبى ألا نراهم ، مبنى المصحة كان له شكل برج مهجور ، كان بيتا مطليا باللون البنى بأسقف حمراء قرميدية ، وأبراج صغيرة جميلة وشرفات ، كان نسقا تشكيليا وشعبيا لبيت ضائع فى جبل تسكنه الأشباح .

وبالطريقة نفسها التى كنا نفضل فيها التفكير فى المجانين النائمين أو المخدرين ، كنا نفكر أيضا فى أنهم يفكرون بالطريقة نفسها عندما يراقبوننا .

فى ذلك المساء عرض زوجى فجأة هدية مراقبة حياة الجانب الآخر للمجانين ، من البيت المقابل ، حتى الآن ، من بيتى الجديد ، المصحة، يمكننى أن أرى نافذتى المتميزة .

قلت لزوجى :

– كانت أفضل هدية فى حياتى .

fb/mashro3pdf

– من يعن له أن يعيش برفقة المجانين ؟

كان للحاقدين أن يقولوا .

لكن نحن ليس لنا حاقدون علينا ، يمكنهم أن يهتموا بقول شيء طيب أو رديء عنا .

كان البيت خاليا ، أو هذا ما كان يبدو فى ذلك المساء عندما دخلنا أنا وزوجى خلسة ، كانت الحديقة مهملة بعض الشيء ، أذكر أنه كانت هناك بعض الشجيرات التى كان يتم تشذيبها على هيئة حلقات دائرية فكانت تشكل ما يشبه الكهوف أو القباب المكشوفة من جانب وآخر ، من هناك ، كان يمكن للمجانين أن يتجسسوا علينا طوال ساعات اليوم دون أن يكتشفهم أحد ، وبذلك يمكنهم معرفة ما نفعله نحن فى البرج . ما إن دخلنا إلى بيتنا الجديد نظرت إلى البيت المواجه ، برج بيدر ألبس يبدو من هناك ضئيلا ، لا قيمة له ، إضافة إلى أن الجانب المرئى من هنا هو الجانب الأقبح شكلا إلى الجانب الذى توجد فيه نافذة غرفتى ، وأيضا مكان الخدم والجراج .

– هل كان المجانين يتسلون برؤيتنا ؟ .

كان هناك ثلاثة من الأطفال الصغار بوجوه ملتصقة بقضبان البوابة الحديدية ينظرون من الشارع فى صمت وخوف ، ربما ، هذا ما كنت أراه أنا ، عبر السور الشجرى المحيط بالمصحة .

قلت حينها لزوجى :

– أريد أن أسكن هنا إذا كان هذا لا يزعجك .

أشرت عبر الحديقة إلى نافذة غرفة نوم البرج ، كانت متفردة ووحيدة ، منقسمة إلى ثلاثة أجزاء غامضة .

– انتظرى إلى أن ترى البيت من الداخل ، ربما تغيرين فكرتك ، إنه بيت ضخم ومتعدد الغرف ، اهدئى ، لا تتسرعى .

fb/mashro3pdf

فهمت فجأة ، أننى لازلت أقف إلى جوار الدكتور موت .

لم يعجبنى هذا ، نظرت إلى أعلى ، كنت أريد أن أجرب مرض عينى .

«ربما أرى السيدة معلقة من النافذة والدكتور موت يستغيث طالبا المساعدة» .

فكرت .

لم يكن هناك أحد حتى هذه اللحظة .

– خشب الشبابيك يبدو مثيرا للراحة .

قلت ذلك ، لكن كارليس ربيا لم يسمعنى .

الطفلة المعلقة بقضبان البوابة الحديدية تخيلت أن تلك المرأة ذات الشعر الطويل والتى ترتدى الرداء الداخلى الأبيض المعلقة فى الشباك المرتفع كانت هى أم الأطفال الصغار الثلاثة الذين يسكنون فى البرج المقابل .

بعدها سقطت السيدة وانفجر العالم ، أغلق الصغار أعينهم وفتحوها بعد ذلك، معتقدين أنهم يعيشون مع أشباح .

– من الذى يترك أطفالا يتامى يعيشون مقابل مصحة نفسية .

لم يقل أحد أبدا تلك الجملة الجادة .

من مكان الدخول تجولت أولا فى الحديقة ، سرت على الحشائش وما بين الزهور ، التى تحولت إلى حشائش برية ، على الرغم من وجود قصارى زهور ضخمة جميلة مزروعة فيها أشجار استوائية .

كان كارليس ربيا ينتظرنى فى الشرفة الكبيرة المؤدية إلى الصالون الرئيسى .

صعدت عبر الدرج الحجرى ودخلت ، لأول مرة ، فى بيتى الخاص .

قلت :

علينا أن نعمل ونقوم بتغيير بعض الأثاث ، والتخلص من الثقيل منه .

لكن ، أين قطع الأثاث ؟

لم يكن يعنينى أن أكون صاحبة مكان متسع لنا وحدنا نحن الاثنين ، مرض

fb/mashro3pdf

العينين يمكنه أن يستيقظ فى أى لحظة وحينها ستمتلىء الفراغات بالأشباح . أنا فقط أرى الآن الأبواب المؤدية إلى الغرف الفارغة ، لكنها ، مرتبة ونظيفة ، باركيه الصالون والدرج كان ضيقا جدا .

قلت :

- عليك الاهتمام بنقل الأثاث ، وأنا علىّ تنظيم المكان .

- سأعود بأشيائنا .

قال زوجى ذلك واختفى .

لا أتذكر إن كان عاد سريعا أم متأخرا ، نظرا لإجراءات النقل فقدت الإحساس بالزمن ، وكان لغياب الكتب جزءا كبيرا من الذنب فى ذلك ، لأننى تعودت على هذا الفراغ الكامل مما شوشنى بعض الشىء ، إضافة إلى أن الغرف كانت كثيرة ومساحاتها واسعة مما جعلنى أعتقد أن كارليس ربيا كان محبوسا فى إحدها يمارس عاداته ، مما جعلنى لا أراه لعدة أيام كاملة .

أنا كنت سعيدة ، فيما أعتقد ، لم أعد لرؤية المرأة منذ وصولنا إلى هنا .

قلت لكارليس ربيا :

- أنا شفيت تماما ، لا أرى أحدا ، انتهى ظهور الأشباح .

اختفت تماما تلك المرأة التى كانت ترتدى زى الأم .

من ناحية أخرى ، لو أننى عدت إلى نصوصى من جديد فإنها ستبدو مفهومة .

كما لو كان الصوت قد انصهر فى تفكيرى . كل شىء عاد إلى نسقه المعتاد ، صباحاتى وأمسياتى وأحلامى .

قررت الإقامة فى الغرفة ذات الشراعات الثلاث لأنها كانت تمنحنى الرؤية الأكثر إعجازاً ، كانت غرفة نوم بيضاء ، بياضا ناصعا .

لم يكن لكارليس ربيا غرفة محددة ، كان يمكنه أن يختار بين العديد منها ،

fb/mashro3pdf

فى الحقيقة ، لو أننى عددت الداخلية منها ، يمكننى أن أعرف أيها تصلح لكارليس ريبا ، كان زوجى يظهر دائما فى الوقت غير المتوقع ، حين أكون فى الحديقة للابتعاد عن الشمس ، أحيانا ، يأتى مبتسما كما لو كان آتيا من مكان آخر ، كان يجلس إلى جوارى ويحادثنى ، أحيانا أخرى كان يختزل كلماته وحينها كنت أفكر أنه كان سكران .

«اختفاء الكتب يؤدى بلا شك إلى الخمر» ، كنت أعتقد ، كانت لدى تجربة كافية فى هذا المجال .

كنت أشعر بالذنب لأننى كنت شريكة فى مؤامرة بيع الكتب ، لم أعد أتذكر من منا صاحب الفكرة ، ربما كانت فكرتى ، ونتيجتها الآن زوج يمط فمه حين يتحدث بسبب الخمر .

كنت أطلب منه :

– ضع كل كلمة فى مكانها .

كما لو كان الكلام بيننا فى حاجة إلى نظام .

فى أحيان أخرى كان كارليس ريبا يصل ليلا ، ساعة تناول العشاء .

– اجلس لتتعشى معى .

كان يقول مبتسما :

– لست جائعا .

كنت أراه فى الفترة الأخيرة غير مستقر ، نحف كثيرا ، كان يدخن بشراهة ويبدو تعيسا أكثر من أى وقت مضى .

بدأت أفكر فى أنه ربما كان علينا أن ننفصل ، حياتنا المشتركة اختزلت فى المشاركة فى السكن فقط ، بيت ضخم ، لا يكاد يسمح لنا أن نرى بعضنا البعض، والأخطر أننى أنا التى لم تكن تشعر الحنين لرؤيته .

عندما كنا نلتقى كنت أقول له ببرود :

fb/mashro3pdf

– الوقت يجرى .

كنت قد اعتدت على الحياة برفقة كارليس ريبا ، ويمكننى الاعتياد على رؤيته من وقت لآخر ، لكنى لم أكن أعرف كيف أعرض فكرة انفصالنا عليه ، من ناحية أخرى ، كان هناك البيت ، لأننى لم أكن أرغب فى مغادرته بأى طريقة من الطرق، ولم يكن يهمنى أن أعيش فيه وحيدة ، وإن كنت لم أعد أعيش فيه وحدى منذ أن دخلت المصحة .

أتذكر لو أننى شكوت مرة فى لقاءاتنا ، كان زوجى يجيبنى :

– لم تكونى من قبل أفضل من ما أنت عليه عليه الآن . إنهم يهتمون بك كما كنت تريدين دائما .

فيم كنت أفكر أنا . «أنت عدت للشراب » .

كنا جميعا مرضى بعيوننا ، نرى ما نريد أن نراه فى وقت معين ، انتبهت أنا إلى أن اللحظة حانت للبدء فى التفكير فى الطلاق ، وإن لم تكن هناك أسباب واضحة للبدء فى اتخاذ أى إجراءات فورية .

لكن كان هناك خيط لا ينقطع يربطنى بكارليس ريبا ، كنت مرتبطة به منذ البداية بفضل قرابة المقابر ، كارليس ريبا حفيد الشاعر يمنح معنى لحياة كانت موجودة هناك أمارسها ، ولم يكن لها معنى فى جواره .

على النهج نفسه الذى كان عليه الشاعر ج . فى . فويس يمنح حياة أبى الفاشلة معنى ، لم يكن هناك عيد ميلاد دون أن يعرض أبى علينا بفخر التهنئة التى كان يرسلها إليه الشاعر ، مثل تلك التى كان يرسلها له ولغيره من الأصدقاء والمعارف . كان أبى يعلق التهانى إلى جانب صورة أمى ، كان اسم الشاعر ج . فى . فويس مطبوعاً على التهانى بهذه المناسبة ، هذا المعنى كان يمنح لمعنى حياتنا معنى ، كنا معا ، بسبب تلك التهنئات بأعياد الميلاد من شعراء ممتلئين بالحب والمستقبل .

fb/mashro3pdf

كنا حبر أشعاره الجاف ، بقينا بلا كتب وأصبنا بالإحباط الذى لا فكاك منه .

كانت شفة زوجى كارليس ريبا السفلى بارزة بعض الشىء ، كانت الشفة المعتادة لمن يلعبون بالخمر يوميا كما لو كانت لعبة الروليت الروسية .

– لك شفة مثل شفة كافافيس .

كنت أقول له بحنان حتى أجذبه إلى حمى الشاعر اليونانى .

فكان ينذرنى :

– كما أبعدتنى عن كتبى فإننى سأحرر نفسى من كتاباتى .

وأنا لم أكن قادرة على أن أقول له ما إذا كان هذا شيئاً طيبا أم سيئا ، إذا كان هذا العرى التاريخى سيكون مؤذيا له ، أم على العكس تماما يمكن أن يفيده.

– القصائد، أفضل القصائد، ليست سوى كومة من العظام العفنة، الشعر الآن رياضة شفائية، تماما كالأدوية.

ليس شيئا عموميا أن يرغب طبيب فى أن يكون شاعرا، أو أن شاعرا يرغب فى أن يكون طبيبا، كانت تبدو صراعا بين الحياة والموت، معركة لا طائل من ورائها، الشعراء هم ملائكة الموت، لا علاقة لهم بالأطباء والمرضين.

اختار زوجى أن يدرس الطب ليكون قريبا من الموت، أن يكتب أشعارا بعظامه، إنه طبيب من نوع خاص جداً، فقد تخصص فى التشريح، عندما كان يمارس المهنة لم يكن يخرج من قسم الموتى، كان يصاب بالغثيان من الأحياء، خاصة بعد أن يمضى الساعات الطويلة فى تشريح الموتى.

عمل لسنوات طويلة فى قسم التشريح بمستشفى الإقامة الطبية، عرف كل أنواع الموت، ومن كل الألوان، وكل الأحجام، كان المكلف بفتح الأبواب لهم، وفى مرات، كان يشرحهم حتى يمكن معرفة الأسباب الحقيقية للموت.

العمل كثيرا مع الموتى جعل عقله يخلط بين الأشياء، فى بعض الأحيان كان يخلط بين الموتى والأحياء، هذا أمر طبيعى بين الشعراء وبعض الكتاب، خاصة بين أفضلهم.

fb/mashro3pdf

كان كارليس ريبا يحدثني عن الأحياء كما لو كانوا موتى.

ما الفارق؟.

في النهاية نحن نعيش كما لو كنا موتى، كنا نعيش الحياة كصفحات كتاب، بلا سينما ولا أي نوع من أنواع الفرجة، بلا تليفزيون ولا اهتمامات كبيرة، بلا أصدقاء.

فكرت دائما أن كارليس ريبا لن يصل إلى سن الشيخوخة، لم يكن يشكو من أي شئ على الإطلاق.

كان يقول:

- للوصول إلى سن الشيخوخة يجب معرفة كيفية الشكوى.

إنها نوع من التنفس كان هو مثلي يجهله.

الكتاب يعملون كالموتى، وأحفاد الكتاب؟. لكن كارليس ريبا وصل إلى أبعد من ذلك، كان معتادا على التفوق على كل شئ، زوجي يتغذى على الموتى، تلك الأشياء تترك بصماتها، حينها كنت أشرب وأشرب لأخلط بين الأحياء والموتى.

كنا مريضين بالحياة، نقطة ضعفي أنا كانت لاتزال النظر، كان يضعني في مواقف محرجة يجعلني أرى أشياء غريبة، أو على العكس يمنعني من رؤيتها، نقطة ضعفه هو كانت الروح، كانت لكارليس ريبا روح مدمرة، كان محترق النفس، يتنفس أحيانا كالميت.

عندما كان يختفي في غرف البيت الجديد كان يقول إنه كان هناك، في الحمامات الجديدة، يتاجر بالكتب القديمة، ينتهي من بيع الكتب.

كنت أقول بقلق:

- ربما أخطأنا، ربما تريد أن تستعيدها.

حينها يهدأ.

كان يقول بشفة معوجة:

fb/mashro3pdf

- فعلنا ما هو صحيح.

- بعد أن قرأت مئات المرات وأعدت قراءة شكسبير وصلت إلى مؤداها أن لذة القراءة تتحول إلى خطر، كل شئ يختلط، الواقعى يختفى ويبقى من يقرأ الكتب لفهم الحياة. يبدو لى أن شكسبير وديكنز أكثر واقعية من ذلك الرجل الذى يعبر الشارع أمامى الآن.

من المؤكد أن كارليس ربيا يعتقد أنه بتخلصه من المكتبة دفن أشباحه إلى الأبد، مع ذلك لم ينتبه إلى أن ذلك القرار جاء متأخرا جداً، بعد أن تحولنا هو وأنا إلى أشباح ضعيفة.

كان البيت الجديد يبتعد عنا.

كل يوم كان يبدو كما لو كان رحلة.

مرت عدة أيام دون أراه، أو هذا ما اعتقدته حينها، لأن الإحساس بالزمن فى البيت الحديد تماما كالإحساس به فى رواية ما. كل شئ حسب العيون التى تراه، بالنسبة لقارئ سريع الزمن مجرد ساعات، أنا كنت قارئة فوضوية وعمياء، ربما، رؤيتى لزوجى إلى جانبى دائما، لكنى لم أكن أراه، كنت أرى المشهد فقط، الحديقة، برج بيدرألبس، نافذتى المميزة، وكنت أرى، إضافة إلى ذلك، الأشياء المكتوبة خلف المشهد، وعبره، كان كارليس ربيا يضيع فى تلك الرؤى، وعندما انتبه لاختفائه كنت أخرج بحثا عنه فى غرف المصحة، كنت أناديه بصوت عال، بخوف، ربما كان يعرف ذلك.

اهبط إلى المطبخ، الذى كان فى قبو البيت، إلى جوار غرفة الخزين وغرفة المدفأة، اصعد السلالم منهكة منادية عليه، اخرج إلى الحديقة، ادخل كل غرفة من الغرف، أنهك نفسى بحثا عنه، إلى أن يظهر فى النهاية وحده.

كنت أعاتبه:

- أنت تجعلنى أشعر كما لو كنت كتابا منسيا.

fb/mashro3pdf

مع ذلك كان يمكن لزوجي أن يوجه إليّ العتاب نفسه.

كنت قد تحولت إلى بندول للألم، برادار فى عقلى لاكتشاف وجود الخوف والأشباح، كنت انشغل بهم إلى أن يصيبنى غياب زوجى بالقلق من جديد، فأقضى اليوم كله بحثا عنه فى البيت، إلى أن يظهر فى النهاية بمحض إرادته.

لكن كما قلت، هذه المرة أمضى عدة أيام مختفيا، وعدت للبحث عنه، بدأت بالحديقة، وبعدها فى الغرف، قضيت يومين كاملين فى البحث عنه، فى النهاية قررت الهبوط إلى القبو، المكان الخالى فى ذلك البيت المظلم، حيث توجد غلاية المياه القديمة، وهناك اكتشفت فى النهاية جسد زوجى متكوما على الأرض.

ناديته، اعتقدت فى البداية أنه كان نائما، كان سكران لكنه نائم، هززته، كان مبتلا، تبول على نفسه، شئ جديد لم يكن من عادات زوجى، شعرت بالخوف، أدرت رأسه واكتشفت الكيس، كان وجهه وجزء من رأسه فى كيس من البلاستيك، كان يبدو مختنقا.

كم من الأقراص المنومة كان فى حاجة إليها؟، كنت أفكر كغبية مرتكزة على ركبتى فى غرفة الغلاية إلى جوار زوجى الميت.

فى كتاب الموت الصغير المكتوب فى رأسى كانت هناك تلك النصيحة، لم أكن متفهمة مسألة ابتلاع تلك الكمية من الأقراص المنومة بشكل سريع ووضع رأسه فى الكيس البلاستيك وإغلاقه بعد ذلك بإحكام.

- إنها طريقة مؤكدة يمكن تنفيذها بإحكام.

كان قد شرحها لى كارليس ربيا قبل زمن مضى.

بما أن الكيس صغير، فإن الأوكسجين ينفد بسرعة، قبل أن يبدأ مفعول بقايا التنفس، يأتى بعدها توقف العقل عن العمل، لكن ما يؤدى إلى الموت حقيقة هو انخفاض كمية الأوكجسين التى تخفض من سرعة ضربات القلب إلى أن يتوقف بالكامل، ومعه تتوقف الدورة الدموية.

fb/mashro3pdf

كان الدكتور موت يتحدث أحيانا كطبيب.

صرخت طلبا للمساعدة.

كما لو كان الخروج إلى الشارع أو النافذة لطلب المساعدة شيئاً عاديا فى هذا البيت. كنت أصرخ طلبا للمساعدة، المساعدة، إلى أن حملوا كارليس ريبا ميتا، إلى مخزن الجثث، إلى خدمات التشريح فى الإقامة الطبية التى كان يعمل فيها كارليس ريبا..

عدت إلى النافذة. عدت إلى غرفتى البيضاء.

حبست نفسى فى كتاب، رفضت الخروج إلى الحديقة لتنفس آلام الموتى، ظللت فى غرفتى بالمصحة حيث شاهدت قبل سنوات مضت كيف يسقط شبح الموت عبر النافذة، إضافة إلى السرير كان هناك كرسى صغير ومائدة، جلست إلى المائدة لأشاهد كل ما يحدث عبر النافذة، وبعدها كنت أكتب النصوص غير المقروءة.

دخلت أحضان النوم المتقلب، كنت أحلم وانظر عبر النافذة البيضاء.

جالسة فى الكرسى الصغير، ورأسى على مستوى إفريز الشباك، أتأمل بيتى، برجى فى بيدرألبس، بيت الدكتور فوستر، وشئ ما أبعد من ذلك، بيت جدى الكبير، كنت أرى من تلك البيوت النافذة المميزة فقط، من خلفها كان يبدو مشهد الموت أو فراغ السماء، وثوب أبيض، سحابة، كما يقولون، كما لو كان صحيحا ما يقولون، راية للرياح، شراعات نافذة الطابق العلوى لبيت جدى كانت مغلقة، كما كانت دائما، كان هناك شخص ما يحرس الموتى، وأشباحهم الساكنة.

مع ذلك كانت نافذتى المتميزة فى بيدرألبس مفتوحة دائما، وتنتظر كما كانت دائماً حدوث أى شئ.

اكتشفت حركة خلف الزجاج، طفلة مرتدية قميصا ناصعا، وجونلة حمراء، وخصلة شعر سيئة القص تطل من النافذة، وتنظر إلىّ، ترقبنى بإصرار، تماما كما كنت أفعل أنا أيضاً، كنت أنظر إليها بحلاوة، تمر سحابة، الطفلة كان اسمها

fb/mashro3pdf

نوريا، هكذا كانوا يطلقون عليها «نوريا» عندما كانوا ينادونها، ابتعدى عن النافذة، كما لو كان مجرد النظر عبر النافذة أمر خطر، لأنه يمكن فى أى لحظة أن تسقط سيدة من النافذة المقابلة وتموت، هذا ما لا يقولونه، لكن الطفلة تعرف ذلك. لذلك تنظر حتى لا تسقط، يمكن أن تظهر وتختفى أمها فى أى لحظة، يمكن أن يحدث أى شئ عندما لا يحدث أى شئ، تمر سحابات وأشياء أخرى، تنظر الطفلة وتنتظر، تنتظر الطفلة أن يحدث فى نافذتها شىء مفزع، شىء مفزع ليس أقل من موت الأم، الحياة كتاب مفتوح فى مصحة نفسية، تنفتح نافذة ويدخل عبرها الموت، لا تريد الطفلة أن تصدق ما تراه عيناها، كيف لها أن تصدق حينها ما لم تره عيناها بعد!، تنتظر الطفلة شيئاً، السقوط، النافذة، السيدة البيضاء منعكسة على السماء. لم تعد السحابات تمر، إنها اللحظة المناسبة، ربما لفتح النافذة والسقوط من جديد، سحابة بيضاء تبدو فى النهاية، تنزلق وتمر.

رقم الإيداع : ٩٦٧٧ / ٢٠٠٢
I. S . B . N
977 - 07 - 0956 - 5

fb/mashro3pdf

هذه الرواية

تدخل هذه الرواية فى إطار السيرة الذاتية، حيث تنطلق الكاتبة من حياتها الخاصة فى الطفولة لتدخل فى طرح القضايا العامة المحيطة بها ، وذلك من خلال نسيج رقيق شفاف ، فهى تطرح نصوصها المؤلفة مختلطة بنصوص لكتاب الأدب العالمى ، مثل ديكنز وشارلوت برونت ، وكارمن لافورت ، وأيضا أبرز كتاب الأدب المحلى القطالونى ، مثل فويس وكارنر وغيرهم من مبدعى اللغة القطالونية التى ترفضها الكاتبة على الرغم من تعلقها المتأرجح بشخصية أبيها القطالونى جدا .

تدور أحداث الرواية فى بيت الطفولة والمبانى المحيطة به من مصحة نفسية إلى محل حلوى الذى يملكه الشاعر فويس ، من مقبرة الأم الميتة إلى مكتبة الأب التى تحتوى على الكتب التى منحت البطلة صداقتها وعايشتها من خلال شخصيات أدبية فى روايات معروفة عالميا ، كعلاقتها المتخيلة مع «بدرو بارامو» بطل رواية بالاسم نفسه للكاتب المكسيكى «خوان رولفو» .

رواية «أسرار حميمة» نوع أدبى يبدو جديدا على أدب الرواية كما نعرفه ، فهى نص أدبى مركز يعتمد اللغة الشعرية أكثر من اعتماده على لغة القص المعروفة ، وتنطلق الرواية من «منولوج» خاص حول الحياة والموت ، لتصلهما بالحياة العامة عبر الجنون والحب .

نوريا أمات

* كاتبة إسبانية تعتبر واحدة من أفضل كتاب الرواية فى إسبانيا المعاصرة.
* ولدت فى برشلونة ودرست الفلسفة والآداب وعلم المكتبات ، وحصلت على الدكتوراه فى علوم الإعلام.
* عملت بالتدريس الجامعى لفترة من الزمن فى مدرسة المكتبات بجامعة برشلونة ، ثم تفرغت للكتابة الأدبية .
* إلى جانب كتابة الرواية والنقد تتعاون حاليا مع عدد من الصحف والمجلات الأدبية المتخصصة فى إسبانيا وأمريكا اللاتينية .
* من أهم رواياتها ومجموعاتها القصصية :

«سارق الكتب» ١٩٨٨ ، «حب قصير» عام ١٩٩٠ ، «كلنا كافكا» عام ١٩٩٣، «السفر صعب جداً» عام ١٩٩٥ ، «أسرار حميمة» عام ١٩٩٧ ، و «وطن الروح» عام ١٩٩٩ .

fb/mashro3pdf